هل ظَلَمَنا اللَّه؟!

الشرّ في الرؤية القرآنية

هل ظَلَمَنا اللَّه؟!

الشرّ في الرؤية القرآنية

حسين الخشن

بسم الله الرحمن الرحیم

في المقدّمة
لماذا يا ربّاه؟!

سأحدّث ربّي جلّ جلاله

تراودني أفكارٌ شتى عن لحظة اللّقاء بالله تعالى، وعن يوم العرض والحساب، كيف سيكون اللّقاء؟ ماذا سيفعل بي ربّي؟ هل يرحمني وهو أرحم الراحمين؟ أم يعذّبني وهو الغنيّ عني وعن عذابي؟!

وفي غمرة هذه الأفكار، فإنّ ثمّة شعورًا يتملّكني ويهزّني كثيرًا، ألا وهو شعور الخجل والحياء، لمعرفتي بأنّ الله تعالى سوف يواجهني بحقائق الأمور، وأنّي مكشوف أمام ربي بأعمالي ونواياي كلّها، مكشوف بسري وعلانيتي، فهو لا تخفى عليه خافية، باطني عنده ظاهر، وسريرتي عنده علانية، وهو الشاهد عليّ في كل ما اقترفت وهو في الوقت نفسه الحاكم والقاضي، عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**اتقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم**»[1].

فماذا عساي يا ترى أن أقول وبمَ أعتذر؟ وكيف أدافع عن نفسي؟ ما هي حجّتي وهل لي من مهرب؟

أخالني لن أجد في ذلك اليوم الرهيب ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]، وبعد أن يكلّ لساني وينقطع صوتي، لن أجد منجىً ومستمسكًا إلّا رحمة ربي وسعة عفوه ولطفه.

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٧٧.

وإنّ أملي بعفوه كبير، وإن ثقتي برحمته تسلّيني، كيف لا وهو الذي سبقت رحمتُه غضبَه، ولطالما عفا عن المجرمين قبلي، ولساني يردد مع سيدنا زين العابدين عليه السلام: «إلهي وسيدي! وعزّتك وجلالك لئن طالبتني بذنوبي لأطالبنّك بعفوك، ولئن طالبتني بلؤمي لأطالبنّك بكرمك، ولئن أدخلتني النار لأخبرنّ أهل النار بحبّي لك»(١).

وسوف أسأله أيضًا

وفي الوقت عينه، فإنّي وأنا المؤمن بالله تعالى، أمتلك أسئلة تخالجني نفسي أن أتوجّه بها إلى الله تعالى يوم اللّقاء، لأسأله تعالى عن وجه الحكمة في كثير من الأحداث التي خفي عليّ وجهُها، ولم أفهم مغزاها، أو ظلّ فهمي فيها ناقصًا، وعقلي عنها قاصرًا كليلًا، نعم، سأسأله عن ذلك، وإنْ كنتُ بحسب تربيتي الإيمانيّة لا أبيح لنفسي أن أعترض على ربي اعتراض المشكّك في قدرته أو حكمته، وكيف أشكّك فيما لا أملك الإحاطة بعلمه؟! وكيف يسوّغ لي أن أعترض على ما لا أفهم وجهه، مع علمي وإذعاني أنّه صادر عن الخالق الحكيم والعليم؟!

ويقيني الذي لا يشوبه شكّ أنّ جوابه لي ولغيري ممن هم على شاكلتي سيكون جوابًا شافيًا وافيًا، وهو جوابٌ بالفعل لا بالقول، حيث سيظهر لي الحقيقة الناصعة التي كنت عنها غافلًا، ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وعندها سأكتشف مدى جهلي بربي وعظيم حلمه بي! ولن يكون شفيعي يوم اللقاء أفضل من حسن ظني بربي، وحبي إياه، فهو أملي وسفينتي، وهو الذي يدفعني إلى الاعتقاد أنه سيرحم جهلي، ويتجاوز عن سوء عملي.

السؤال ليس تشكيكًا

أجل، إني لا أعترض على ما لم أفهم، ولكنّي لا أجمد على حالة

(١) من دعاء السَحَر المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، راجع مصباح المتهجد، ص٥٩٦.

الجهل، بل أبذل قصارى جهدي في سبيل التعلم، وأسعى لأن أفهم وأعرف حكمته تعالى في الكثير مما يجري في هذا الكون، ليطمئن قلبي بذلك، وتنقشع عن بصيرتي سحائب الغمام وظلال الشكوك، ويتسنى لي أن أقدم جوابًا شافيًا لكل الناس الذين لم يقتنعوا ببعض الأمور رغم إيمانهم بالله.

وقد يكون من المناسب هنا أن أعترف بخطأ ربما نقع فيه نحن الذين نتكلم باسم الدين ونحمل عناوينه وننطق باسمه ونتجلبب بجلبابه، ألا وهو تسرعنا في الحكم على كلّ من يتوجه بالسؤال والعتاب إلى الله تعالى، وذلك في ذروة مصيبة ألمّت به، وأوجعته، فأفقدته حبيبًا أو عزيزًا، فترانا نحكم بأنه كافر أو متمرد أو ضعيف الإيمان! كلا يا سادة ليس من حقنا أن نتسرع في تكفير كل هؤلاء والتحامل عليهم، والله جل وعلا هو وحده دون سواه أعلم بوجع هؤلاء وأدرى بضعفهم، وهو خبير بأنّ أسئلة الكثيرين منهم لم تنطلق من جحود بربوبيته أو تمرد على إرادته أو اعتراضٍ على حكمته، وربما كانت أسئلة تبثها ألسنتُهم من موقع من يريد أن يجد جوابًا عن أسئلته، وكيف يجد جوابًا إن لم يتسن له أن يفصح عن مكنون نفسه؟! وكيف يحاسب على أسئلته تلك، مع أنّها مجرد أسئلة قد تطوف في الخيال طوافًا عابرًا أو تفرض نفسها عليه دون أن يستطيع لها دفعًا ولا يملك عليها ردًا، والله تعالى أجل وأكرم وأعدل من أن يعذب هؤلاء لأنه عذاب على ما ليس بالاختيار، «**ما غلب الله عليه فهو أولى بالعذر**»(١).

إنّ هؤلاء يحتاجون إلى من يجيب عن أسئلتهم ويروي عطشهم الفكري وظمأهم الروحي، بدل أن يرجمهم ويخوّنهم، إنّهم بأمس الحاجة إلى عقل يتفهم هواجسهم وقلبٍ يحتضنهم، وخطاب يستوعبهم وليس إلى خطاب يجلدهم ويرعبهم ويقدم لهم صورة مخيفة عن ربهم وخالقهم، وهي صورة الإله المنتقم الذي يقف بالمرصاد مترقبًا بشوق ما يصدر عن عباده وما يجول في خطرات الظنون ولحظات العيون فيسجل ذلك في سجل الزلات ليحاسبهم عليها!

(١) الكافي، ج٣، ص٤١٢.

حدثوا الله واسألوه!

وأسمح لنفسي هنا بأن أتوجه إلى هؤلاء، أعني إلى الموجوعين والمعذَّبين، إلى الخائفين والمحرومين، إلى المظلومين والمضطهدين، وأقول لهم: لا تسمحوا لآلامكم وأوجاعكم أن تُسقطكم وتُضعف إيمانكم وإرادتكم. تعالوا قبل التسرع في إصدار الأحكام، وقبل أن تقعوا أسرى كلماتكم العجولة والتي تبثونها في الهواء الطلق، تعالوا لنجرب طريقة جديدة في التعامل مع الموقف، وهو أن نتوجه أولًا وقبل كل شيء إلى الله تعالى، فنحدثه ونناجيه ونشكو إليه همومنا ونبث إليه أحزاننا وآلامنا، ونطلب منه قبل غيره أن يعرفنا فلسفة أفعاله التي لا نفقه حكمة بعضها ولا ندرك أسرارها ومآلاتها.

تعالوا قبل أن نندفع تحت وطأة المصائب إلى التشكيك بقدرة الله وطرح الأسئلة حول حكمته تعالوا إلى تجربة من نوع آخر، وهي بالتأكيد ستكون تجربة مريحة لأنفسنا، وأقصد بها تجربة اللجوء إليه تعالى، والتفكر في صفاته وأفعاله، والطلب منه أن يهدينا إلى الحكمة في كل ما يجري من حولنا من آلام ومصائب، فهذا سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام عندما أحس بالحاجة إلى نفحة إضافية من الاطمئنان لم يتوان عن أن يتوجه بالسؤال إلى ربه تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِىۖ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

وكونوا على ثقة تامة بأن من لجأ إلى الله تعالى فلن يخيب، ومن اعتمد عليه فلن يخسر، ومن استرشده واستهداه فلن يضل أو يتيه.

هذا الكتاب..

أعزائي.. إنّ الكتاب الماثل بين أيديكم هو حصيلة محاضرات ودروس ألقيت في مناسبات شتى، وأوقات مختلفة، وكان محور هذه الدروس والجامع بينها هو إشكالية الشرور ومدى انسجامها مع عدل الله تعالى وحكمته، وهي الإشكالية الأكثر حضورًا في ذهن الإنسان والأشد تأثيرًا على فكره وسلوكه وحياته.

والإشكال على العدل الإلهي تارة يقتصر على النظر إلى عالم الدنيا وما يكتنف الحياة أو يشوبها ـ بنظر البعض ـ من نواقص وعيوب وتشوهات، وما يجري فيها من مظالم وتعديات، وأخرى يمتد إلى عالم الآخرة، وما أعده الله تعالى لمن كفر به أو عصاه من عذاب أليم في مستقر الجحيم، حيث يتساءل البعض عن عدالة هذا النوع من العقاب، ولا سيما عندما يمتد ليكون عقابًا دائميًا ولا ينقطع.

والإشكال من الزاوية الثانية ليس محط نظرنا هنا، فقد خصصنا للإجابة عنه كتابًا مستقلًا وهو كتاب «هل الجنة للمسلمين وحدهم؟»، ولذا سيقتصر حديثنا في هذا الكتاب على الإشكال من الزاوية الأولى فحسب.

وسوف تكون هذه المعالجة في أبواب ثلاثة:

الباب الأول: ونخصصه لبيان إشكالية الشرور والفواجع والأمراض من زواياها المختلفة، كما ونتطرق فيه إلى بيان أهم القواعد العامة والمفاهيم الأساسية التي لا يستغنى عنها في فهم الأجوبة والمعالجات على الإشكالية المذكورة.

الباب الثاني: وهو المخصَّص لذكر المقاربات والمعالجات القرآنية لإشكالية الشرور بشكل عام، وهي مقاربات متنوعة كما سنرى، ونستبق هذه المقاربات بذكر بعض المعالجات غير الموفقة للإشكالية.

الباب الثالث: وهو الباب الأخير، ونتطرق فيه إلى بعض الابتلاءات الخاصة التي يُنظر إليها بصفتها شرورًا، وهي الموت والمرض والشذوذ الجنسي.

ونختم بذكر ملحق نتطرق فيه إلى الإجابة على بعض الأسئلة التي تتصل بموضوع هذا الكتاب.

طريقة المقاربة

وبعون الله تعالى سوف نحرص على أن نستقي في معالجة الإشكاليّة المذكورة والإجابة عنها من وحي القرآن الكريم ومعينه، بحيث يكون دورنا

هو دور السائل والمستفتي، ودور القرآن هو دور المجيب والمفتي، وسيلمس القارئ روعة المقاربة القرآنية لهذه الإشكاليّة، حيث يمتزج فيها البعد البرهاني مع الأبعاد الوجدانية والتربوية والاجتماعية.

ونحن لا ندّعي أننا نقدم إجابات مبتكرة وغير مسبوقة، بل ربما كان بعض ما سنقدمه من مقاربات مطروحًا في كلمات أعلام الدين والفكر والفلسفة، وربما يستطيع الإنسان بالتأمل ذكر وجوه أخرى في هذا السياق. ولعلّ الجديد في هذه المقاربة هو تنظيم الأجوبة وتقديمها بلغة قريبة إلى الوجدان، مترافقة مع الاستدلالات والبراهين، والوجه في اعتماد هذا المنهج الذي يجمع بين البرهان والوجدان، أننا نقتفي أثر القرآن الكريم في ذلك، ولا سيما أنّ موضوعات الكتاب ألقيت في الأساس ـ كما أشرنا ـ على شكل محاضرات عامة تستهدف شرائح اجتماعية واسعة من أبناء هذا الجيل، وهذا الأمر كان سبب الإسهاب في بيان بعض المطالب أو تكرار بعض الأفكار، وكان أيضًا سببًا في ابتعادنا قدر المستطاع عن الاصطلاحات التخصصيّة وعن المعالجة الدقيقة من الناحية العقلية والفلسفية لبعض المطالب. بالإضافة إلى سبب آخر، وهو أنّ محل الكلام بطبيعته يحتاج إلى مقاربة تمزج بين البرهان والوجدان، فالإنسان الموجوع لا يمكنك أن تخاطبه بلغة عقلية جافة، بل لا بدّ أن تمزج العاطفة بالعقل، والوجدان بالبرهان، وهذا ما يفسر كثرة تمسكنا بالشواهد والأمثلة التي تحاكي القلب قبل العقل، لأنها تسهم في تحقيق الاطمئنان لدى النفس، فيتنزّل اليقين إلى القلب، ويشعر ببارد الاطمئنان، كما شعر العقل بساطع البرهان.

وبكلمة أخرى: إنّ الإشكالية التي نعالجها في هذا الكتاب هي إشكالية شديدة الحساسية، ولا تعالج بالتنظير الفكري فحسب، بل تحتاج إلى أدلة تلامس الوجدان، وتورث الاطمئنان، ألا ترى أنّ بعض الأشخاص عندما يتحدثون عن فلسفة المصائب في حال كانت هذه المصائب بعيدة عنهم،

فإنّهم يقدمون لها تفسيرًا وتبريرًا مقنعًا، بيد أنّ هؤلاء الأشخاص أنفسهم إذا وقعوا في شباك المأساة، فإنّ وطأة الحادثة تؤثر عليهم، وقد تتلاشى تلك الإجابات التي كانوا يقنعون الآخرين بها في غمرة الألم والوجع.

وعليّ أن أسجل اعترافًا آخر هنا، وهو أنّه ليس كل إشكال أو تساؤل قد نجد جوابًا مقنعًا عنه، وإنما علينا أن نبذل قصارى جهدنا في هذا المجال، فإن وفقنا للإجابة فهذا من لطف الله تعالى، وإن عجزنا فالأفضل أن لا نتكلف الإجابة أو نقدم أجوبة إسكاتية غير مقنعة لأنفسنا فضلًا عن أن تكون مقنعة لغيرنا، والأجدى أن نترك الأمر لغيرنا، فقد علمتنا التجارب أنّ كثيرًا من الإشكالات يفسرها الزمان.

حسين أحمد الخشن

٢٠٢٠/١/٣٠م

الباب الأوّل

معرفة الإشكالية والقواعد المنهجية في التعامل معها

- المحور الأول: إشكالية الشرور: تاريخها، أبعادها، آثارها، معايير تقييمها.
- المحور الثاني: أصول وقواعد ومبادئ عامة.
- المحور الثالث: الابتلاء في القرآن الكريم.
- المحور الرابع: الشرّ والشيطان في القرآن.
- المحور الخامس: فلسفة خلق الإنسان في الرؤية القرآنية.

هذا الباب ـ كما أشرنا في المقدمة ـ مخصص لبيان إشكالية الشرور والفواجع في أبعادها وزواياها المختلفة، ومن ثمّ نتطرق إلى بيان أهم القواعد العامة والمفاهيم الأساسية التي تشكل مدخلًا أساسيًا لا يستغنى عنه في فهم المقاربات والإجابات القرآنية عن إشكالية المذكورة.

المحور الأول
إشكالية الشرور:
تاريخها، أبعادها، آثارها، معايير تقييمها

١ ـ أسئلة وإشكالات

٢ ـ تاريخ الإشكال

٣ ـ أبعاد الإشكالية

٤ ـ إشكاليّة الشرور وآثارها على العقيدة والسلوك

٥ ـ موازين التقييم ومعاييره

تواجه الإنسانَ في رحلة الحياة الكثيرُ من التحديات والمعاناة والمصاعب، وفي خضم هذه المكابدة تطرح النفس عليه جملة من الأسئلة والتشكيكات والتي قد لا يجد لها في بعض الأحيان جوابًا مقنعًا، فيختزنها في بعض زوايا النفس، أو يلهج بها على الملأ، وإليك بعضًا من هذه الأسئلة المقلقة التي تجتاح نفوس الكثيرين من بني الإنسان:

١ ـ أسئلة وإشكالات

لماذا سمح الله تعالى بوقوع الظلم في هذا العالم؟ وأين العدل فيما يجري؟ وما الحكمة فيه؟

لماذا هذه التشوهات والنواقص في عالم الطبيعة؟

لِمَ لا يتدخل الله تعالى فيما يجري من فجائع وعمليات إبادة للصغار والكبار ويمنع بقدرته من حصول ذلك في خلقه؟

ولماذا يختار الله فلانًا ليكون هو المتألّم دون فلان؟

ولمَ يفرض الله على الإنسان ما لا يريده؟

وإذا كان الجواب الديني يبرر حصول العاهات والتشوهات البدنيّة بأنّ الله تعالى يعوّض الإنسان عنها بالجنة، ويخفف عنهم الحساب، أي يكون لأصحاب العاهات خصوصية معينة في يوم الحساب، لكن السؤال: لعلّ المبتلى لا يريد هذا الأمر، وهو لا يقبل بهذه العناية الناشئة عن عاهته؟ وهو لا يريد دخول الجنة من وراء عاهته، بل يريد الفوز بها من خلال قوته وعمله، فأين العدالة الإلهية أو الحكمة الربانية في ذلك؟

ثم إذا كان البلاء من مقتضيات الدنيا ولوازمها، فكيف نفسر الروايات التي تفرق بين المؤمن والكافر في الابتلاء، حيث يُذكر أنّ الله تعالى يبتلي المؤمن أكثر من غيره، وكأنّ الله تعالى يترصد المؤمن ويوقعه في ابتلاءات خاصة به؟

ويتساءل البعض: أليس من العدالة أن يتدخّل الله تعالى وينهي عبث الشيطان في الأرض؟ بل لماذا خلق الشيطان أساسًا؟

ومن الأسئلة المقلقة للكثيرين: أنّه إذا كان الله تعالى عالمًا بمصير الإنسان قبل أن يخلقه، وعالمًا أن فلانًا سيكون كافرًا أو ظالمًا وسيدخل النار، فلماذا خلقه أصلًا؟! أيخلقه لكي يعذبه؟ وإذا كان خلقه لا يتنافى مع عدله تعالى لكن ألا يتنافى مع رحمته!

وتتوالى سلسة الأسئلة ليصل الأمر إلى سؤال الموت، حيث إنّ بانتظارنا مصيرًا مخيفًا وهو الموت، وهو من أكثر المقلقات لراحتنا والمنغصات في حياتنا، وأبغض الأمور وأشدها وطأة على النفس البشرية. والسؤال: لماذا يبتلينا الله تعالى بالموت ما دمنا نكرهه؟ ولمَ لا تكون حياتنا دائمة وأبدية؟

٢ ـ تاريخ الإشكال

ولا يخفى أنّ ما اصطلح على تسميته بإشكال الشرور هو من أقدم الإشكالات وأوسعها التي طرحها الإنسان، وقد تناولها الفكر الفلسفي منذ القديم، ونستطيع القول: إنّها شغلت الفكر الإنساني برمته، ودخلت في

الشعر والأدب والفكر، ولهذا مثّل وجود الشر في العالم مشكلة لاهوتية وفلسفية وإنسانية عامة في الآن عينه.

ولم يسلم المتديّنون من وطأة الأسئلة المذكورة، فلربّما لهج بها بعض المؤمنين في حالات الابتلاء الصعبة. صحيح أنّ الدين له رؤيته في هذا المجال وقدم جوابًا عن تلك الأسئلة، وأسهم في تخفيف وطأتها على الفرد والمجتمع، بَيْدَ أنّ وجود الجواب لا يعني حصول القناعة لسبب أو لآخر.

وفيما يبدو فإنّه ـ وبحسب ما جاء في القرآن الكريم ـ فإنّ الملائكة هم أول من أثار الإشكالية، من خلال طرح التساؤل عن حكمة خلق الإنسان، مفترضين ـ في حديثهم مع الله تعالى ـ أنّ الإنسان هو مصدر الشر، فهو الذي يسفك الدم ويفسد في الأرض، وبالتالي فما الداعي إلى خلقه؟! وسيأتي لاحقًا التطرّق إلى هذه النقطة.

ومن هنا يكتسب هذا البحث أهميّة خاصة لدرجة أننا لا نبالغ بالقول: إنه من أهم الأبحاث التي تطرح في مجال الفكر الديني والفلسفي.

وأعتقد أنّ هذه الإشكاليّة بأسئلتها المقلقة ستظل مطروحة ما بقي الإنسان في هذا العالم، لأنّها تنطلق من طبيعة الحياة المشوبة بالنقص، وإنّ السؤال في كثير من الأحيان يعبّر عن كوامن النفس وهواجسها الباحثة عن اطمئنان.

ولهذا فإنّ بحثنا هذا لإشكالية الشرور والنواقص الموجودة في عالم التكوين وما يواجه الإنسان من مصائب وآلام، ليس هو الأول، ولن يكون الأخير وستبقى القضية مفتوحة أمام التفكير الحر.

٣ ـ أبعاد الإشكالية

إنّ إشكالية الشر يطرحها أشخاص مؤمنون بالله تعالى تارة، ولكنّهم لا يفهمون الحكمة في بعض أفعاله، فيظنونها نواقص منافية لعدله أو حكمته، وتارة أخرى يطرحها أشخاص ملحدون يريدون بذلك تسجيل اعتراض على

الفكر الديني الذي يؤمن بالإله الخالق الحكيم، وربما اتخذها البعض سندًا لإلحاده وعدم إيمانه بإله لا تتسم أفعاله بالعدالة والحكمة.

وعلى كل حال، فإنّ الإشكال المذكور ذو أوجه متعددة ويمكن طرحه من زوايا وأبعاد مختلفة:

أولًا: تعدد زوايا الإشكال بتعدد وجوه النقص

إنّ إشكال الشر ـ كما لا يخفى ـ لا ينحصر فيما يجري في دائرة الإنسان، بل هو أوسع من ذلك، فتارة يتركز الإشكال على فعل الله تعالى، بسبب ما يلاحظه الإنسان من وجود خلل ونواقص في نظام الخلق أكان نقصًا في عالم الطبيعة وما تشهده من كوارث وهزات وزلازل وبراكين وغيرها، أو كان خللًا في خصوص خلق الإنسان، من قبيل ما نشهده من خلق المشوهين وأصحاب العاهات، وتارة أخرى يطرح الإشكال من زاوية فعل الإنسان، وما يرتكبه من جرائم واعتداءات متجاوزًا منطق العدالة والرحمة، فيسرق ويظلم، وهذا الجانب عند التأمل يعود بنا إلى الجانب الأول، حيث يُسأل: لماذا خلق الله الإنسان على هذه الشاكلة؟ وما الهدف من ذلك؟

وبعبارة أخرى: إنّ الشر على نحوين:

الأول: الشر الطبيعي أو التكويني، وهو ما يلحظ من خلل في عناصر الطبيعة، بما في ذلك الإنسان، وما يبتلي به من أمراض.

الثاني: الشر الأخلاقي الذي يتعلق بالرذيلة والخطيئة والكذب والعدوان، وسواها من أفعال الإنسان.

ثانيًا: الإشكال من زاوية انعكاسه على الفكر الديني

وهذا هو الجانب الأهم، وذلك قضيّة الشرور شكّلت مجالًا للطعن في أكثر من عقيدة دينية، وبيان ذلك:

أ ـ أنه تارة يُطرح الإشكال بغرض التشكيك في وجود الله تعالى، باعتبار أنّه لو كان الله موجودًا وهو القادر والعالم بما يجري من مصائب وجرائم وآلام وأمراض فكيف يرضى بحدوثها ويسمح ببقائها؟! وقد اتخذ البعض من هذه الشرور متكأً لهدم برهان النظم الذي هو من أهمّ الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى، على اعتبار أن هذه المعايب والنواقص في النظام التكويني تهدم المقدمة الأساس في هذا البرهان وهي المقدمة القائلة: إنّ في الكون نظمًا واتساقًا وإتقانًا، ثم إنّ البعض ذهب بعيدًا فحاول استنادًا إلى هذه «الشرور» صياغة ما يشبه الدليل لإثبات عدم وجود الله!

ب ـ وتارة أخرى يسجل الاعتراض على صفات الله تعالى، ومن أهمّها صفتا العدل والحكمة، لأنّه كيف ينسجم ما نراه في هذا الكون وما يواجهنا في حياتنا من شرور ومصائب مع عدله تعالى وحكمته؟! فإنّ العادل هو الذي يعطي كل ذي حقّ حقه، والحال أنّ الظلم منتشر ومتفشٍ بين العباد! والحكيم لا يفعل القبيح بل يضع الأمور في مواضعها، والحال أنّ الكثير من الموجودات ليست موضوعة في موضعها المناسب! فلماذا هذه الكوارث من الزلازل والفيضانات التي تقضي على الأخضر واليابس؟ ولماذا يخلق الله الحيوانات المؤذية كالأفاعي والعقارب؟ ولماذا يخلق إنسانا جميلًا وآخر قبيحًا وإنسانا سليمًا وآخر مشلولًا ولماذا ولماذا؟ أليس هذا مما يتنافى مع حكمة الله؟

وإنّ مقاربتنا في هذا الكتاب وإن كانت ستركز على الإشكالية من الزاوية الثانية، أعني من جهة ملاءمة النواقص والتشوهات مع العدل الإلهي، دون الزاوية الأولى، التي ينبغي أن يتكفل بها البحث عن وجود الله ووحدانيته، بيد أنّ الأمر مترابط، وإذا تسنى دفع الإشكال عن عدله تعالى، فإنه سوف يندفع تلقائيًا بلحاظ وحدانيته.

٤ ـ إشكاليّة الشرور وآثارها على العقيدة والسلوك

إنّ إشكاليّة الشرور، لها آثار جمة وانعكاسات كبيرة وخطيرة على الاعتقاد والسلوك معًا، وبيان ذلك:

أولًا: أمّا انعكاسها على العقيدة، فمرده إلى أنها من أكثر الإشكاليات وأوسعها التي تعترض قضية الإيمان بالخالق الحكيم، وسؤال الحكمة من وجود الشرور يفرض نفسه على الإنسان بما في ذلك المؤمن. ولا يخفى أنّ موقف الناس قد يتفاوت أمام هذه الأسئلة، فالبعض ربما يتغلب عليها استنادًا إلى حجج عقليّة وبرهانية، أو لقوة إيمانه بالله تعالى التي تمدّه بقوة طاردة لتأثيرات هذه الأسئلة حتى أن البعض قد يصنفها في دائرة الوساوس، والبعض الآخر يكتم الإشكال في صدره وينطوي عليه، ويتهيّب من طرحِ السؤال أمام الغير بل ربما يحاذر من التفكير في الأمر فيما بينه وبين نفسه خوف أن يخدش ذلك صفاء إيمانه ويخرب عليه سكينته. والبعض الثالث لا يستطيع أن يجد إجابة عنه، ولا يهمه أن يحبس الإشكال في نفسه ما يدفعه إلى إعلان موقف من الخالق، فيشكك في حكمته وعدالته، أو يشكك في أصل وجوده، لأنّ انعدام الحكمة في الخلق يوازي بنظره انعدام الخالق الحكيم والقادر، فلو كان الله تعالى حكيمًا لما خلق هذا الكون بهذه المعايب، ولو كان قادرًا لرفع النواقص كلها! وعليه، فلا حاجة بنا إلى إله عاجز، لأن مبرر وجود الإله هو أن يكون عادلًا وقادرًا.. إذن نحن أمام إشكالية شديدة التأثير على اعتقاد الناس، ومن هنا كان العجز عن إيجاد إجابة على إشكالية الشرور أحد أسباب الإلحاد ودوافعه، يقول الفيلسوف البريطاني أنتوني جيرارد نيوتن فلو (١٩٢٣ ـ ٢٠١٠ م): «أحدُ الأسباب المبكرة لتحوّلي إلى الإلحاد كان مشكلة الشرور في العالم»[١]. ويقول: «مشكلة الشر كانت بالنسبة لي دحضًا حاسمًا لوجود إله كامل الخير وكامل القدرة»[٢].

---

(١) ليس هناك إله، كيف غيّر أشهر ملحد رأيه؟ ص٢٥. ترجمة الدكتور صلاح الفضلي.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٩.

ومن تداعيات إشكاليّة الشرور أيضًا أنّها تُعدّ الدافع الأبرز الذي يقف خلف عقيدة الثنويّة من المجوس الذين اعتقدوا أنّ الشر لا يمكن أن يصدر عن الله تعالى فلا بدّ من أن يكون هناك إله آخر قد صدر عنه الشر.

ثانيًا: وأمّا انعكاسها على السلوك الإنساني فهو أمر طبيعي، لأن ثمة علاقة وطيدة بين عقيدتنا ورؤيتنا حول الخالق وتعاملنا مع المخلوق، وبين رؤيتنا لما وراء الطبيعة وتعاملنا مع الطبيعة ذاتها، فمن ينظر إلى العالم على أنه عالم منبثق عن إرادة الإله الواعية والهادفة سيكون سلوكه مختلفًا عمن يرى أنّ هذا العالم تحكمه الصدفة أو الفوضى أو اللانظام.

إنّ إشكاليّة الشرور إذا استحكمت بالإنسان ولم يجد لها جوابًا مقنعًا ستترك آثارها على حياة الفرد والمجتمع معًا، **أما الفرد**، فهو الضحية الأولى لتحكم هذا الإشكال في النفس، لأنّ من الواضح أنّ من يسيطر عليه هاجس الشرور واللاانتظام في العالم سيقوده ذلك إلى الاعتقاد بعدم حكمة الخالق وعبثية الخلق، ما يدفعه إلى أن يعيش حياته بنحو من اللامسؤولية، بذريعة أنه إذا كان الكون مليئًا بالفوضى والعبثية واللاانتظام فليكن هو أحد عناصر اللاانتظام في هذا العالم، وهذا ما قد يجعل منه إنسانًا لا مسؤولًا ولا يتورع عندها عن تجاوز الحدود كلها، أو في الحد الأدنى يجعله إنسانًا منعزلًا، منكفئًا على نفسه. وفي ذروة استحكام هذه الإشكالية في ذهنه قد يندفع إلى وضع حد لحياته من خلال الانتحار! **وأما الجماعة**، فستكون هي الأخرى ضحية هذا الإشكال، لأن من أصابته لوثة هذه الإشكالية ولم يجد حلًا مقنعًا لها قد لا يقدم على وضع حد لحياته هو فحسب بل قد يعمل على إلحاق الضرر بالآخرين، دون إحساس بالمسؤولية.. ألسنا نرى بأمّ العين أنّ أشخاصًا ممن أصابهم فقر مدقع أو مصيبة فادحة أو تعرضوا للظلم والعدوان قد امتلأت نفوسهم نتيجة ذلك بالغيظ والكراهية، وحملوا نظرة عدوانيّة تجاه الآخر، وفي ذروة الاختناق الداخلي الذي يعيشه أحدهم نراه ينجر إلى التنفيس عن غضبه بأعمال عدائية تجاه الآخرين.

٥ ـ موازين التقييم ومعاييره

ومن الضروري قبل الإجابة على هذه الإشكالية أن نتطرّق إلى المعايير والموازين التي يفترض بنا اعتمادها في تقييمنا لهذه النواقص أو الفواجع أو الشرور. إنّ أخذ هذه المعايير بعين الاعتبار هو من الأهمية بمكان، لأنّه من جهة سوف يضع إطارًا توجيهيًا للإشكاليّة، ومن جهة أخرى، سوف يسهم في دفع الإشكال من أصله. والمعايير التي لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار هي:

المعيار الأول: بين عالم الدنيا وعالم الآخرة: هل يتم قصر النظر عند الحكم على الظاهرة بأنها شر أو على الحادثة أنها مصيبة على عالم الدنيا أم لا بدّ من إدخال الحياة الأخرى في الحسبان؟ إنّ الجواب على هذا السؤال سوف يؤثر على تقييمنا وحكمنا على الظاهرة، إنّ من يؤمن بيوم القيامة ويعتقد أن الدنيا هي مزرعة الآخرة سوف تتغير نظرته لكل ما يواجهه في هذه الدنيا من مصائب وآلام، فهذه المصائب ـ على مرارتها ـ هي مخاضات لولادة عالم جميل تغمره السعادة، وعليه، فلا يحق للمؤمن أن يقصر النظر في تقييم الإشكالية على عالم الدنيا ويغفل عالم الآخرة، لأن العوالم التي يمر بها الإنسان مترابطة فيما بينها، وعالمنا هذا هو كالمقدمة لعالم الآخرة، ومن المؤكد أنّ كل ما يجري هنا سوف تظهر ثمرته وأثره في ذلك العالم.

المعيار الثاني: بين البُعد المادي والبعد الروحي: هل يقتصر في تقييم الحادثة أو الظاهرة بالنظر إلى أثرها على الجانب المادي للإنسان أم لا بدّ من النظر إلى أثرها على الجانب الروحي أيضًا؟ إنّ كثيرًا من الحوادث أو المصائب والآلام التي تواجهنا في هذه الحياة إذا وزناها بميزان الحياة الدنيوية المرفهة والمصالح المادية فهي بدون شك تعدّ شرورًا، وأما إذا أدخلنا في الحساب البُعد الروحي والمعنوي وحاجة الإنسان إلى صقل نفسه وتهذيبها، فبالتأكيد سوف يؤثر ذلك في التقييم، وتغدو تلك المصائب ذات أهمية ونفع كبيرين.

المعيار الثالث: بين الرؤية الفرديّة والاجتماعية: هل المقياس ـ عندما نحكم بِشريّة حادثة أو خيريتها ـ هو ما تحققه من مصلحة للفرد فحسب، أم ما تحققه من مصلحة للنوع أيضًا؟ فربّ حادث يكون بالنظر إلى الفرد أمرًا سيئًا، ولكن بالنظر إلى الجماعة يكون شيئًا نافعًا ومفيدًا.

ومن الضروري في التقييم ـ مراعاة لهذا المعيار الثالث ـ أن لا نقصر النظر على ما ينفع الجيل البشري المعاصر، ونغض الطرف عن الأجيال القادمة، فبعض الناس في استهلاك الثروات الطبيعية قد يقصرون النظر على احتياجات هذا الجيل البشري، وبالتالي يعدون منعهم من بعض الأعمال الاستهلاكية لموارد الطبيعة ـ مثلًا ـ عملًا قبيحًا، والحال أنّ منطق العدل يفرض علينا أن لا نقصر النظر إلى ما يحقق الرفاهية لهذا الجيل فحسب بل نأخذ الأجيال القادمة بعين الاعتبار، لأن هذه الموارد الطبيعية هي من حقّ الأجيال كلها.

المعيار الرابع: وربما علينا أن نسأل عند وصف بعض الحوادث بأنّها شرور: هل المدار على مصلحة الإنسان فحسب، بحيث تكون الأولوية له دون سواه من مخلوقات، أم لا بد أن ندخل في الحسبان سائر المخلوقات ومنها الحيوانات مثلًا؟ فهل نحكم على بعض الظواهر الكونيّة مما هو نافع لغيرنا من المخلوقات ومؤذٍ لنا أنّه شرٌ أم لا يمكن حسبانه شرًا؟

وإذا أردنا أن نحدد الموقف من المعايير المتقدمة، فيمكن القول: إنّه بالنسبة للأسئلة المطروحة في المعايير الثلاثة الأولى، فإن الصحيح في الجواب عنها أن لا نقصر النظر على بُعدٍ دون آخر، فلا نقصر النظر ـ كمؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر ـ في تقييم المصيبة على أثرها الدنيوي بل لا بد من إدخال الأثر الأخروي في الحسبان، وهكذا لا نستطيع قصر النظر على الجانب المادي دون الروحي، ولا نستطيع أيضًا تحكيم المصلحة الفردية وإلغاء الفائدة النوعية العامة.

أما بالنسبة للتساؤل المطروح في المعيار الرابع الأخير، فيمكن القول: إنّه وفق الرؤية القرآنية يكون المدار على مصلحة الإنسان، لأنّه خليفة الله على الأرض، وهو محور الخلق، ولأجله خلق الله ما على الأرض قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقد سخرت لأجله كل المخلوقات، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]. أجل، إنّ التسخير لا يعني أنه يحق للإنسان العبث في الكون، والإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل[١]، فلسائر المخلوقات حق في الاستفادة من خيرات هذه الأرض.

(١) أوضحنا ذلك في كتاب الإسلام والبيئة، ص٣٥.

المحور الثاني
أصول وقواعد ومبادئ عامة

أولاً: العدل الإلهي مفهومه ودلالاته وأبعاده
ثانيًا: العدل وحرية الإرادة
ثالثًا: هل الميزان في حسن الأشياء وقبحها هو العقل أم الشرع؟

هذا المحور مخصّص للبحث في ثلاثة عناوين أساسيّة، وهي المذكورة أعلاه، وسرّ بحثنا في هذه العناوين أنّها بمثابة الأصول المفتاحية التي تبني عليها المباحث الآتية المتكفلة برد إشكالية الشرور وتفنيدها، والواقع أنّ هذه العناوين الثلاثة متداخلة ومترابطة، وكلها تتركز حول مفهوم العدل الإلهي ودلالاته وأبعاده ومنطلقاته. وما تضمنته هذه العناوين مما سيأتي التطرق إليه كان حصيلة حوارات[1] نُظمت في سلسلة من الحلقات، وقد حرصنا على إبقائها قدر المستطاع وفق صورتها الأولية المختصرة والبعيدة عن التعقيد واللغة الدقيقة المتخصصة، لأنّها تنسجم مع المخاطب المستهدف بهذا الكتاب وهو الجمهور العام.

(١) هي سلسلة حوارات تلفزيونية، في برنامج يحمل عنوان: العقيدة والقرآن، تمّ بثه عبر قناة الإيمان الفضائية.

أولًا: العدل الإلهي مفهومه ودلالاته وأبعاده

غنيٌّ عن البيان أنّ مفهوم العدل هو من المفاهيم الواضحة والمركوزة في ذهن كل إنسان، وإنما حصلت وتحصل الاختلافات في تطبيق المفهوم على مصاديقه، فما يراه البعض عدلًا وحسنًا ربما رآه آخرون ظلمًا وقُبحًا.

ومع اتفاق المذاهب الإسلامية برمتها على محورية العدل في الدين الإسلامي، فإنّ المدارس الكلامية قد اختلفت في الارتقاء به إلى مستوى الأصول، فمنهم من اعتبره أصلا من أصول الاعتقاد، كما هو الحال عند الشيعة والمعتزلة (العدليّة)، حيث عدّوا العدل أصلًا مستقلًا مضافًا إلى التوحيد والنبوة والمعاد، والإمامة عند الشيعة. ومنهم من لم يرقَ به إلى هذا المستوى، كما هو الحال عند المذاهب الإسلامية الأخرى.

والسؤال الأبرز الذي يفرض نفسه، هو: لماذا هذا الاختلاف، وما هو سببُه؟ هل للعدل معنى آخر في العقيدة غير ما نعرفه؟ ولماذا لم تتخذه المذاهب الأخرى أصلًا لها؟ ثمَّ ألا يُعد القول بأن «الله لا يمكنه إلّا أن يعدل» تحكيمًا للعقل على أفعال الله تعالى؟ ألا يتعارض هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]؟ ألم يجعل العدلية عقولهم في موقع من يسأل الله ويحاسبه على ما يفعل؟ وما هي دلائل عدل الله تعالى؟ وهل الذي يحكم بالعدل هو العقل أم الشرع؟

وكيف ينسجم عدل الله مع ما نراه بأمّ العين من ثغرات ونواقص وفواجع في هذا العالم؟ وما علاقة العدل بحرية الإرادة؟

هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عنها فيما يأتي بعون الله بنحو موجز، لأن الردّ على إشكالية الشرور تتوقف على الإجابة عنها.

١ ـ مفهوم العدل الإلهي

قلنا إنّ الإنسان يدرك بوجدانه معنى العدل وما يقابله من الظلم، وليس بحاجة إلى شرحٍ كبير لفهم ذلك، وإذا أردنا ترجمة هذا الإدراك أو

الإحساس الوجداني، بتقديم تعريف للعدل لم نجد أفضل من تعريفه بأنه «وضع الأمور في مواضعها»، وهذا التعريف مستفاد من كلام مروي عن الإمام علي عليه السلام قال: «**العدل يضع الأمور مواضعها**»(١).

وإدراكنا لمعنى العدل وحُسنه، هو الذي يدفعنا إلى الاعتقاد أنّه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الثبوتية الكمالية. إنّ الله تعالى هو العادل والذي يحكم بالعدل، ويحبّ العدل، ويأمر بالعدل، قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقيامه بالقسط شامل لكل من عالم التكوين والتشريع والجزاء، وهذا يعطي للعدل الإلهي مفهومًا واسعًا فهو يشمل:

أ ـ العدل في التكوين، أي في مجال الخلق والصنع، فالله تعالى عادل في خلقه، بمعنى أنه وضع ويضع كل شيء مما صنعه في محله الملائم. وهذا العدل يتجلّى في نظامه التكويني كله، فكل ما نراه من توازن في عالم البيئة والطبيعة هو تعبير جلي وبرهان ساطع على عدله التكويني، ولذا فحيثما تطلّعت الباصرة وأينما امتدت اللامسة، فلن تجد إلّا الإحكام والاتساق والتوازن في هذا النظام التكويني، فليس في الإمكان أبدع مما كان، ومهما حاول الإنسان أن يكتشف ثغرات ومعايب في هذا العالم فسوف يرجع خاسئًا خائبًا، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۞ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٣ ـ ٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧].

ب ـ العدل في التشريع، إنّ التشريع العادل هو الذي لا يحيف ولا يجور وإنما يضع القوانين التي تعطي كل ذي حق حقه، ولا ريب أن التشريعات الإلهية تشريعات عادلة. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾

(١) نهج البلاغة ج٤، ص١٠٢.

[الحديد: ٢٥]، فالغرض من إنزال الكتب وبعث الرسل إقامة العدل في ربوع المجتمعات، ولا يستقيم الاجتماع البشري إلّا وفق القوانين العادلة التي لا تحيف بالإنسان.

ت ـ العدل في الحساب، وإن يوم القيامة في عقيدتنا هو يوم إحقاق الحق، وإقامة العدل، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وإلى هذه الأقسام الثلاثة للعدل أشار الإمام علي عليه السلام: « ..**وارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِه، وقَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِه، وعَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِه..**»(١). فقوله: «ارتفع عن ظلم عباده» ناظر إلى العدل في الجزاء أو شامل له، وقوله: «وقام بالقسط في خلقه»، ناظر إلى العدل في التكوين، وقوله: «وعدل عليهم في حكمه» ناظر إلى العدل التشريعي.

٢ ـ العدل أصل

وقد رأت طائفتان من المسلمين ـ كما أشرنا ـ وهما: الشيعة والمعتزلة (العدلية) أنّ العدل أصل من أصول الاعتقاد، لكن لا بمعنى أنّ منكره كافر، هذا ما عليه رأي الشيعة على الأقل، لأنّ التكفير إنّما يكون في إنكار أصل من أصول الدين، والعدل هو من أصول المذهب، فهو أصل اعتقادي مذهبي(٢).

وأصول الدين هي التوحيد والنبوة (نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم) والمعاد(٣). وأما أصول المذهب فهي الإمامة والعدل. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأصول ليست واردة في نص قرآني أو حديث نبوي شريف، وإنما هي

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص١١٥.

(٢) حول أصول الدين وأصول المذهب، راجع ما ذكرناه في كتاب أصول الاجتهاد الكلامي، ص١١٤.

(٣) على كلام في الأخير، راجع حوله ما ذكرناه في كتاب الفقه الجنائي في الإسلام، وكتاب العقل التكفيري.

مستفادة من الكتاب والسُّنة، فقد لاحظ المسلمون أنّ النبي ﷺ قد أولى أهمية للتوحيد وكذلك للنبوة فلم يقبل إسلام أحد دون الاعتقاد بهما والإقرار بهما. ومن هنا فلا مجال للاجتهاد في الأصول ذاتها، لأنها من أبرز ضروريات الدين وبديهياته، والبديهيات لا مجال للاجتهاد فيها، نعم في تفاصيل التوحيد أو النبوة أو المعاد قد يقع الاجتهاد وتتعدد وجهات النظر، وذلك من قبيل الحديث عن أن صفاته عين ذاته أم لا؟ أو من قبيل الحديث عن عصمة النبي ﷺ قبل البعثة، أو الحديث عن أميّة النبي ﷺ، أو الحديث عن الصراط والميزان وتجسم الأعمال يوم القيامة.

وقد تسأل: لماذا كان العدل أصلًا من الأصول دون سائر صفات الله تعالى، كالقدرة والعلم أو الخالقية والرازقية؟

وفي الجواب: يمكن طرح بعض الأسباب، وعمدتها اثنان:

أ ـ مرجعية العدالة لكثير من الصفات الإلهية والأصول الاعتقادية، فمن جهة يمكن القول إنّ العدالة بمعناها الواسع وهو وضع الشيء في موضعه تلتقي مع سائر الصفات الإلهية، فصفة الحكمة ترجع إلى وضع الشيء في موضعه، وكذلك الرازقيّة لا تنفك عن وضع الرزق في مكانه المناسب، ولذا عده الله تعالى من آياته التي تدعو للتدبر والتعقل، قال سبحانه: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥] والكلام عينه يجري في صفة الخالقيّة، ومن هنا عد الله تعالى خلق السماوات والأرض من جملة الآيات التي تدعو إلى التعقل، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولو تأمل ذووا الألباب في خلق السماوات والأرض لأذعنوا واعترفوا بأن كل شيء قد وضع في محله المناسب، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ

﴿فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وهكذا الحال في سائر الصفات الإلهية، ومن جهة أخرى، فإنّ سائر الأصول الاعتقادية تعتمد على العدل، فالنبوة تهدف إلى تحقيق العدل ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. والمعاد أراده الله سبحانه لتحقيق العدل، قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ب ـ إنّ للعدل دورًا بالغ الأهمية في استقرار الحياة على الأرض، ولا ريب أنّ العدالة في بعدها القضائي والقانوني والتشريعي هي رشحة من رشحات عدل الله تعالى، والإنسان بصفته خليفة الله على الأرض، عليه أن يتخلق بأخلاق الله تعالى، وأن يسير على المنهج الذي أراده الله أن يسير عليه، وقد زوّده بالقوانين والتشريعات التي هدفت إلى تحقيق العدالة في الحياة. أي إنّ عدالة الله سبحانه لها تأثير وارتباط شديد باستقرار المجتمعات البشرية، وهذا ما سوف يأتي توضيحه والاستشهاد عليه في سياق هذه البحوث.

٣ ـ هل هناك من ينكر عدل الله؟

أليس المسلمون جميعًا متفقين على الإيمان بعدله تعالى، فما الموجب لعدّ العدل أصلًا عند طائفة دون أخرى؟

والجواب: إن هذا السؤال هام للغاية، والحقيقة أنه لا يوجد أحد من المسلمين يُنكر عدل الله صراحة، ولكن البعض منهم وهم الأشاعرة قد تبنوا رأيًا لازمه ـ بنظر غيرهم ـ إنكار عدل الله، فهم لا يقولون إنّ الله ظالم، فهذا ما لا يمكن أن يتفوّه به مسلم لمنافاته لصريح القرآن الكريم، لكنهم قالوا إنّ العالم مملكة الله، فمن حقه أن يفعل فيه ما يشاء فيدخل المؤمن النار والكافر الجنة، وهذا ما عده العدليّة من الظلم الذي ينبغي أن يُنزّه الله عنه.. ورأيهم هذا مبنيٌّ على أصل محوري لهم، وهو إنكار الحسن والقبح مما يأتي شرحه. وإليك التوضيح من خلال طرح السؤالين التاليين:

سؤال أول: هل يمكن لله تعالى أن يدخل الأنبياء عليهم السلام والمؤمنين في نار جهنم ويدخل الكفرة والفاسقين والظالمين في الجنة؟ هو لن يفعل ذلك بالتأكيد، ولكن هل يمكن أن يفعل ذلك أم لا؟

سؤال آخر: هل يمكن لله تعالى أن يكلف العبد بما لا يطيق، هو لم يفعل، ولكن هل يمكن ـ نظريًا ـ أن يفعل ذلك ويكلف الإنسان فوق طاقته أم لا؟

هنا انقسم المسلمون في الإجابة عن هذين السؤالين وما كان على شاكلتهما، فمنهم (الأشاعرة، أعني أتباع أبو الحسن الأشعري) من قال: نعم، لله تعالى أن يفعل ذلك ولا يمنعه أحد من ذلك، فهو الخالق والمالك ولا يمكن لأحد أن يحدّ من قدرته، وفي المقابل، هناك من قال (وهم العدلية: الشيعة والمعتزلة): إن ذلك قبيح ولا يمكن لله تعالى أن يفعل القبيح. والحقيقة أنّ الأشاعرة كانوا هنا يدافعون عن التوحيد الأفعالي وعن قدرة الله التي لا يمكن لأحد أن يحدّها أو يضع لها ضوابط، بينما كان العدلية يدافعون عن تنزيه الله تعالى وأنه لا يفعل القبيح.

وهذا البحث ليس مجرد ترف فكري، بل إنّه على صلة وثيقة بإيمان الفرد والجماعة، إذْ فرقٌ بين أن تؤمن بإله يسير وفق قوانين وضوابط وإن كان هو الذي وضعها لنفسه، أو تؤمن بإله لا تعرف إذا ما كانت تحكمه قوانين معينة أم لا؟

كما أنّ لذلك أهميّة خاصة في التعامل مع النصوص المنسوبة إليه، فعندما يكون العدل هو السقف الذي وضعه الله لنفسه ولا يتخطاه، فهذا يمثل معيارًا يمكن في ضوئه محاكمة ما تتضمنه بعض النصوص مما ينافي عدل الله تعالى، فإذا ورد في الخبر أنّ الله يعذب أطفال المشركين، فلا يمكن القبول به، لمنافاته لعدل الله تعالى، كما أوضحنا ذلك في مجال آخر[1].

---

(١) هل الجنة للمسلمين وحدهم؟ ص٢٥٣.

٤ ـ دلائل عدل الله

والسؤال: ما هو الدليل على عدل الله تعالى؟

والجواب: إن الأدلة على عدل الله تبارك وتعالى كثيرة نشير إلى وجهين منها:

أولًا: أنّ العقل يدرك ضرورة أن يكون الله تعالى عادلًا، فكما أنّ العقل يبرهن على وجود الله تعالى ووحدانيته، فإنّه يثبت ويبرهن أنّه إله عادل ولا يمكن أن يظلم خلقه وعباده. وهذا الدليل مبني على أنّ العقل يحكم بحسن الأشياء وقبحها، كما سوف يتضح لاحقًا.

ثانيًا: إنّ لجوء أحدٍ ما إلى الظلم كسلوك قبيح وغير سويٍّ هو أمر يحتاج إلى تفسير أو توجيه، فلمَ قد يلجأ إلى الظلم؟ وما علينا إلاّ أن نستعرض هذه الوجوه المحتملة لنرى إن كانت موجودة في الله سبحانه أم لا؟

وهذه الوجوه أو الأسباب أو دوافع الظلم هي:

الجهل: فالبعض ـ كما هو حال كثيرٍ من الناس ـ إنما يظلم الآخرين ويعتدي على حقوقهم، لأنّه جاهل بما يفعل، ويظن أنّ هؤلاء يشكلون خطرًا عليه. أو أن ما سلبه ليس حقًّا للغير، أو لغير ذلك من الأسباب.

الحاجة: إن الحاجة والعوز والفقر أحد دوافع الظلم والتعدي على الغير وسلبه حقه، مالًا كان أو غيره، وهذا ما يشهد به الواقع المعاش.

الحقد والانتقام: (مرض نفسي) إنّ البعض إنما يندفع إلى ظلم الغير والاعتداء عليه، من موقع الحسد والغيرة التي تعتمل في قلبه فيحقد على الآخر وربما قتله، والجريمة الأولى التي حصلت على وجه الأرض انطلقت ـ كما يصف لنا القرآن الكريم ـ من منطلق الحسد.

العجز: إنّ العاجز عن سلوك طريق المعالي أو بلوغ منزلة خاصة أو مكانة معينة قد يتوسل بهدف الوصول إلى تلك المكانة أساليب الظلم والقهر واستغلال الآخرين وتجاوز حقوقهم، فيكون ظلمه لغيره بسبب عجزه وضعفه.

العبث: وربما اندفع البعض إلى ظلم الغير وسَلْبِ حقّه لا من موقع الجهل ولا الحاجة ولا العجز ولا الحقد وإنما من موقع العبثية التي يعيشها التي تجعله لا يعرف معنى المسؤولية.

وبعد التعرّف على أسباب الظلم ودوافعه والتي يمكن إرجاع بعضها إلى البعض الآخر، فإننا نتساءل: هل يوجد أيّ من هذه الأسباب والدوافع في الله تعالى حتى يصدر منه الظلم؟

لا يخفى أنّ مناشئ الظلم هذه برمتها غير موجودة في الله سبحانه وتعالى، لذا من الطبيعي أن يكون عادلًا، وبيان ذلك: أنّ الجهل لا وجود له في ساحة القدس الإلهي، لأنّ الله هو العليم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة. والحاجة أيضًا منتفية عنه سبحانه، لأنّه الغني المطلق، ونحن الفقراء إليه، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٧]، وكذلك الحقد والأنانية والعجز والعبثية كلها صفات يجلّ عنها الحق سبحانه، لأنه الخير والمحبة والقدرة والحكمة والغنى. هذا هو إلهنا عزّ وجل الذي نؤمن به.

وإلى ذلك يشير الإمام زين العابدين عليه السلام: في بعض أدعية الصحيفة السجادية: «**وقد علمت يا إلهي أن ليس في حكمك ظلم ولا في نقمتك عجلة، إنما يعجل من يخاف الفوت وإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف وقد تعاليت ـ يا إلهي ـ عن ذلك علوًا كبيرًا**»(١).

٥ ـ القرآن الكريم وبداهة عدل الله

ولو جئنا إلى القرآن الكريم لوجدنا أنه قد أولى قضيّة العدل الإلهي أهميّة خاصة، وهذا ما سوف يتضح من خلال البحوث الآتية، وما يعنينا في هذه النقطة، هو التأكيد على أنّ القرآن وإن لم يستدل على عدله تبارك وتعالى بشكل مباشر، لكنه قارب المسألة بطريقة أو بأخرى توحي ببداهة الأمر، فهو:

---

(١) الصحيفة السجادية من دعائه عليه السلام في دفع كيد الأعداء.

يتعامل مع قضية عدل الله تعالى **تارة**، بصفتها أمرًا بديهيًا مفروغًا عنه، وكأنها لا تخضع للتشكيك والنقاش، ولا تحتاج إلى الاستدلال، فهو يرسلها إرسال المسلمات، وذلك لأنه لا معنى لإلهٍ لا يكون العدل أحد أهم صفاته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، مما دل على أن الظلم قبيح ولا ينبغي له فعله، محيلًا بذلك على ارتكاز هذا القبح في نفوس العقلاء، فإن تعبير ﴿وَمَا كُنَّا﴾ [الأعراف: ٧] يشير إلى أنّ ذلك لا يليق بساحته جلّ وعلا. والآية المذكورة تشير إلى العدل في مقام الجزاء والحساب، والعدل في هذا المقام تناولته عشرات الآيات القرآنية، منها: قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمرن: ١٨٢]. إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكد على أنّ يوم القيامة هو يوم خالٍ من الظلم، بل هو يوم حساب الظلمة، حيث يُعطى كل ذي حقّ حقّه.

وتارة أخرى، يتناول القضية من خلال ربط العدل بالتوحيد وقرنه به بطريقة توحي ليس بأهمية هذه الصفة وعظمتها فحسب بل وببداهتها، كما في إشهاده لنفسه وللملائكة والرسل وأولي العلم بأنه قائم بالعدل، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، والقسط في هذه الآية يشمل «العدل في الدين والشريعة، وفي سُنن الطبيعة ونظامها»(١).

وثالثة نجده يسلط الضوء على العدل من خلال ربط قضية العدل بالنبوة، وأنّ الهدف الأسمى من إرسال الأنبياء عليهم السلام هو إقامة القسط، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. وهذه الآية ناظرة إلى العدل التشريعي.

(١) التفسير الكاشف، ج٢، ص٢٦.

ثانيًا: العدل وحريّة الإرادة

ومن المواضيع المهمة والحساسة المرتبطة بقضية العدل الإلهي، ومسألة الشرور، هي مسألة اختيار الإنسان، فهل إن الإنسان مختار فيما يفعل وفيما يفكر؟ أما أنه منقاد للقدر لا يملك أن يفعل أو يختار شيئًا، فهو كالريشة في مهب الريح؟

وعلاقة مبحث الجبر والاختيار بمبحث العدل وإشكالية الشرور علاقة وطيدة للغاية، لأنّه لا معنى للعدل بناءً على نظرية الجبر، كما أن إشكالية الشر سوف يكون من الصعب إيجاد جواب مقنع عليها في العديد من الجوانب بناء على القول بالجبر وأنّ كل ما يجري في العالم وتحديدًا ما يتصل بحياة الإنسان وما يعانيه من اضطهاد وفقر هو مسار مفروض عليه، ولا يملك له تغييرًا ولا ردًا، ناهيك عن أنّ المكره أو المجبر على فعل شيء أو تركه يكون من الظلم أن يعاقب أو يحاسب عليه.

والسؤال: ماذا يستفاد من القرآن الكريم في هذا المجال: هل إنّ الإنسان مختار في أفعاله، أم أنه مجبر؟ وماذا عن الآيات التي يُدّعى دلالتها على الجبر، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، فالآية صريحة بأنّ الله تعالى خلقنا، وخلق أفعالنا، وهذا يعني أنّنا لم نكن مختارين عندما فعلنا المعاصي أو العبادات؟!

والجواب: غير خاف أن هناك ثلاث نظريات في المسألة: نظرية الجبر، ونظرية الاختيار المطلق، أو التفويض، ونظرية الأمر بين الأمرين. وهذا استعراض موجز لهذه النظريات وبيان لحجج القائلين بها، وما هو الصحيح منها؟

١ ـ نظرية الجبر: دراسة ونقد

ونبدأ بدرس نظريّة الجبر، فهل صحيح أنّ الإنسان مجبر على سلوك طريق الشر والكفر، كما هو مجبر على سلوك طريق الخير والإيمان؟

أ ـ تاريخ المسألة

إنّ مسألة الجبر والاختيار هي من أقدم القضايا التي شغلت عقل الإنسان وذهنه، فتساءل الناس من قديم الزمان هل نحن مسيرون أم مخيرون؟

وانقسمت الآراء إزاء ذلك، فمنهم من قال:

نحن مجبورون وليس لنا من الأمر شيء، فنحن أشبه بالريشة التي تحركها الرياح كيفما اتّجهت وأنّى سارت، وكما قال الشاعر:

خطى مشيناها كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

وفي الأدبيات الشعبية ثمة أمثلة، تعكس شيوع الاعتقاد بالجبر، وأنّ الحياة محكومة ضمن مسار لا يمكن تغييره. من قبيل المثل القائل: «المكتوب ما منو [ليس منه] مهروب»، أو المثل الآخر القائل: «كل شيء مكتوب على الجبين تراه العين».

والاعتقاد بالجبر منتشر لدى الكثير من الجماعات والمذاهب، فهو مذهب لبعض الجماعات الدينية، وهو أيضًا مذهب فلسفي، وقد اعتقد به بعض الملاحدة، وثمة أبعاد مختلفة للجبر، فهناك جبري اجتماعي، وآخر ثقافي، وثالث ديني، ورابع تاريخي.. وأخطر ما في الأمر أنّ فكرة الجبر قد تمّ إلباسها لباسًا دينيًّا، وربما كانت المذاهب الدينية التي تؤمن بعقيدة الجبر هي الأكثر مساهمة في ترويج هذه العقيدة.

وفي المقابل، هناك من قال: إنّ الإنسان كائن حر ومختار، وبذلك يتمايز عن سائر الكائنات والمخلوقات، فالطبيعة بعناصرها كلها من الحيوان إلى الأشجار والأنهار مسيرة ومنقادة لقوانين لا يمكنها التمرد عليها، فأمام سطوة الخريف لا بد أن تنحني الأشجار فتذبل وتذوي وتذهب نضارتها وتتساقط أوراقها شاءت أم أبت، وأمام نضرة الربيع التي تسري في الأوراق فتكسبها الخضرة لا تستطيع هذه الأشجار أن ترفض وتقول لا، وهكذا كل الظواهر الطبيعية، في حركتها وتفاعلاتها تخضع لقوانين قاهرة ولا تعرف حرية التمرد أو الرفض، وهذا بخلاف الإنسان فهو يملك في كثير من

القضايا أن يقول: لا، وأن يتمرد، وأن يفعل أو يترك، فهو يخلق أفعاله بنفسه، وهو المسؤول عنها ولا يستطيع كائن آخر أن يملي عليه ما لا يريده.

ونحن بطبيعة الحال نؤمن باختيار الإنسان ونرفض الجبر بكل أشكاله وأبعاده، على شرحٍ أو تفصيل آتٍ في بيان النظرية الثالثة.

ب ـ القائلون بالجبر من المسلمين

وقد تسأل: أمام وضوح دلالة النصوص القرآنية على حرية الإنسان، فهل يعقل أن يعتقد بالجبر أحد من المسلمين؟ ومن هم الذين تبنوا هذه النظرية؟ وهل لا زال لهم حضور في زماننا هذا؟

الجواب: اشتُهر أنّ الأشاعرة قالوا بنحوٍ من الجبر، يقول أحد أئمة الأشاعرة عبد الرحمن الإيجي (٧٥٦هـ): «إن العبد مجبور في أفعاله وإذا كان كذلك لم يحكم العقل فيها بحسن ولا قبح اتفاقًا»[١]. وقد بنوا ذلك على رأيهم في إنكار الحسن والقبح العقليين مما سيأتي الحديث عنه، كما أنّ لهم شبهة في تفسير التوحيد الأفعالي دفعتهم للاعتقاد بالجبر.

ولكنّ هذا الرأي لا يمكن تحميله لكافة المسلمين من أهل السنة، فإنّ المراجع لكتب علمائهم ولا سيما المتأخرين[٢] يجدهم يؤكدون وينصون على حرية الإنسان واختياره، وهذا أمر جيدًا ويُبنى عليه في توحيد التصورات العقدية، بعيدًا عن المخاصمات المذهبية الكلامية التي كثيرًا ما تستحضر الشاذ عند الطرف وتنبش الدفاتر القديمة وتتبع الشواذ لإلزام الآخر بها مع أن الآخر يكون قد تجاوز هذه القضية، نعم قد لا يستطيع البعض تقديم تصوّر متماسك يجمع فيه بين حرية الإنسان والتوحيد الأفعالي، فيقع في التخبط وتكون عقيدته نظريًّا أقرب إلى القول بالجبر وإن ادّعى القول بالاختيار.

---

(١) المواقف، ج٣، ص٢٦٣.

(٢) راجع على سبيل المثال: كتاب العقائد الإسلامية للسيد سابق، وكتب الشيخ محمد عبده وغيرهما.

ت ـ تفنيد عقيدة الجبر

وإنّ بطلان عقيدة الجبر هو مما قام عليه الدليل القاطع والواضح، وتفنيدنا لهذه العقيدة يكون بأحد طريقين:

الطريق الأول: إثبات حرية الإنسان واختياره، وقدرته على الفعل والترك، على الإيمان والكفر، على الطاعة والعصيان، فإذا ثبُت اختياره بطل القول بكونه مجبرًا.

ويمكن القول: إن حرية الإنسان واختياره هو مما قام عليه الوجدان والبرهان والقرآن، وإليك التوضيح:

أولًا: الوجدان: فلو أننا استفتينا وجداننا لوجدنا أنفسنا عند مواجهة أي عمل أو أمر أننا نستطيع فعله أو تركه، نستطيع أن نتكلّم أو نصمت، نستطيع أن نطيع القانون أو نتمرد عليه، نستطيع أن نؤمن بالله ونطيعه أو نكفر به ونعصيه، نستطيع أن نتزوج أو نرفض الزواج... وإذا كان أمامك يتيم فتجد من نفسك أنك قادر على ضربه كما أنت قادر على الإحسان إليه، وإذا ضربته ربما عاتبتك نفسك اللوامة وأنّبك ضميرك الداخلي.

ثانيًا: البرهان: والعقل هو دليل آخر على حرية الإنسان، وهذا أمر من البداهة بمكان بحيث إنّ كل إنسان يدرك بعقله السويّ الفارق الكبير بيننا نحن بني الإنسان وبين الحيوانات مثلًا، ولهذا ترانا نحاسب الواحد منا على فعل المنكرات ولا نحاسب الحيوانات على الفعل عينه، فلو قتل الإنسانُ العاقلُ شخصًا ظلمًا ودون ذنب، فهل ننظر إلى المسألة كما لو افترسه حيوان؟ بالطبع لا، والسر في ذلك، هو وعينا التام بأنّ الحيوان يملك غريزة بحتة تقوده إلى ما يشتهي دون اختيار أو عقل رادع، بينما الإنسان يملك أن لا يقتل وأن لا يعتدي ولا يظلم، ولهذا ترى أنّ العقلاء يعاقبون الإنسان ولا يعاقبون الحيوان، إلّا إذا أرادوا التخلص منه حتى لا يقدم على الافتراس مرّة أخرى، فلا معنى لأن يضع العقلاء القوانين الرادعة والمنظمة

لحياة لإنسان لو لم يكن راسخًا في وعيهم أن الإنسان حر ومختار ويستطيع أن يتغير وأن يرتدع باختياره.

ثالثًا: القرآن: فإنّ آيات القرآن الكريم تؤكد على مبدأ حرية الإنسان، وهذا في الحقيقة سر اختياره ليكون خليفة الله على الأرض، وهو الأمر الذي لم تعه الملائكة حيث تساءلت بأسلوب المعترض ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: ٣٠]، فهم عرفوا أن هذا الإنسان بما أنه يملك القدرة على الاختيار فهو يستطيع التمرد على الله وعصيانه، وأجابهم الله تعالى بما فحواه بأن هذا هو سر اختياري له لموقع الخلافة ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الطريق الثاني: بطلان الجبر، فإنّ في القول بالجبر إبطالَ الشرائع والتكاليف والحساب والعقاب، والله تعالى وهو العدل لا يمكن أن يكلف الإنسان ويرسل إليه الرسل ويسنّ له الشرائع إذا كان مجبرًا ومسيرًا، ولا يعقل في عدله تعالى أن يعاقب الإنسان على أمر أجبره على فعله أو يؤاخذه على ترك شيء أجبره على تركه!! فهذا هو الظلم بعينه، وقد تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا. فمن يؤمن بعدل الله تعالى لا بدّ أن يؤمن باختيار الإنسان.

وعلى ضوء هذا استقرت سيرة العقلاء من بني الإنسان، وأعتقد أنّ من ينكر ذلك فإنّما ينكره بلسانه وهو مُقِرٌّ بجنانه، والشاهد على ما نقول هو أنّه لو رأى إنسان جبري شخصًا يقتل آخر أو يرتكب عملًا خاطئًا لرأيته يهمّ بردعه والاعتراض عليه، فكيف يعترض على إنسان لا يملك ـ بنظره ـ من أمره شيئًا بل هو كالريشة في مهب الريح، ولو أنّ هذا الجبري تصرّف تصرفًا خاطئًا فاعترض أحدهم عليه، فإنا نراه يجيبه: وما دخلك أنت! فأنا حر فيما أفعل وفيما أفكر وفيما أؤمن! وجوابه هذا يعني أن المركوز في قرارة نفسه هو أنه مختار.

وفي الرواية: «كان أمير المؤمنين عليه السلام جالسا بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخ فجثا بين يديه، ثم **قال له**: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أجل يا شيخ ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن واد إلّا بقضاء من الله وقدر.

فقال له الشيخ: عند الله أحتسب عنائي يا أمير المؤمنين؟

فقال له: مه يا شيخ، فوالله لقد عظم الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا إليه مضطرين.

فقال له الشيخ: وكيف لم نكن في شيء من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟

فقال له: وتظنّ أنه كان قضاءً حتمًا وقدرًا لازمًا؟ إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والزجر من الله وسقط معنى الوعد والوعيد فلم تكن لائمة للمذنب ولا محمدة للمحسن ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب، تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الأمة ومجوسها. إنّ الله تبارك وتعالى كلّف تخييرًا ونهى تحذيرًا وأعطى على القليل كثيرًا ولم يعص مغلوبًا ولم يطع مكرها ولم يملِّك مفوضًا ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلًا، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فأنشأ الشيخ يقول:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النجاة من الرحمن غفرانا

أوضحت من أمرنا ما كان ملتبسا ... جزاك ربك بالإحسان إحسانا»[١]

---

(١) الكافي، ج١ ص١٥٦، ونظيره في علل الشرائع للصدوق، ج١، ص١٢٨.

ث ـ دوافع القول بالجبر

وقد تسأل: لماذا قد يلجأ الناس إلى تبني عقيدة الجبر؟ هل هي محاولة للهروب من المسؤولية، أم ماذا؟ أم أن الأمر ينطلق من التباس في فهم النص الديني؟

الجواب: أعتقد أنه من الضروري لدى دراسة العقائد الباطلة أو الملتبسة أن نبحث عن أسباب انتشارها، وعن الخلفية التاريخية وراء انبثاقها، فهذا يضيء على كيفية تشكل العقائد وما حصل من تطور فيها. وما يمكن أن يذكر في مقامنا عن الأسباب التي وقفت وراء عقيدة الجبر وساعدت على انتشارها هو:

أولًا: الأهواء والدوافع النفسية: إنّ تهرّب الإنسان من المسؤولية ومحاولته إيجاد عذر لتقاعسه وتخاذله وتكاسله هو أحد الأسباب التي دفعته للترويج لعقيدة الجبر، فالمسؤولية والجدية والعمل بالتكاليف الشرعية ليست أمرًا هينًا، وإنما هي التزام وتحتاج إلى إرادة وصبر ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء، ولهذا يطيب للإنسان المتقاعس أن يتخفف من المسؤولية ويرمي بفشله على غيره، فيريحه القول: إنّ الأمر ليس باختياري، وأنّ الله شاء لي هذا المصير وقدره كذلك، على طريقة المثل الشعبي: «المكتوب ما منو مهروب». وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

ثانيًا: الدوافع الفكرية: وربما وقع البعض أسير بعض الشبهات الفكرية، فخيلت له نفسه أنه مسيّر وليس مخيرًا. ومن أبرز هذه الشبهات التي أوقعت البعض بشبهة الجبر:

أ ـ عدم التمييز بين عقيدة القضاء والقدر وبين فكرة الجبر. فالقضاء والقدر هو عقيدة صحيحة، ولكنه قُدِّم وفُسِّر بطريقة خاطئة، ليصبح

مرادفًا لفكرة الجبر وسلب إرادة الإنسان وقد روي أنّه لمّا عيّن معاوية ابنه يزيد خليفة للمسلمين واعترض عليه عبد الله بن عمر، أجابه معاوية: «إنَّ أمْرَ يزيد قد كان قضاءً من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم»[١]، وهي محاولة للخلط بين المفهومَين المذكورَين، مع أن القضاء والقدر معناه أن الله تعالى قد قضى وقدر أفعالنا التي يعلم أننا سنقدم عليها باختيارنا، وأين هذا من عقيدة الجبر؟!

ب ـ توهم أنّ الإنسان ولو كان له قابلية الاختيار بَيْدَ أن البيئة التي ينشأ فيها وعوامل الثقافة والتربية والوراثة والرفقة هي التي تحدد له مساره، فمن يعش في بيئة اجتماعية ملحدة سوف يكون ملحدًا ومن يعش في بيئة مؤمنة سينشأ مؤمنًا ومن يعش في أسرة تشرب المخدرات وتمارس الانحراف سيكون منحرفًا فأين إرادة الإنسان واختياره؟! ولكنّ هذه الشبهة لا تستطيع إقناعنا بالجبر، فدور البيئة والتربية والصحبة في التأثير على قناعات الإنسان وسلوكه هو أمر لا ينكر، بيد أنّ الأمر لا يصل إلى حدّ أن تكون هذه العوامل علة تامة ينتج عنها فَقْدُ الإنسان لإرادته. والدليل على ذلك هو ما نجده من نجاح الكثيرين من التمرد على البيئة ومخالفة سيرة الأسرة، ولا سيما في أيامنا هذه حيث الحرية الإعلامية التي تهيئ للإنسان الاطلاع على أفكار الآخرين ومعرفة الخطأ من الصواب، نعم قد يصعب على الكثيرين تغيير عاداتهم أو معتقداتهم التي ألفوها لأنّ ذلك قد يكلّفهم خسارة بعض الامتيازات والصداقات أو لأنّ التحوّل من حال إلى حال صعب على النفس التي اعتادت سلوكًا معينًا، كما قال المتنبي:

خُلِقْت ألوفًا لو رجعتُ إلى الصبا لفارقتُ شيبي موجَعَ القلبِ باكيًا.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج١، ص١٦١.

ت ـ توهم دلالة بعض الآيات المباركة على أنّ الإنسان مجبر ولا إرادة له مع مشيئة الله تعالى وإرادته، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وهذه الشُّبهة غير صحيحة وسنعود إليها لاحقًا.

ثالثًا: الدوافع السياسية: وربما كان العامل السياسي من العوامل المؤثرة والمساعدة على الترويج لعقيدة الجبر، لأنها تمكّن الحاكم من بلوغ ما يتمناه من خلال العقائد المزيفة، وقد أسهبنا في بيان هذا العامل في كتاب «عاشوراء ـ قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء» فراجع.

ج ـ الجبر ومساهمته في تخلف الأمة

أشرنا إلى أن عقيدة الجبر ساهمت في تخلّف الأمة، وقد تسأل: كيف لعقيدة أن تساهم في تخلف الأمة؟!

الجواب: إنّ للعقائد تأثيرًا على حياة الإنسان في تقدّمه الحضاري أو تقهقره، ولذا فإنّ عملية الإصلاح يجب أن تبدأ من العقائد والأفكار، ولهذا أولى الإسلام مسألة العقيدة أهمية خاصة، حتى أنّ الرسول ﷺ في المرحلة المكية كلها كان يركّز فيها على البناء العقائدي، والمتدبر في القرآن الكريم يرى نفسه أمام عقيدة لا تعرف الجمود، عقيدة فاعلة حيّة، ليست عقيدة تجريدية تحلّق في آفاق السماء بعيدًا عن هموم الخليفة الذي يعيش على الأرض، إنها عقيدة تنبض بالحياة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، عقيدة هي المنشأ لكل خير وهي التي تصنع الشخصية الخيّرة المهذبة، فلا قيمة لدين لا أخلاق فيه. لاحظ الربط الجميل بين الإيمان وبين السلوك في قوله ﷺ: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**»(١). عقيدة تنبض بالحس الإنساني والعطف على كل الكائنات «**ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع**»(٢). عقيدة تجمع ولا تفرق، تجمع بين أبنائها

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٧٧.
(٢) الكافي، ج٢، ص٦٦٨.

﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩] ولسان حال كل واحد منهم ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨] عقيدة تبعث في أبنائها روح التحرر والثورة على الظلم وتأبى للمسلم أن يعيش خائفًا ذليلًا. وأعتقد أنّ تقدم المسلمين في تاريخهم وكل الإنجازات التي قدموها للبشرية وكل تلك النهضة التي عرفها تاريخنا بحيث أصبح الإسلام قوة حضارية قادرة على الفعل والتحدي.. إنّ ذلك كله ناشئ عن اعتقادهم وانطلاقهم من وحي حرية الاختيار والإرادة وأنّ الإنسان قادرٌ على التغيير على الصعيد الاجتماعي والعلمي والسياسي.

وفي المقابل، عندما سادت بين المسلمين عقائد تخديرية من قبيل عقيدة الجبر، فإنّ ذلك ساهم في تأخر المسلمين، حيث إنّ المسلم أحال كل شيء على القدر والمكتوب الذي لا مفر منه. كما أنّ عقيدة الجبر فُهمت بطريقة تعني إبطال العلل الطبيعية وإرجاع كل الأمور إلى الله تعالى، فالنار ـ وفقًا لهذا الفهم ـ ليست هي التي تسبب الإحراق، وإنما الله هو الذي يوجد الإحراق عند إشعال النار، وارتفاع حرارة المريض لا علاقة سببية له بمرضه، وإنما هو محض تقارن واتفاق. وهكذا الحال في كل الظواهر الطبيعية فهي لا تنتسب إلى علل طبيعية، فلا ملزم ولا موجب للبحث والتحري عن عللها وأسبابها. وهذا يعني عبثية الدراسة العلمية، والأخطر من ذلك أنّ عقيدة الجبر ألغت إرادة الإنسان واعتبرته مجرد آلة تتحرك دون وعي أو اختيار(١).

وهكذا فقد انبثق عن عقيدة الجبر أو إلى جانبها مفاهيم مشوهة، من قبيل: مفهوم الحظ، وهو مفهوم لا يخلو من شائبة الجبر، مع أنه ليس عندنا شيء اسمه الحظ خارج السنن والمقادير الإلهية، ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩]. وكذلك مفهوم

(١) للتوسع حول هذا الأمر راجع كتاب «ظواهر ليست من الدين»، ص١٧.

الزهد بمعناه السلبي الذي يعطل الطاقات ويضعف همة المسلم اتجاه العمل، ويفتعل نوعًا من الخصومة غير المبررة بين الدنيا والآخرة، ويخلط بين التوكل والتواكل.

ح ـ الوعد والوعيد لا ينافي الاختيار

وقد تسأل: هل ينسجم مفهوم اختيار الإنسان وحريته مع الوعيد بالنار والوعد بالجنة؟ ألا يفقد الوعدُ والوعيدُ الإنسانَ حريته ويجعله مكرهًا على الاستقامة؟

والجواب: إنّ الوعد والوعيد لا يُنافيان اختيار الإنسان، وهذا أمرٌ وجداني، وتوضيح ذلك: أن حقيقة الاختيار تعني أن الإنسان قادر على الفعل كما هو قادر على الترك، أكان ثمة وعدٌ ووعيدٌ أم لا؟ فوجود الوعد والوعيد لا يغير من حقيقة الاختيار شيئًا، وأن هذا الإنسان لا يزال قادرًا على الفعل وقادرًا على الترك. وبعبارة أخرى: إن وظيفة الوعد والوعيد هي توجيه الإنسان وإرشاده إلى الاختيار الصحيح، وإلى ما فيه مصلحته، لكنها لا تجبره ولا تفقده اختياره، فهو بالوجدان والعيان لا زال قادرًا على التمرد وعلى اتخاذ الخيار الآخر.

وقد أوضح هذا المعنى الحديث المروي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّ المسلمين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو أكرهت يا رسول الله من قدرت عليه من الناس على الإسلام لكثر عددنا وقوينا على عدونا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما كنت لألقى الله عز وجل ببدعة لم يحدث إليّ فيها شيئًا، وما أنا من المتكلفين، فأنزل الله تعالى عليه يا محمد: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، على سبيل الإلجاء والاضطرار في الدنيا كما يؤمنون عند المعاينة ورؤية البأس في الآخرة، ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقوا مني ثوابًا ولا مدحًا، لكني أريد منهم أن يؤمنوا مختارين غير مضطرين ليستحقوا مني الزلفى والكرامة

ودوام الخلود في جنة الخلد ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]»(١).

٢ ـ نظرية التفويض/ الاختيار المطلق

والنظرية الثانية حول أفعال الإنسان ومدى انتسابها إليه ومسؤوليته عنها هي نظرية التفويض، أو الاختيار التام، في مقابل الجبر التام. والسؤال: ما المراد من التفويض المقابل للجبر؟ وعلام استند القائلون به؟ ومن الذي قال بها؟ وما هي العوامل التي تقف وراء هذه النظرية؟ هل يوجد الآن من يعتقد بنظرية التفويض؟ هل لهذه النظرية آثار سلبية كتلك التي للجبر؟

أ ـ معنى التفويض

التفويض معناه: أنّ الله تعالى فوض إلى الإنسان اختيار ما يعمل، والإنسان مستقل استقلالًا كاملًا فيما يفعله أو يتركه وفيما يؤمن به أو لا يؤمن به، ولا دخل لله تعالى في ذلك، وهذه العقيدة تقع على النقيض من عقيدة الجبر، فالقائل بالجبر يرى أن الفاعل لكل ما في هذا الكون ـ بما في ذلك ما يصدر عن العباد من إيمان أو كفر، من طاعة أو عصيان، من خير أو شر ـ هو الله تعالى، بينما القائل بالتفويض يرى أن الفاعل لذلك هو الإنسان ولا دخل لله في فعله.

والقول بالتفويض تبناه المعتزلة، واستدلوا عليه «بوجوه كثيرة مرجعها (وكما يقول الإيجي) إلى أمر واحد، وهو أنّه لولا استقلال العبد بالفعل على سبيل الاختيار لبطل التكليف وبطل التأديب الذي ورد به الشرع وارتفع المدح والذم»(٢). وهذا النص يوضح السبب الذي حدا بالمعتزلة إلى تبني نظرية التفويض، فهم يدافعون عن عدل الله تعالى. وكل من لا يعي معنى

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٢٤، والتوحيد، ص٣٤٢.

(٢) المواقف للإيجي، ج٣، ص٢٢٢.

التوحيد الأفعالي هو في العمق قائل بنظرية التفويض وإن لم يتبن ذلك بشكل صريح.

ب ـ سلبيات هذه العقيدة

وأما عن آثارها السلبية، فهي تتمثل باديء ذي بدء في أن القول بالتفويض يمثل خطأ اعتقاديًا فظيعًا، يعبِّر عن قصور في تصورنا عن الخالق عز وجل، فالتفويض هو تصغير لله تعالى وعزل له عن ملكه، كما عبّرت بعض الروايات، وهذا سيكون له ـ كما كان لنظرية الجبر ـ تأثير سلبي على شخصية المؤمن حيث لن يعيش عمق التوحيد الحقيقي ولن يتمثل الحضور الفاعل لله في نفسه وفي كل حركاته وسكناته، وربما يخلق ذلك فيه نوعًا من الغرور ويخيل إليه أنّه هو الخالق والفاعل بعيدًا عن إرادة الله تعالى.

والحقيقة أنّ المعتزلة في تبنيهم لعقيدة التفويض قد انتصروا لمبدأ حرية الإنسان واختياره من جهة، وانتصروا من جهة أخرى لعدالة الله تعالى، وتنزيه ساحته من الظلم المتجسد في أن يكلّف الإنسان بما لا قدرة له عليه، وكذلك تنزيه ساحته سبحانه من أن يكون خالقًا للذنوب التي تصدر من عباده أو خالقًا للمعتقدات الفاسدة كالشرك والكفر في أذهان وعقول العباد، ومن ثم يحاسبهم على ذلك. وفي المقابل فقد انتصر الأشاعرة ـ في تأكيدهم على عقيدة الجبر ـ لتوحيد الله تعالى في الأفعال، وأن كل شيء في هذا الكون ـ بما في ذلك أعمال العباد ـ هو من صنعه تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

ومن هنا علينا أن نأخذ من كل عقيدة من هاتين العقيدتين (الجبر والتفويض) ما هو صواب فيها وندع ما هو خطأ، فهل يمكن ذلك؟ أي هل يمكننا أن نتبنى عقيدة تحافظ على توحيد الله ولا تقلل من سلطانه، وفي الوقت عينه تحافظ على عدله تعالى وتنزيهه عن الظلم؟ هذا ما سيتضح بعد قليل.

٣ ـ نظرية الأمر بين أمرين

بعد أن أصبح واضحًا ما هو المراد من نظريتي الجبر والتفويض، وما لهما وما عليهما، وصل بنا الكلام إلى بيان النظرية الثالثة، وهي نظرية «الأمر بين الأمرين»، فما المراد بها؟

أ ـ عقيدة أهل البيت عليهم السلام

إنّ نظرية الأمر بين الأمرين، عقيدة وسطى بين نظريتي الجبر والتفويض، وهي تأخذ محاسنهما وتذر سيئاتهما، وهي العقيدة التي عرفت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، كما جاء في الأخبار المستفيضة عنهم، ففي رواية معتبرة عن الامامين الباقر والصادق عليهما السلام، قَالا: «إِنَّ الله أَرْحَمُ بِخَلْقِهِ مِنْ أَنْ يُجْبِرَ خَلْقَه عَلَى الذُّنُوبِ ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهَا، والله أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُرِيدَ أَمْرًا فَلَا يَكُونَ، قَالَ: فَسُئِلَا هَلْ بَيْنَ الْجَبْرِ والْقَدَرِ مَنْزِلَةٌ ثَالِثَةٌ؟ قالا: نَعَمْ، أَوْسَعُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ»[١].

وعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام أنه سأله رَجُلٌ، فقال: «جُعِلْتُ فِدَاكَ أَجْبَرَ الله الْعِبَادَ عَلَى الْمَعَاصِي؟ فَقَالَ: الله أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُجْبِرَهُمْ عَلَى الْمَعَاصِي ثُمَّ يُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَه: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَفَوَّضَ الله إِلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: فَقَالَ: لَوْ فَوَّضَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَحْصُرْهُمْ بِالأَمْرِ والنَّهْيِ، فَقَالَ لَه: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَبَيْنَهُمَا مَنْزِلَةٌ؟ قَالَ: فَقَالَ: نَعَمْ أَوْسَعُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ»[٢].

وفي رواية أخرى عن الامام الصادق عليه السلام، قَالَ: «لَا جَبْرَ ولَا تَفْوِيضَ ولَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ. قَالَ: قُلْتُ: ومَا أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ؟ قَالَ: مَثَلُ ذَلِكَ رَجُلٌ رَأَيْتَه عَلَى مَعْصِيَةٍ فَنَهَيْتَه فَلَمْ يَنْتَه فَتَرَكْتَه فَفَعَلَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةَ ـ فَلَيْسَ حَيْثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ فَتَرَكْتَه كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي أَمَرْتَه بِالْمَعْصِيَةِ»[٣].

---

(١) الكافي، ج١، ص١٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٠.

إلى غيرها من الأخبار[١] التي يستفاد منها بوضوح أنّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام قد أرست نظرية ثالثة ووسطى في قضية أفعال العباد، وهي نظرية «الأمر بين الأمرين»، والتي تعني أنّ الإنسان ليس مجبورًا في أعماله، وفي الوقت عينه ليس مفوّضًا إليه تفويضًا يجعله مستقلًا عن الله تعالى. وتوضيح ذلك في الفقرة التالية.

ب ـ ميزة هذه العقيدة

أولًا: أنها تجمع بين الحفاظ على وحدانية الله تعالى في الخلق ولا تعزله عن مملكته، وبين عدله تعالى وتنزيهه عن الظلم، أو قل: إنها تجمع بين حرية الإنسان، ووحدانية الله تعالى.

ثانيًا: أنها تجمع بين الآيات القرآنية التي قد تبدو متباينة لأول وهلة، لأنّ في القرآن مجموعتين من الآيات:

المجموعة الأولى: ما دلّ على أن أعمال العباد هي من صنع الله تعالى، كما في آية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، أو آية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، فإنّ المستفاد من هذه الآيات المباركة أنّ كمال الإيمان يعتمد على أن تعتقد أنّ الأفعال كلها هي من الله تعالى. إلى غيرها من الآيات القرآنية المباركة الدالة على هذا المضمون.

المجموعة الثانية: الآيات التي تؤكد على حرية الإنسان وأنه الفاعل لما يصدر عنه، من قبيل قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۞ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾ [النازعات ٣٥ ـ ٣٦] أو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ

---

(١) الكافي، ج١، ص١٥٩، الحديث ٨.

﴿أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

والتدبر في هاتين المجموعتين من الآيات مع غيرهما من الآيات الواردة في هذا المضمون، يقودنا إلى التأكيد على نفي التنافي بين الآيات وأنّ ما يريد أن يبيّنه لنا القرآن الكريم في هذا المجال هو أنّ فعل العبد كما ينتسب إليه فهو ينتسب إلى الله تعالى في الوقت عينه. نعم، إنّ الفعل ينتسب إلى كل منهما، لكن بشكل طولي لا عرضي، فالفاعل المباشر للأعمال الصادرة عن العباد هو الإنسان نفسه، وفي طوله يصح نسبتها إلى الله. أما نسبتها إلى العبد فواضحة لأنه أقدم على الإتيان بها بإرادته ولو أراد ما فعلها، وأما نسبتها إلى الله تعالى فلأنه هو الذي سمح بصدورها من العبد وأذن بوقوعها ومكّنه من فعلها، ولا يمكن أن يقع في ملكه شيء بغير قدرته وإذنه، وأقصد إذنه التكويني لا التشريعي، فقد يكون العمل مبغوضًا لله تعالى، ولكنه وطبقًا للقوانين التي تحكم عالم الدنيا لا يمنع من وقوعه إذا أراد العبد فعله. فكون الفعل محرمًا ومخالفًا لإرادته سبحانه التشريعية لا يمنع من أن يتعلق إذنه التكويني بوقوعه. إذن، لقد اجتمع على الفعل إرادتان طوليتان. ووجود إرادة لله تعالى في الفعل، لا يفقد العبد إرادته، فيكون فاعلًا بالإكراه والجبر والقسر، لأنّ إرادته جلّ وعلا في طول إرادة العبد، على أنّ كون العبد مريدًا هو أمر ثابت بالوجدان.

ومن هنا وجدنا أنّ ثمّة مجموعة ثالثة من الآيات المباركة قد جمعت بين الأمرين، أي نسبة العمل الواحد إلى العبد وإلى الله تعالى في الآن عينه، كما في قوله الله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ١٧]. والأمر عينه يمكن استفادته من قوله سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [التوبة: ١٤]، إنّ هاتين الآيتين هما خير شاهد على صحة التفسير أو الجمع المشار إليه بين المجموعتين المتقدمتين من الآيات.

وبكلمة واضحة إنّه لا يمكن فهم هذه الآيات إلّا على ضوء نظرية الأمر بين الأمرين.

ومكمن الخطأ الذي وقع فيه المعتزلة أنّهم لم يعوا أو لم يتقبلوا إمكان اجتماع ارادتين على مراد واحد، وتخيلوا أنّ القول بانتساب أفعال العباد إلى الله تعالى لازمه كون إرادة الله وإرادة العبد واقعتين في عرضٍ واحد، وهذا يستلزم المحال وهو صدور الفعل من فاعلين، قال القاضي عبد الجبار: «إنّ من قال: أنّ الله سبحانه خالقها (أفعال العباد) ومحدثها فقد عظم خطأه وأحال حدوث فعل من فاعلين»(١). وتعليقنا عليه: أنّ المحال هو صدور فعل واحد من فاعلَين عرضيَّين مستقلَّين، ولا يستحيل صدور فعل واحدٍ من فاعلين طوليين بالنحو المشار إليه.

وهنا يظهر سرّ الروعة في هذه العقيدة التي تحافظ على توحيد الله تعالى من جهة، وتحافظ على عدالته من جهة أخرى، وهذه عقيدة المسلمين الشيعة، والتي اتضح أنّها قد اعتمدت على القرآن الكريم قبل الأخبار المستفيضة المشار إليها، وليست مستمدة من خصوص أخبار الآحاد، ليقال: إنّ العقائد لا يمكن إثباتها بذلك.

هذا ويمكن القول إنّ هذه العقيدة يدلّ العقل عليها أيضًا، ولكننا نكتفي بهذا القدر من الدليل.

ت ـ مثال لتقريب نظرية الأمر بين الأمرين

وقد ذكر السيد الخوئي رحمه الله تعالى مثلًا تقريبيًا لتوضيح فكرة الأمر بين الأمرين، فقال: «لنفرض إنسانًا كانت يده شلاء لا يستطيع تحريكها بنفسه، وقد استطاع الطبيب أن يوجد فيها حركة إرادية وقتية بواسطة قوة الكهرباء، بحيث أصبح الرجل يستطيع تحريك يده بنفسه متى وصلها الطبيب بسلك الكهرباء، وإذا انفصلت عن مصدر القوة لم يمكنه تحريكها أصلًا،

---

(١) المغني، ج٦، ص٤١ الإرادة.

فإذا وصل الطبيب هذه اليد المريضة بالسلك للتجربة مثلًا، وابتدأ ذلك الرجل المريض بتحريك يده، ومباشرة الأعمال بها ـ والطبيب يمده بالقوة في كل آن ـ فلا شبهة في أن تحريك الرجل ليده في هذه الحال من الامر بين الأمرين، فلا يستند إلى الرجل مستقلًا، لأنّه موقوف على إيصال القوة إلى يده، وقد فرضنا أنّها بفعل الطبيب ولا يستند إلى الطبيب مستقلًا، لأنّ التحريك قد أصدره الرجل بإرادته، فالفاعل لم يجبر على فعله لأنّه مريد، ولم يفوض إليه الفعل بجميع مبادئه، لأنّ المدد من غيره، والأفعال الصادرة من الفاعلين المختارين كلها من هذا النوع. فالفعل صادر بمشيئة العبد ولا يشاء العبد شيئًا إلّا بمشيئة الله. والآيات القرآنية كلها تشير إلى هذا الغرض، فهي تبطل الجبر ـ الذي يقول به أكثر العامة ـ لأنّها تثبت الاختيار، وتبطل التفويض المحض ـ الذي يقول به بعضهم ـ لأنّها تسند الفعل إلى الله»(١).

وقد يقال: إنّ هذه النظرية ثقيلة الفهم على أذهان عامة الناس، وهذا يتنافى مع ما عرف من بساطة الإسلام وسهولة عقائده التي جذبت الناس إليه؟

الجواب: لا أعتقد أنّ هذه العقيدة تتسم بالتعقيد، فبالتأمل في المثال المتقدم سوف تتضح بشكل كاف. أجل، هي عقيدة تتسم بالعمق والدقة، وهذا أمر آخر غير التعقيد، وهذا يناسب كل العقائد الإسلامية فإنها من قبيل السهل الممتنع. هذا بصرف النظر عن أنّ البساطة ليست معيارًا في صحة العقيدة ولا التعقيد سببًا لبطلانها.

وطبيعي أن ما ذكرناه هو بيان للفكرة بطريقة مختصرة وسلسة تناسب المخاطبين بكتابنا هذا، بعيدًا عن الغوص في المباحث الدقيقة في قضية الجبر والتفويض والأمر بين الأمرين، ومن أراد التعمق أكثر فبإمكانه مراجعة الكتب المعدة لذلك.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن، ص٨٨.

ثالثًا: الحسن والقبح عقليان أم شرعيان؟

اختلف علماء الكلام[1] في أنّ حسن الأشياء أو قبحها هل هو عقلي أو شرعي؟ وبعبارة أخرى: هل العدل حسنٌ لأنّ الله تعالى أمر به، أو لأن العدل حسن في نفسه فقد فعله الله وأمر به؟ وهل الظلم قبيح لأنّ الله تعالى نهى عنه، أو لكون الظلم قبيحًا في نفسه فقد نهى عنه الله تعالى؟

أ ـ اختلاف الرأي في الحسن والقبح

لا يخفى أنّ رأي الشيعة والمعتزلة (العدلية) هو أنّ عقولنا تحكم بحسن كثيرٍ من الأمور حتى قبل أن يأمر بها الشرع، كحكمه بحسن العدل ورد الأمانة والإحسان، وتحكم بقبح جملة من الأمور قبل أن ينهى عنها الشرع، كحكمه بقبح الظلم والخيانة والتعدي. وإذا ما تحدث الشرع عن حسن العدل أو قبح الظلم، فإنّه يؤكد حكم العقل ويرشد الإنسان إلى ما هو مركوز في وجدانه وفطرته. وعليه، يصح القول: «إنّ العدل حسن، ولذلك أمر الدين به»، ولا يصح القول: إنّ منشأ حسن العدل هو أمر الشرع به، بحيث لو أنه نهى عنه لكان قبيحًا، وهكذا يصح القول: «إنّ الظلم قبيح، ولذلك نهى الشرع عنه»، ولا يصح القول: إن قبح الظلم مرده إلى نهي الشرع عنه، فلو أمر به لكان حسنًا. هذا هو معنى أن يكون الحسن والقبح عقليين، كما يرى العدلية.

أمّا الأشاعرة، فقد أنكروا ذلك، وقالوا: إنّ حُسْن الأشياء وقبحها شرعيان، وليسا عقليَّين، فالعدل حَسَن بسبب أنّ الشارع أمر به، ولو لم يأمر به لما كان حسنًا، والظلم قبيح بسبب أنّ الشرع قبّحه ونهى عنه، ولو أنّ الشارع أمر به لكان حسنًا! فمقياس الحسن والقبح ـ بنظرهم ـ هو ما جاء به الشرع لا ما حكم به العقل، ولهذا لا يحق لنا أن نعترض على فكرة أنّ لله تعالى أن يعذب المؤمن أو يدخل الطفل في نار جهنم، أو فكرة أنّ لله تعالى

---

(١) راجع: كشف المراد، ص٤١٧.

أن يدخل رسول الله ﷺ إلى نار جهنم، ويدخل عدوّه إلى جنات النعيم، والوجه في أنه لا يحق لنا الاعتراض هو أنّنا لا نملك حق أن نقيّم أفعال الله تعالى فنحسِّن بعضها ونقبِّح البعض الآخر، ومن نحن لنحاكم أفعال الله تعالى؟! نعم، إنّ الأشاعرة يقولون: إنّنا نقر بأنّ كل ما فعله الله فهو حسن وأنّه تعالى لم ولن يفعل القبيح، لا لأنه لا بدّ أن يفعل الحسن ويترك القبيح، بل لأنه تعالى قد أخبر أنه يفعل الحسن ويترك القبيح، وهو صادق في قوله ووعده.

ب ـ أدلة العدلية في كون الحسن والقبح عقليين

ولكن هذا الرأي الأشعري باطل لعدة وجوه:

أولًا: الفطرة والوجدان: فإنّ كل إنسان يدرك بوجدانه قبح بعض الأشياء والأفعال وحسن البعض الآخر، وهذا الوجدان أو الفطرة يشعر بهما كلّ من المؤمن بالله والكافر به، المؤمن بالشرائع والمنكر لها، العارف بالشرع والجاهل به. وطبيعي أنّ هذا الوجدان هو مما غرسه الله فينا وأودعه في فطرتنا، وهذا شاهد على صحته وأنّه لم يأتِ من التعليم الخارجي، بل هو استجابة لنداء الفطرة والجبلة.

ثانيًا: العقل: فإنّه لو كان الحسن والقبح شرعيين وليسا عقليين، كما يزعمون، لما قَبُحَ على الله شيء، ولما أمكن التصديق بكلامه، أو الثقة بوعده حول أنه لا يعذب المؤمنين أو غيره من الوعود، لأننا إنما نثق بوعده، استنادًا إلى مسلمة مفروغ منها، وهي أنّ إخلاف الوعد قبيح، والله تعالى لا يفعل القبيح، فإذا أنكرنا الحسن والقبح العقليين وبنينا على ما يقوله الأشعري من أنّ خلف الوعد ليس قبيحًا في ذاته ولا يستقل العقل بإدراك قبحه، فما الذي يمنع الله تعالى من أن يخلف الميعاد؟! وكيف نثق بوعده؟! **إن قلت**: إننا نثق بوعده تصديقًا له، لأنه تعالى قد أخبرنا بأنّه «لا يخلف الوعد» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، **قلت**: إنّ قوله تعالى هذا لا يدفعنا إلى التصديق بوعده، لأنّنا نجرّ الكلام

إلى كلامه هذا، فما الذي يضمن أنه سيفي به؟ **إن قلت**: إنّ خلف الوعد قبيح وهو تعالى منزه عقلًا عن فعل القبيح، لأنّ العقل يحكم بقبح ذلك، **قلت**: هذا اعتراف بقدرة العقل على الحكم بالحسن والقبح، فلمَ لم تقل بذلك من أول الأمر؟ **وإن قلت**: إنّ عدم خلفه لهذا الوعد (وهو الثاني حسب الفرض) هو بسبب أنه وعد بذلك. **قلت**: ننقل الكلام إلى هذا الوعد الجديد، وهكذا دواليك..

وهكذا لو أنكرنا كون الحسن والقبح عقليين لانسد باب المعرفة بالنبوة، فعندما يدّعي شخص النبوة، فكيف نصدق دعواه؟ إننا نصدق دعواه عندما يقيم البرهان على صدقه، والبرهان هو المعجزة، فإتيانه بالمعجزة هو الذي يُظهر لنا صدقه من كذبه، والوجه في ذلك هو مسلمة تدركها عقولنا وهي أنّ من المستحيل أن يظهر الله تعالى المعجزة على يد الكاذب، وإلاّ يلزم إغراء الناس بالجهل وضياع الحق، فلولا هذه المسلَّمة التي يدركها العقل لما قبح على الله ـ والحال هذه ـ إظهار المعجزة على يد الكذاب، وبذلك يختلط الحق بالباطل ولا يبقى لنا طريق لنميّز النبي الصادق من مدعي النبوة كذبًا وزورًا.

وعليه، يمكن القول: إنه إذا لم يثبت الحسن والقبح العقليان، لم يثبت الحسن والقبح الشرعيان أيضًا، لأنه لا يمكن الوثوق بحكم الشرع بحسن عمل أو قبحه إن لم يثبت في المرتبة السابقة أن الشارع منزه عن الكذب واللهو، ولا طريق لنا إلى إثبات ذلك إلّا من خلال حكم العقل لا الشرع نفسه.

ثالثًا: القرآن الكريم، حيث يظهر من العديد من آياته المفروغية عن أنّ العقل البشري قادر على إدراك حسن الأشياء وقبحها، فلاحظ قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦]، فإنّ إدانتهم على مساواتهم بين المسلمين والمجرمين ليس لأن الله تعالى نهاهم عن المساواة، فإن الحديث مع غير المؤمنين، بحسب السياق، وهؤلاء لا يُجعل الشرع مرجعية في الحوار والحجاج معهم، فيتعين أن يكون منشأ الإدانة أنّ عقولهم تدرك عدم مساواة هؤلاء بهؤلاء.

ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ [يونس: ٣٥]، فهو تعالى عندما يُنكر ـ في الآية ـ على المشركين عدمَ اتباعهم لمن يدعو إلى الحق، وتفضيلهم لمن لا يدعو إلى الهدى على من يدعو إليه، ويسجل هذا الإنكار بقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]، إنّما يحيلهم على عقولهم التي تدرك أنّ من يهدي إلى الحق أحقّ بالاتباع ممن لا يهدي إليه، ولا يحيلهم على مرجعية الوحي التي لا تقبل المساواة بين هؤلاء وهؤلاء، وكيف يحيلهم على مرجعية لا يؤمنون بها؟!

ومن الآيات التي تدل على إحالة القرآن على مرجعية العقل، قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فإنّ سياق الاستفهام الإنكاري الذي تعقبه الاستثناء يوحي بالإحالة على عقولهم وأنها تدرك ضرورة ذلك، أي أن يكون جزاء الإحسان هو الإحسان.

وقد يستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله عز وجل في وصف النبي ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، فإن هذه الآيات ليست بصدد بيان أن الله تعالى أمر بالعدل والإحسان والمعروف بحيث لولا أمره لما كانت مطلوبة ولا واضحة الحسن، أو أنه تعالى ينهى عن المنكر والظلم والفحشاء بحيث لولا نهيه لم تكن قبيحة، كلا، بل ظاهر هذه الآيات وغيرها أنّه تعالى قد أحال على العقل وما هو مركوز في الأذهان بشأن حسن بعض الخصال وقبح بعضها الآخر، فحكمه تعالى في المقام هو إرشاد وتنبيه إلى ما حكم به العقل حسنًا وقبحًا.

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة والوجوه لإثبات قاعدة الحسن والقبح

العقليين، والتي ترتب عليها العديد من النتائج والثمرات على أكثر من صعيد، كما سوف نشير.

ث ـ العقل كاشف لا حاكم

وقد تقول: إنّ قول العدلية انسياقًا مع قاعدة الحسن والقبح العقليين بأنّ هذا الأمر لا يمكن أن يفعله الله تعالى، وذاك لا يمكن أن يتركه هو من تحكيم العقل على الله تعالى، هذا باطل وينافي قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فرأي العدلية معناه أنّ الناس هم الذين يسألون الله بل ويحاسبونه على ما يفعل!

والجواب: إننا عندما نقول: إنّ الله تعالى عادل ولا يفعل القبيح فلسنا نضع ضوابط وقواعد ونفرضها على الله تعالى فلا يجوز له تخطيها! ومن نحن لنضع قوانين نلزم بها الله تعالى؟! وإنما المسألة أن عقولنا الفطرية والتي هي مرآة وحي الله تدرك هذا المعنى، فهي تدرك أنّ الله تعالى حكيم ولا يفعل عبثًا وأنّه قادر ولا يعجزه شيء، وأنه تعالى عادل ولا يجور، وهذا معناه أنّ عقلنا كاشف لا حاكم على الله عز وجل، فهذه القوانين هي من وضع الله تعالى وصنعه، فقد كتب سبحانه على نفسه أن يسير عليها، كما كتب على نفسه الرحمة، فعندما نقول: إن الله لا يمكن أن يظلم فليس معناه أننا نصدر حكمًا يمنعه من الظلم، وإنما ندرك من خلال معرفتنا بالله تعالى وصفاته الحسنى أنه يستحيل أن يظلم أحدًا.

وأما قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فهو لا يعني سوى أنه لا حاكم على الله تعالى، وأنه لا يتعرض لسؤال من أحد، فهو فوق أن يسأل، وكونه فوق أن يُسأل لا ينبغي أن يتوهم منه إمكانية أنه قد يفعل ما هو قبيح، كحال الكثير من الظلمة الذين لا يسمحون بالسؤال والاعتراض على أعمالهم تكبّرًا وعتوًّا، بل إنه لا يُسأل لأنّه لا يجوز عليه الجور والظلم حتى يُعترض عليه ويسأل عن فعله، وهذا بخلاف ما عليه

حال الناس، فهم يُسألون ويحاسبون، لأن الظلم والانحراف والخطأ جائز عليهم.

ج ـ ثمرات قاعدة الحُسن والقُبح العقليَّين

وينبغي أن يُعلم أنّ هذا البحث في مسألة التحسين والتقبيح وأنهما شرعيان أم عقليان، ليس مجرد ترف فكري، ولا يترتب عليه أثر عملي، كلا، بل إنّ لمسألة التحسين والتقبيح ثمارًا عديدة نشير إلى أهمها مما له ارتباط ببحثنا في المقام:

الثمرة الأولى: أثرها على العقيدة والشريعة

إنّ لقاعدة التحسين والتقبيح العقليَّين انعكاسًا كبيرًا على العقيدة والشريعة، أمّا انعكاسه على العقيدة، فلأنه يوجد فرق كبير بين أن تؤمن بإلهٍ يسير وفق قوانين وضوابط معلومة وواضحة أو تؤمن بإله لا يتحرك وفق أي قوانين، أما انعكاسه على الشريعة، فلأن الشريعة شعاع للعقيدة، وأحكامها هي فروع تلك الأصول، ومن هنا فعندما يرد في بعض الروايات ما ينافي القاعدة المذكورة فلا يسعنا سوى ردّ الخبر إن لم نجد له محملًا. وبكلمة أخرى: عندما يكون العدل مما يحسنه العقل ويكون الظلم مما يقبحه العقل أيضًا، فهذا سيجعل منهما معيارًا وميزانًا في محاكمة الروايات.

الثمرة الثانية: قبح التكليف بغير المقدور

من لوازم قاعدة التحسين والتقبيح العقليين: قبح التكليف بغير المقدور، فالعدلية قالوا يستحيل أن يكلف الله الإنسان العاجز، لأنّ ذلك قبيح، بينما الأشاعرة قالوا يمكن أن يكلِّف الله العاجز، وهذا مبني على إنكارهم لهذه القاعدة، ومثاله: أن يؤمر العبد بالطيران في السماء من دون الاستعانة بأية وسيلة فهذا عندهم غير قبيح، وإن كان الله لا يفعله لأنه أخبر بذلك، في قوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ [الأعراف: ٤٢]، وقال أيضًا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، بيد أننا نعتقد أن ذلك قبيح في نفسه حتى لو لم يخبر عنه الله تعالى، وأنّ هذه الآيات ونحوها لا تخلو من دلالة على أنّ الله لا يفعل ذلك لأنه نقص وعيب ولا يناسبه فعله.

الثمرة الثالثة: قبح العقاب بلا بيان

إنّ قاعدة قبح العقاب بلا بيان، هي أيضًا من فروع قاعدة التحسين والتقبيح العقليَّين، ومفاد قاعدة «قبح العقاب بلا بيان» أنه لا يمكن أن يعاقب المولى عبده على تكليف لم يصل إليه ولم يبلغه، بيد أنّ الأشاعرة رأوا وفقًا لمبناهم أنه يمكن افتراضيًّا معاقبة المكلف الذي لم تصله الحجة، مع أن الله يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ويقول: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥١] في إشارة منه إلى أنّ ذلك لا يليق به، فتكون الآية مرشدة إلى إدراك العقل لقبح الظلم.

الثمرة الرابعة: تبعية الأحكام للمصالح والمفاسد

إن لازم القول بالتحسين والتقبيح العقليَّين إن الله لا يكلّف عبثًا ولا لهوًا بل لا يأمر إلّا بما فيه مصلحة ولا ينهى إلّا عما فيه مفسده وإلاّ كان عابثًا ولاهيًا، وذلك قبيح عقلًا، وفي المقابل، فإن الأشاعرة لما أنكروا القاعدة المذكورة، قالوا: إنّ أوامر الله تعالى لا تعلل بالأغراض، وبالتالي فإنّ الله تعالى يمكن أن يأمر بشيء ولو لم يكن فيه مصلحة أو ينهى عن شيء ولو لم يكن فيه مفسدة، فيمكن نظريًا أن يأمر بالزنا وينهى عن بر الوالدين! وهذا كله باطل بالوجدان والبرهان والقرآن.

الثمرة الخامسة: قاعدة الأصلح

ومن متفرعات قاعدة التحسين والتقبيح المذكورة: قاعدة الأصلح، وهي قاعدة آمن بها العدليّة، وأنكرها الأشاعرة، وقد استدل[١] عليها العدلية

(١) حول هذه القاعدة وأدلة القائلين بها والنافين لها، راجع: كشف المراد، ص٤٥٦.

بوجه عقلي، وخلاصته: أنّه بما أنّ الله تعالى قادر عليم، وجواد كريم، وخالق حكيم، فهذا يقتضي أن يفعل الأصلح للإنسان وفي النظام الكوني برمته، لأنه إن لم يفعل، فإمّا أن يكون ذلك لعجز أو جهل أو بخل، وهذا كلّه محال عليه. قال الفيض الكاشاني[١]: «إنّ الله سبحانه لا يفعل بعباده إلّا ما هو أصلح لهم، لأنّه عزّ وجلّ لطيف بعباده، رؤوف بهم، وهو العزيز الحكيم، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]».

(١) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج١، ص٢٢٢.

المحور الثالث
الابتلاء في القرآن الكريم

١ ـ مفهوم الابتلاء

٢ ـ من خصائص الابتلاء في الرؤية القرآنية

٣ ـ ما علاقة الابتلاء بالإيمان؟

٤ ـ الابتلاء بالخير والشر

٥ ـ شكر الله على الابتلاء

إنّ فهم قضية الابتلاء والتعرف على دلالات هذا المفهوم يعدّ مدخلًا أساسيًا لفهم المعالجة القرآنية لإشكالية الشرور، فإنّ ما يسمى شرورًا ونواقص هي في الاصطلاح الديني ابتلاءات.

وخير خافٍ أنّ القرآن الكريم كثيرًا ما تحدث عن الابتلاء، وأنّه من جملة السنن التي تحكم الإنسان في مسيرته في الحياة.. ولكن ربما وقع في أذهان الناس أكثر من التباس حول مفهوم الابتلاء، وكثرت الأسئلة وأثيرت العديد من الإشكالات في شأن ابتلاء الله للعباد، منها:

ـ ما هي حقيقة البلاء، هل هو عقوبة، أم اختبار، أم بشارة؟

ـ هل صحيح أنّ المؤمن هو أكثر بلاء من غيره؟

ـ ألا يتنافى ابتلاءُ إنسانٍ بالإعاقة أو العمى مثلًا مع العدالة الإلهية؟

هذه الأسئلة وسواها، نحاول الإجابة عليها، فيما يلي:

١ ـ مفهوم الابتلاء

إنّ البلاء هو التعبير الديني عن الحوادث التي تواجه الإنسان. وتوضيح ذلك: أنّ المصيبة التي نبتلي بها هي في بُعدها الواقعي المادي الفيزيقي، موتًا كانت أو مرضًا أو نحو ذلك، هي حدث واحد لا علاقة له بالإيمان أو الكفر، وإنما هي حصيلة ونتيجة طبيعية لقوانين هذه الحياة، ولا ينبغي أن يختلف أهل الدين عن أهل الفلسفة والعلم في النظر إليها من هذه الزاوية، الأمر الذي يفرض عليهم جميعًا التعامل معها ومواجهتها على ضوء القوانين والسنن، فإذا أصاب أحدهم المرض فمن المفترض أن يذهب في معالجته إلى أهل الخبرة من الأطباء، أكانوا مؤمنين أو كافرين، وإنّما الاختلاف قد يحصل في جانب آخر، وهو النظرة الفلسفية للمرض أو غيره من الحوادث والمصاعب، لجهة كيفيّة التعامل معها وتوظيفها والاستفادة منها، فالنظرة الدينية والاجتماعية ترى وراء المرض ـ مثلًا ـ أمرًا آخر غير النقص أو الضعف في بعض وظائف الجسد، وهذا الأمر الآخر هو أنه يمثّل ابتلاءً، أي اختبارًا لإرادة الإنسان، بما يفرض على المريض أن لا يسقط أمام المرض بل عليه أن يستفيد منه في تهذيب شخصيته وصقل مهاراته.

وطبيعي أنّ إرادة الناس تختلف في التعامل مع الابتلاءات، فهناك من ينجح في الاختبار ويثبت جدارته، وربما يكون الابتلاء بالنسبة إليه نعمة وهدية، وهناك في المقابل من لا يتفهم الابتلاء فيسقط وينهار ويكون الابتلاء نقمة عليه، وبما أن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التعامل بإيجابية مع الابتلاء، فمن المفترض أن يتقبله ويتكيف معه ولا يسمح له بأن يسقط إرادته.

ومن المفترض بالخطاب الاجتماعي التربوي دينيًّا كان أو غير ديني أن يشجع على هذه النظرة الواقعيّة للابتلاءات، فبذلك يمكن أن نخفف من وطأة الأزمات المختلفة وتأثيراتها السلبيّة على الصعيد النفسي والاجتماعي، وطبيعي أنه يبقى للخطاب الديني ميزته وخصوصيته في هذا المجال، وهي ميزة تنطلق من نظرة الدين إلى الدنيا بصفتها دار اختبار ودار مجاز وعبور إلى الدار الآخرة، ما يفرض على الإنسان المؤمن أن يكون قويًا ولا ينهزم

أمام الشدائد، فإيمانه لا بدّ أن يعزز لديه قوة الإرادة وطاقة الصبر على المصائب.

وغريب أمر بعض الناس فهم من الغفلة بحيث لا يهزّ وجدانهم شيءٌ من الابتلاءات مهما كثرت وتعاظمت، فتراهم مصرين على الكفر والعصيان والتمرد على الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾[الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

تصحيح خطأ

وعلينا هنا أنّ نشير إلى أنّ البعض قد وقع في الوهم والخطأ في تفسير مفهوم الابتلاء الإلهي، وخطأه أنه نظر إلى الابتلاء بصفته ردة فعل انتقامية من قِبَل الله تعالى وهدفها معاقبة العبد على ما فعل، والخطأ في هذا التفسير هو من جهتين:

الأولى: أنّه يحمل صورة خاطئة عن الله تعالى، بتصويره لله تعالى أنه ممن تتحكم به الانفعالات الانتقامية، مع أنَّه تعالى منزّه عن ذلك وهو غني عنا وعن عذابنا في الدنيا والآخرة، وليس لديه نقص يدفعه إلى التشفي من عباده. وأما ما ورد في الأخبار من أنّ المصائب تنزل على الإنسان بسبب ما يرتكبه من الذنوب والمعاصي، فهذا لنا رأي مغاير فيه، كما سيأتي في المحور الثاني من الباب الثالث.

الثانية: أنه افترض أن الابتلاء الإلهي هو ردة فعل على ما يفعله العبد، مع أنّ الابتلاء في الحقيقة جارٍ وفق القوانين الإلهية الحاكمة على عالم الطبيعة.

وثمة خطأ آخر يقع فيه البعض عندما يقيس ابتلاء الله لخلقه، على ابتلاء الناس لبعضهم البعض، وحيث إنّ الابتلاء يأتي بمعنى الاختبار، فيظن أن الله تعالى يبتلي عباده ويختبرهم بهدف أن يعرف مدى التزامهم وصدق وعودهم، وقوة إرادتهم. وقد يستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ

مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

ولكنّ هذا الفهم خاطئ بكل تأكيد، فالإنسان قد يختبر غيره لينكشف للمختبِر مستوى علم المختبَر وقوة إرادته، ولكنّ الله تعالى لا يختبر العباد بهدف معرفة إرادتهم وصدقهم، وذلك لأنّه عالم بهم وبكلّ مشاعرهم وما يكسبون بأيديهم، وما يطوف في خاطرهم، وكل ما سيقدمون على فعله في قادم الأيام إلى آخر أعمارهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. وأما قوله تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، فيراد به أنه تعالى بالاختبار سيظهر صدق هؤلاء وكذب أولئك، والقرينة على ذلك، أنّ متعلق العلم وهو الصدق قد تحدث عنه الله تعالى مستخدمًا فعل الماضي، ما يعني تحقق الصدق وكذا الكذب، والصدق المتحقق خارجًا هو معلوم له بكل تأكيد، فلا بدّ أن النظر إلى إظهار صدق هؤلاء وكذب أولئك. ويشهد لذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. فلاحظ إشارة الآية إلى أن ابتلاءه لكم ليس ناشئًا عن جهلٍ، فهو عليم بذات الصدور. وعليه، يكون اختباره لنا مختلفًا اختلافًا جوهريًا عن اختبارنا لبعضنا البعض.

٢ ـ من خصائص البلاء في الرؤية القرآنية

والابتلاء بحسب الرؤية القرآنية له العديد من الخصائص ومن أهمها:

أولًا: إنَّ الابتلاءات والمصائب كلها تجري بعلم الله تعالى ووفق تقديره وتخطيطه العام لمسيرة هذه الحياة وما يجري في هذا الكون، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن: ١١]، وقال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢]. وكون تلك

الابتلاءات مقدرة لا يعني أنّ العبد ليس مسؤولًا عن أفعاله، بل هو مسؤول عنها، لكونه مختارًا، ولا سيما أنه في كثير من الأحيان هو المسؤول المباشر عن الوقوع في المصائب أو التسبب بإيقاع الآخرين في فخها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

ثانيًا: إنّ الابتلاء ذو معنى واسع، يضم ويشمل كل المصاعب والآلام والتحديات التي تواجه الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة: ١٥٥]. والأهم من ذلك أنّ الابتلاء لا ينحصر بالمصائب فحسب، وإنّما يشمل النعم والخيرات التي يغدق الله بها على الإنسان، فهذه أيضًا تعد ابتلاءً في الرؤية القرآنية، كما سيأتي.

ثالثًا: إنّ الابتلاءات ـ خارج الحالات الاستثنائية ـ ليست قائمة على أساس التدخل الإلهي المباشر، وإنّما هي جارية وفق السنن الإلهية، ومن خصائص السنن: الشمولية والتعميم، ولذا نجد أنّ القرآن الكريم يتحدث عن البلاء بصفته فتنة للناس جميعًا لا لخصوص جماعة بعينها، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ * وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت ١ ـ ٢]. وعليه، فالابتلاء ليس خاصًا بطائفة دون أخرى، ولا علاقة له بدين العبد أو لونه أو جنسه.

٣ ـ ما علاقة الابتلاء بالإيمان؟

هل المصائب ضريبة الإيمان؟ وما معنى أن يكون المؤمن أشد بلاءً من غيره كما جاء في بعض النصوص الدينية؟ أليس من المفروض أن يلجأ الناس إلى الدين والإيمان باعتباره مساحة اطمئنان وراحة روحية، فإذا كان المؤمن هو الأكثر بلاءً، كما نصت الروايات، فسوف تصبح حياته هي الأكثر حزنًا وقلقًا، فيغدو الإيمان مصدر قلق؟!

ولكننا نجيب:

أولًا: إنّ ابتلاء المؤمن لا يعني أنّ الإيمان يجلب معه المصائب والفقر له ولأسرته، وكأنّ المؤمنين جماعةٌ بائسة تفتك بها الأمراض بينما يعيش الآخرون رغد الحياة وهناءها، فهذا تخيّل خاطئ بكل تأكيد، وهو مجاف للواقع وللحقيقة الدينية، أما مجافاته للواقع، فلأن الكثير من المؤمنين يعيشون حياة كريمة هانئة لا يكدر صفوها شيء، وأما مجافاته للحقيقة الدينية، فلأنّ الله تعالى لا يريد للمؤمن أن يكون كذلك، بل إنّه تعالى يريد له كما يريد لكل إنسان أن يعيش حياته سعيدًا معافى سليمًا وأن يستفيد من كل النعم الإلهية الممنوحة له، مع الالتزام بالضوابط ورعاية الحدود، التي توفر الأمن للإنسان، بكل أبعاده الروحيّة والاجتماعيّة والنفسيّة والأخلاقيّة والاقتصاديّة.. وأمّا المصائب والآلام والفقر والجوع فهي تصيب المؤمن كما تصيب غيره، ولا ينبغي أن تنافي الاستقرار الروحي والنفسي للإنسان، ويفترض بالمؤمن أن يتمكن بقوة إيمانه وعزيمته من التغلب عليها والتخلص من آثارها النفسية، فهو يصبر على الأذى والألم والمعاناة والاضطهاد، ولا يسمح لنفسه أن تسقط أمام الشدائد والصعاب أو الأمراض، ومن هنا وجدنا أن الكثير من المؤسسات الصحية أو الاجتماعية قد أدركت أهمية الإيمان وقوة تأثيره في النفوس فدعت إلى الإفادة منه في التغلب على الآثار السلبية التي تخلّفها الأمراض والصدمات. إن المريض المؤمن بالله تعالى وبقضائه وقدره وبعلمه وحكمته ومؤمن أيضًا أنّه صائر إليه تعالى سوف يمنحه هذا الإيمان دافعًا قويًا يمكّنه من التغلب على المصائب والأمراض بما يمنعها من أن تفتك به وتسقط إرادته.

لقد قرأت قبل فترة تقريرًا معتمدًا على دراسة استقصائية حول الأمراض النفسية لدى الفقراء والأغنياء، وقد فنّدت الدراسة الزعم القائل: إنّ الفقراء هم أكثر الناس بؤسًا، وأنهم مرتع للأمراض، وتجتاحهم حالات اليأس والإحباط والانتحار، بل رأت أن الأمر على العكس تمامًا.

ثانيًا: إنّ ما ورد في الأحاديث عن أن المؤمن أكثر ابتلاءً لا يراد به أن

الله تعالى يتعمد إغراقه في المآسي والآلام، وإنما هذا الأمر تفرضه طبيعة كونه مؤمنًا، فإنّ إيمانه يحتّم عليه الاستقامة والالتزام بالضوابط الأخلاقية، ما يجعل عنده كوابح خاصة تمنعه من الانزلاق في مهاوي الحرام، كما يفعل الكثيرون، كما أنّ الإيمان يفرض عليه الانحياز إلى خط العدل والاستقامة، وأن لا يقبل المداهنة ولا السكوت على الباطل، ولا الوقوف على التل، ما يضطره إلى الصدع بالحق ومواجهة الظلمة والفاسدين وهذا ما يجعله يدفع ثمنًا باهظًا لمواقفه والتزامه بقضايا العدالة.

باختصار: إنّ ابتلاء المؤمن لا يأتي من خارج القوانين الإلهيّة الحاكمة على هذا الكون، والتي لا تفرق بين مؤمن وغيره، أجلْ، حيث إنّ المؤمن متقيد بضوابط أخلاقية ودينية أكثر من غيره، انطلاقًا من إيمانه بالمبدأ والمعاد، وأنّ الدنيا ليست نهاية المطاف، فإنه سيواجه ابتلاءات أكثر من غيره، إن لجهة المغريات التي سيواجهها أو لجهة الالتزامات التي يتقيّد بها، وكثرة المغريات والالتزامات تعني كثرة الابتلاءات، وهذه ضريبة الإيمان والاستقامة، ونحن نتقبلها بكل رحابة صدر، فإيمانك يحتم عليك عدم الانجرار مع الغرائز والأطماع، وعدم الخضوع للمغريات أو القنوط أمام التحديات، وإيمانك يحتم عليك أن تبتعد عن كل ما يشوه روحيّتك ويفسد أخلاقك، وهذا ابتلاء كبير وتحدٍ عظيم. وهذا هو تفسير ما جاء في العديد من الروايات من أن المؤمن أشد بلاءً من غيره، ففي الخبر قَالَ: أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام: «**كُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ إِيمَانًا ازْدَادَ ضِيقًا فِي مَعِيشَتِه**»(١)، وعنه عليه السلام: «**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُ بِمَنْزِلَةِ كِفَّةِ الْمِيزَانِ كُلَّمَا زِيدَ فِي إِيمَانِه زِيدَ فِي بَلَائِه**»(٢). باختصار: إن كثرة الابتلاءات هي نتيجة طبيعية لإيمانه، فالمؤمن كلما ازداد إيمانه ازداد تورعًا عن المحارم والتزامًا بالضوابط، ما يجعله أكثر ابتلاءً، بيد أنّ المؤمن حقًّا وصدقًا يرى لذة خاصة في الصبر على هذه

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٤.

الابتلاءات، ما يجعله لا يشعر بمرارة تذوقها، لأنها في عين الله تعالى وفي سبيل رضوانه، كما أنّه سوف يقبض الثمن الأوفى في الآخرة على صبره وتحمّله.

الغربيون أقل ابتلاءً!

وقد قال لي أحد الشباب المؤمنين يومًا: إنّ الجواب الذي تقدمونه لنا إزاء ما يواجهنا من آلام ومصاعب من أنها ابتلاء من الله لا يمكن أن يكون صحيحًا دائمًا، لأنّ هموم الغربيين أقل من هموم المسلمين في هذه الحياة لجهة المعيشة والآلام غيرها!

وأجبته قائلًا:

أولا: إنّ الله تعالى أراد لهذه الحياة الدنيا أن تسير وفق منطق القوانين، «أبى الله أن تجري الأمور إلّا بأسبابها»، وليس وفق التدخل الإلهي المباشر، ومن جملة القوانين التي تحكم عالم الدنيا، قانون: «العمل سر النجاح»، وقانون: «العلم أساس التقدم» وقانون: «العدل ملح الأرض وأساس الاستقرار الاجتماعي»، فمن يأخذ بهذه القوانين، فسيكون النجاح حليفه والاستقرار الاجتماعي ملازمًا له، حتى لو كان غير مؤمن بالله تعالى، ومن تخلى عن هذه القوانين أو ابتعد عنها فإنّ من الطبيعي أن يبقى ضحيةً للتخلف وأن تفتك به شتى الأمراض الاجتماعية والنفسية وغيرها حتى لو كان راكعًا ساجدًا طوال عمره.

ثانيًا: أمّا الابتلاء فهو فلسفة دينية تُعَلِّمنا كيفية التعامل مع الآلام والمصائب، ولا يعني الابتلاء أبدًا نفي مسؤوليتنا عن تلك المصائب والمشكلات، كما أنه لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، أو ترك الاحتياط والحذر وما يجنّبنا الوقوع في المصائب، فهذا من الفهم الخاطئ لمفهوم الابتلاء. إن مفهوم «الابتلاء الإلهي» يعني أن نستثمر المصيبة بما ينمي إيماننا ويصقل إرادتنا ويهذب نفوسنا، فلا نسقط أمامها، ولا نتجمد عن النشاط ولا نكف عن التفكير وابتكار الحلول بغية الخروج مما يواجهنا من

تحديات، أو ظروف صعبة، وبذلك يكون الابتلاء مفهومًا رائعًا ومساهمًا بشكل إيجابي في تخطي المصائب والصعوبات.

٤ ـ الابتلاء بالخير والشر

وطبق الرؤية القرآنية، فإنّ الابتلاء لا يتحقق بالحرمان فقط، وإنما قد يتحقق بالإنعام أيضًا، والإنسان كما يختبر في الضراء والشدائد فهو يختبر في الرخاء والسراء، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ألا ترى أنّ بعض الناس يرزقون أولادًا فيهللون فرحًا وسرورًا بذلك، وهذا حقهم الطبيعي، ولكن ما قد يحصل أحيانًا أنه لا تكاد تمرّ السنون حتى ترى الآباء والأمهات متوترين مكروبين، وعندما تستعلم عن سبب تبدل الفرح إلى حزن، تفاجأ أنّ السبب هم الأولاد، بفعل عقوقهم أو فسادهم وانحرافهم، حتى ليتمنى الأبوان ـ أحيانًا ـ لو كانا عقيمين؟! هكذا تتحول النعمة إلى نقمة!

ألم تتعرف في حياتك على شخص ما، كان إنسانًا طيبًا خيِّرًا عندما كان فقيرًا، ولما حصل على المال، وأصبح غنيًا غيّرت الدنيا أخلاقه وأصبح إنسانًا آخر في بطره وإسرافه وتكبره عليك وعلى غيرك، أو في توتره وقلقه وخوفه على ماله ونفسه وعياله، ما يعني أنّ ماله قد تحول إلى نقمة عليه، كما جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**كم من مبتلى بالنعماء، وكم من مُنعَم عليه بالبلاء**»[١].

إن نعمة المال أو الولد هي أجمل نعمة، وهي أعظم اختبار في الوقت عينه، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ للواسطي، ص٣٨٠.

وقد يبتليك الله بالجمال أو بالشباب، ليرى أين توظّف هذا الجمال وكيف تستفيد من الشباب؟ فهل تحفظ النعمة وتؤدي حقها؟ ولا تسمح لها أن تكون سببًا في انحرافك وضلالك؟!

يوسف وفتنة الجمال

ولا بأس أن نتوقف قليلًا عند الابتلاء بنعمة الجمال والشباب، من خلال المثال القرآني المميز، وهو ما جاء في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، الذي ابتلاه الله كما ابتلى غيره من الأنبياء، لكن بماذا ابتلاه؟ لقد ابتلاه بنعمة الجمال، جمالٌ يأخذ بالألباب، لدرجة أن نسوة المدينة لما رأينه وهنّ يقطّعن الفاكهة بأيديهن هالهن ما شاهدن و﴿أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، وجمال يوسف عليه السلام لم يكن ابتلاءً له فحسب، بل ولزوجة العزيز التي هامت به ودعته إلى نفسها، فاستعصم وأبى. وهذا التحدي لم يكن سهلًا على يوسف عليه السلام، وإنّ قوله: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، يعكس هذه المعاناة التي كان يعيشها، فاستعان بالله تعالى للخروج منها، دون أن يلوّث شرفه أو يخدش صفاء إيمانه، وطلب منه جلّ وعلا اللّطف والتسديد وأن يصرف عنه كيد تلك المرأة. ولو لم يكن للشاب يوسف عليه السلام مثل هذه الغريزة التي تضغط عليه لم يكن محلًّا للمدح الإلهيّ، وما كان له فضل على سائر الناس. فإنّ الإنسان إنّما يستحقّ المدح والفضل على فعل ما يقع تحت اختياره وإرادته، أو على ترك ما يملك دوافع ذاتية لفعله وتتطلع نفسه نحوه، ومع ذلك يكبح جماح الغريزة.

لقد كان يوسف عليه السلام شابًا في مقتبل العمر وفي أوان فوران الغريزة، وهو ذو هيئة رائعة وصورة جميلة حسنة قلّ نظيرها، والجمال يُغري صاحبه بالهوى ويُغري الجنس الآخر بذلك. وكان في الوقت عينه مملوكًا لزوجة العزيز، والمملوك لا يستطيع أن يردّ أوامر سيّدته أو يرفض لها طلبًا. وفي

المقابل، فإنّ زوجة العزيز كانت هي الأخرى امرأة جميلة، بل فائقة الجمال على ما يُذكر ويُحكى، وهي بطبيعة الحال تكون متزيّنة بأجمل الحليّ ومتعطّرة بأرقى أنواع الطِّيب. كما أنّها من جهة أخرى، قد عشقت يوسف عشقًا لا حدّ له، حتى وصل حبّها له إلى شغاف قلبها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] ثم إنّها هيّأت نفسها وأعدّت واستعدت لساعة الوصال، فهيّأت خلوةً خاصّة وغلّقت الأبواب، ودعته إلى نفسها بعيدًا عن أعين الناظرين، وفي بيت من بيوت الملوك التي تبهر العقول بروعتها وجمالها. ومع ذلك كلّه وبالرغم من كلّ هذه الأجواء والأسباب التي لو توفّر بعضها لأيّ رجل لسقط تحت ضغط الغريزة، فإنّ يوسف عليه السلام تعالى وتسامى، وكان شريفًا أَبيَّ النفس تقيًا ورعًا يضعُ اللهَ نصبَ عينيه، ولذلك انتصرت إرادته رغم كلّ المعاناة التي عاشها، ورغم كلّ «تلك الأسباب والأمور الهائلة» التي «لو توجهت إلى جبل لهدّته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها»، كما يقول العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي[1].

إنّ قصّة يوسف عليه السلام هذه تعدّ درسًا بليغًا لكلّ الشباب الذين تواجههم الإغراءات، مع كونها إغراءات قد لا يصل معظمها إلى معشار ما وصل إليه الأمر عند يوسف، وبالرغم من ذلك فقد انتصرت الإرادة عنده عليه السلام على الغريزة وتغلّب حبُّ الله على هوى النفس وحبّها، ويستفاد من بعض الأخبار أنّ يوسف الصدّيق سوف يتّخذه الله يوم القيامة حُجّة له على الشباب الذين أغراهم جمالهم فانحرفوا، كما ستكون السيدة مريم عليها السلام حجّة الله على النساء الجميلات اللاتي أغراهن حسنهن وجمالهم فانحرفن. ففي الحديث عن أبي عَبْدِ الله الصادق عليه السلام: **«تُؤْتَى بِالْمَرْأَةِ الْحَسْنَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّتِي قَدِ افْتُتِنَتْ فِي حُسْنِهَا، فَتَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مَا لَقِيتُ! فَيُجَاءُ بِمَرْيَمَ** عليها السلام **فَيُقَالُ: أَنْتِ أَحْسَنُ أَوْ هَذِهِ؟ قَدْ حَسَّنَّاهَا فَلَمْ تُفْتَتَنْ! وَيُجَاءُ**

---

(١) الميزان، ج١١، ص١٣٦.

بِالرَّجُلِ الْحَسَنِ الَّذِي قَدِ افْتُتِنَ فِي حُسْنِه فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَسَّنْتَ خَلْقِي حَتَّى لَقِيتُ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَقِيتُ! فَيُجَاءُ بِيُوسُفَ عليه السلام فَيُقَالُ: أَنْتَ أَحْسَنُ أَوْ هَذَا؟ قَدْ حَسَّنَّاه فَلَمْ يُفْتَتَنْ! ويُجَاءُ بِصَاحِبِ الْبَلَاءِ الَّذِي قَدْ أَصَابَتْه الْفِتْنَةُ فِي بَلَائِه فَيَقُولُ: يَا رَبِّ شَدَّدْتَ عَلَيَّ الْبَلَاءَ حَتَّى افْتُتِنْتُ! فَيُؤْتَى بِأَيُّوبَ عليه السلام فَيُقَالُ: أَبَلِيَّتُكَ أَشَدُّ أَوْ بَلِيَّةُ هَذَا فَقَدِ ابْتُلِيَ فَلَمْ يُفْتَتَنْ!»[1].

٥ ـ شكر الله على الابتلاءات

ووفقًا لما تقدم وسيأتي توضيحه لاحقًا من فوائد الابتلاءات وآثارها الإيجابية، فإن الابتلاءات ستغدو نوعًا من النعم، والنعم ينبغي أن يقابلها الإنسان بالشكر لواهبها وهو الله الذي لا يحمد على مكروه سواه. وهذا ما نجده في بعض الأدعية المأثورة عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، فإنهم ما كانوا يرون في الابتلاءات مصائب يستعيذون بالله تعالى من شرها، كما يفعل البعض منا، وإنما كانوا يرونها سببًا لشكر الله وحمده، ولذا تراهم يحمدون الله ويشكرونه على حالات السقم والمرض التي تصيبهم وتنزل بهم، كما يحمدونه على حالة الصحة التي يتقلبون فيها، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دُعَائِه إِذَا مَرِضَ أَوْ نَزَلَ بِه كَرْبٌ أَوْ بَلِيَّةٌ: **«اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا لَمْ أَزَلْ أَتَصَرَّفُ فِيه مِنْ سَلَامَةِ بَدَنِي، ولَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَحْدَثْتَ بِي مِنْ عِلَّةٍ فِي جَسَدِي فَمَا أَدْرِي، يَا إِلَهِي، أَيُّ الْحَالَيْنِ أَحَقُّ بِالشُّكْرِ لَكَ، وأَيُّ الْوَقْتَيْنِ أَوْلَى بِالْحَمْدِ لَكَ أَوَقْتُ الصِّحَّةِ الَّتِي هَنَّأْتَنِي فِيهَا طَيِّبَاتِ رِزْقِكَ، ونَشَّطْتَنِي بِهَا لِابْتِغَاءِ مَرْضَاتِكَ وفَضْلِكَ، وقَوَّيْتَنِي مَعَهَا عَلَى مَا وَفَّقْتَنِي لَه مِنْ طَاعَتِكَ أَمْ وَقْتُ الْعِلَّةِ الَّتِي مَحَّصْتَنِي بِهَا، والنِّعَمِ الَّتِي أَتْحَفْتَنِي بِهَا، تَخْفِيفًا لِمَا ثَقُلَ بِه عَلَيَّ ظَهْرِي مِنَ الْخَطِيئَاتِ، وتَطْهِيرًا لِمَا انْغَمَسْتُ فِيه مِنَ السَّيِّئَاتِ، وتَنْبِيهًا لِتَنَاوُلِ التَّوْبَةِ، وتَذْكِيرًا لِمَحْوِ الْحَوْبَةِ بِقَدِيمِ النِّعْمَةِ»**[2].

---

(١) الكافي، ج٨، ص٢٢٨.

(٢) الصحيفة السجادية، مِنْ دُعَائِه عليه السلام إِذَا مَرِضَ أَوْ نَزَلَ بِه كَرْبٌ أَوْ بَلِيَّةٌ.

هل نطلب من الله إنزال البلاء بنا؟

وقد تقول: إذا كان في الابتلاءات والمصائب كل هذه الفوائد التي تستدعي أن نشكر الله عليها فحريٌ بنا أن نسأل الله تعالى أن ينزل المصائب علينا؟!

والجواب:

إنّ الإسلام لا يدعو الإنسان ولا يشجعه أبدًا على أن يخلق لنفسه الأمراض أو المتاعب أو يلقي نفسه في المهالك، أو يوقعها في المصائب، بل إنّه لا يبيح له ذلك، لأن صحة المرء أمانة ولا بدّ من حفظها، ولا يجوز تعريض النفس للمهالك، كما أنه لا يدعوه ولا يشجعه على الطلب من الله تعالى بأن يبتليه بالأمراض والأسقام، بل الصحيح في الدعاء هو الطلب إلى الله جل وعلا أن يدفع عنا البلاء وأن يعيننا إذا ابتلانا.

ومن يراجع أدعية النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام يجد أنّها تنص على ما ذكرنا، حيث يطلب الداعي من الله تعالى أن يدفع عنه المرض والسقم والكرب والهم والغم وغيرها من الابتلاءات، وإنّ عبارة: «اللهم إني أسألك العافية» هي من أكثر الفقرات حضورًا في الأدعية، وقد خصص الإمام زين العابدين عليه السلام كما في الصحيفة السجادية، دعاء خاصًا لطلب العافية وشكر العافية، والوجه في ذلك أنّ من طبيعة الإنسان أن يفرّ من المصائب ولا يأنس بها، لثقلها وصعوبة تحملها، ولذا ليس من الصحيح أن يطلب نزولها به، لأنه لا يضمن تماسك إرادته ونجاحه في مواجهتها. ينقل عن الفضيل بن عياض أنه كان إذا قرأ هذه الآية ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم..﴾ [البقرة: ١٥٥] بكى وقال: «اللهم لا تبتلنا، فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا»(١). على أنه لا حاجة إلى طلب نزول المصائب والآلام والأمراض، لأنّ حدوث ذلك أمر طبيعي وحاصل لا محالة بمقتضى قوانين عالم الدنيا، نعم، ما

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ج١٦، ص٢٥٤.

يُنصح به الإنسان هو أن يكون على استعداد في مواجهة المصاعب، حتى لا ينهار وتسقط إرادته، بل على الإنسان أن ينصح نفسه بهذه النصيحة، فالعاقل هو الذي لا يخدع نفسه وإنما ينصحها، وأعتقد أنّه لغشٌ كبير للنفس أن يتعامى الإنسان عما هو لاقيه من الموت، أو المرض أو غيره، وكأنه غير معرَّض للمصائب والالآم!

المحور الرابع
الشرّ والشيطان في القرآن

١ ـ الشرّ في القرآن: حقيقته وأصنافه:

أ ـ الشرّ العرفي

ب ـ الشرّ الحقيقي

٢ ـ ما هو مصدر الشرّ في العالم؟

أ ـ علاقة الشرّ باللّه تعالى

ب ـ الإنسان والشرّ

ت ـ الشيطان ودوره في الشرّ

ث ـ ما هي وظائف الملائكة؟

والأمر الآخر الذي يشكل مدخلًا لفهم الرؤية القرآنية حول إشكاليّة الشرور هو معرفة دور الشيطان في التأثير على الإنسان، ومدى قدرته على التحكم بمسار البشر وجرّهم إلى مستنقع الرذيلة.

فما هو الشر؟ ما هو مصدره؟ وهل هو متأصل في النفس البشرية؟ كيف قارب القرآن قضية الشرور؟ هذه الأسئلة وغيرها نحاول الإجابة عليها فيما يلي:

أولًا: الشرّ في القرآن: حقيقته وأصنافه

في تعريفه للشر قال الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن الكريم»: «الشر: الذي يرغب عنه الكل، كما أن الخير هو الذي

يرغب فيه الكل»[١]. وقد عرفه بعضهم بأنه ما يقابل الخير[٢]، وأعتقد أنه لا خلاف في مفهوم الشر لدى أهل العرف، كما لا ريب عند العقلاء أنّ الشرّ مبغوض ومكروه، وأنّ فاعله مدان، كما أنّ فاعل الخير ممدوح، وإنّما الكلام والخلاف بينهم هو في تشخيص المصاديق، فهم قد يخالون كثيرًا من الأمور شرًا والحال أنها خير، والعكس صحيح. هذا بحسب اللغة وما لدى أهل العرف.

وأمّا في القرآن الكريم فقد وردت كلمة الشرّ مرات كثيرة، وفي سياقات مختلفة، دون أن يذكر لها تفسيرٌ خاص، والسرّ في ذلك أنّ مفهوم الشرّ هو من الواضحات التي لا تحتاج إلى بيان، كما ذكرنا، فالإنسان بعقله الفطري يدرك الشر والخير ويحكم بقبح الأول وحسن الثاني.

١ ـ الشرّ العرفي

ويلاحظ أنّ كلمة الشرّ في القرآن لا يراد بها دائمًا ما يكون قبيحًا أو مدانًا عند الله تعالى أو في منطق العقل والعقلاء، مما ينبغي أن ينزه الله تعالى عن فعله، أو يدان العبد على ارتكابه، وإنما قد تُستخدم ـ أعني كلمة الشر ـ ويراد بها ما يكون مكروهًا للإنسان، من مصيبة يبتلي بها، أو ضرر يصيبه أو نحوه، وتسمية ذلك بالشر كان جريًا على ما يخاله الناس ويعتقدونه من شريّة الابتلاءات والمصائب، فهو شر في النظر العرفي، مع أنها قد تكون في حقيقتها خيرًا لهم. واستخدام كلمة الشر بمعنى الضر، والألم، والحرمان، والمصائب، واردٌ في العديد من الآيات المباركة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص٢٥٧.

(٢) نقل ابن منظور عن ابن سيده: «الشَّرُّ ضدّ الخير، وجمعه شُرُورٌ»، لسان العرب، ج٤، ص٤٠٠.

ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٠]. إنّ الحكم بشريّة المصائب كان ـ بحسب الظاهر ـ جريًا على النظرة العرفية، والحال أنّها في واقع الأمر قد تكون خيرًا للإنسان وتصب في صالحه، كما قال عزّ من قائل: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقد تحدث القرآن الكريم بإسهاب عن هذا النوع من الشرور العرفية، وعن تأثيرها على الناس، وهذا ما نتحدث عنه في النقاط التالية:

أ ـ الإنسان والفرار من الشرّ

لا يغفل القرآن الكريم الإشارة إلى طبيعة الإنسان التي تميل إلى الدعة وتفرّ من الشر، بمعنى الضر وكل ما يؤذيه ويقلق راحته، أو ما كان محفوفًا بالمخاطر، ولو كان أمرًا لا مفرّ من الخوض فيه، كما في الحرب التي تُفرض عليه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وهذه الطبيعة لا يبدو أنها غريبة أو مستنكرة، فهي حالة جبليّة وربما شكلت درع حماية للإنسان منعته من التهور وإلقاء النفس في التهلكة، أجل، إنّ المذموم أو غير المحبذ هو أحد أمرين:

أولًا: أن يصل الخوف من المصيبة أو النازلة إلى حدّ أن يصاب الإنسان بالهلع والجزع، لمجرد أن يمسّه الشر، فضلًا عن أن يحيط به، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٠]. والهلع هو أعلى درجات الجزع، فالجزع عند المصاب مذموم، لمنافاته لقيمة الصبر التي تعبّر عن تماسك الإنسان وتوازنه في مواجهة الأحداث والمصائب، وقد قال الإمام علي عليه السلام وهُوَ يَلِي غُسْلَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وتَجْهِيزَه: «بِأَبِي أَنْتَ وأُمِّي يَا رَسُولَ الله، لَقَدِ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ، مِنَ النُّبُوَّةِ والإِنْبَاءِ وأَخْبَارِ السَّمَاءِ، خَصَّصْتَ حَتَّى صِرْتَ مُسَلِّيًا عَمَّنْ سِوَاكَ، وعَمَّمْتَ

حَتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً، ولَوْلَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ ونَهَيْتَ عَنِ الْجَزَعِ، لأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّئُونِ، ولَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلًا والْكَمَدُ مُحَالِفًا»[1].

ثانيًا: أن يبعث على اليأس في النفوس، يقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: **٨٣**]، ويقول سبحانه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصّلت: **٤٩**]، وهذا الأمر مستغرب ومرفوض، لأنّ اليأس يعبر عن عدم ثقة العبد بربه، ولأنه ـ كما الجزع ـ يؤدي إلى شلل الإنسان، وانقطاعه عن العمل، ومن هنا بشّر القرآن بالأمل، ونهى عن اليأس، لأنه من فعل الكافرين، قال سبحانه على لسان يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: **٨٧**].

ربما يقال: إنّ الجزع واليأس حالتان تعرضان للإنسان، دون أن يملك لهما ردًّا، فهما من الصفات الجبلية المغروسة فينا، كما يوحي بذلك لسان الآيات المتقدمة والتي جعلت محور حديثها الإنسان، وقالت: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ [المعارج: **٢٠**] ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت: **٤٩**]، وعليه، فلا وجه لذمه على هاتين الصفتين، لأنهما من الصفات غير الإرادية.

قلت: نعم، إنّ المبدأ لهاتين الخصلتين هو حالة جبليّة طبيعيّة، فقد غرس الله تعالى فينا الخوف والقلق والحزن والغضب وسواها من المبادئ الجبلية التي هي في حد ذاتها تمثل حاجة للإنسان، ولكنها قد تكون منشأ للهلع والقنوط والتهور والقتل وما إلى ذلك، والمبادئ الأساسية التي تتفرع عنها هذه الصفات لا يلام ولا يذم عليها الإنسان، إلّا إذا تجاوزت الحد الطبيعي، فإذا تحوّل الخوف إلى جبن، والحزن إلى يأس وإحباط، ودفع الغضب بصاحبه إلى الاعتداء على الآخرين، عندها تغدو هذه الصفات مذمومة، لأن بإمكان الإنسان من خلال التربية ومجاهدة النفس أن يهذبها ولا يسمح لها بأن تسيطر عليه وتتجاوز به الحد الطبيعي، وعليه، حيث إنّه

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٢٢٨.

قد يستظهر من سياق الآيات المذكورة أنها بصدد الذم، والذم لا يكون إلّا على صفة اختيارية، فهذا يعني أن الذم ليس على أصل تلك المبادئ بل على امتداداتها التي قد تغدو طبيعة ثانية في الإنسان، مع أنّ بإمكانه أن يصقلها ويخفف من وتيرتها.

ب ـ استعجال الشرّ

ومن جهة أخرى، فإن الإنسان بجهله وتسرعه، نراه يستعجل بطلب الخير قبل أوانه، بل ربما دعا لنفسه بالشر متخيلًا أنّه خير لها، وذلك بسبب التسرع والعجلة في الحكم، وعدم التأني في دراسة الأمور، قال تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ [الإسراء: ١١]. وإلى هذه العجلة عند الإنسان يشير قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [يونس: ١١].

ت ـ الشرّ اختبار وامتحان

وفي الرؤية القرآنية، فإنّ الشر ـ بالمعنى العرفي المشار إليه ـ والخير هما فتنة وابتلاء للناس، بمعنى أنه تعالى يمتحنهم بما يغدق عليهم من نعمه، كما يمتحنهم بما يقعون فيه من آلام ومصائب، قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ويقول سبحانه: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، واختبار الإنسان بالابتلاءات يعدّ مدرسة يصار من خلالها إلى صقل شخصيّته وتربيته وتهذيبه وإظهار مقدراته وطاقاته.

ولا يخفى أنّ دروس الابتلاء التي تواجهنا في رحلة الحياة كثيرة، ولكن قلّ من يعتبر ومن يتنبّه إلى أنّ وقوعه في الابتلاء ينبغي أن يشكل درسًا واعظًا ومنقذًا له من سكرات الغفلة، نعم، إنّ الإنسان في بادئ الأمر عندما يقع في الشر وتنزل به المصيبة يلجأ إلى الله تعالى معلنًا التوبة والندم ومظهرًا الاستعداد للاستقامة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصّلت: ٥١]، والشر هنا بمعنى الضر كما أوضحت آيات أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾ [الزمر: ٨] ولكن ما أن يرتفع ما

به من ضر حتى يعود إلى سيرته الأولى من التمرد والغفلة، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

٢ ـ الشرّ الحقيقي

وكما تطرق القرآن الكريم إلى الشر العرفي، فإنّه أيضًا، تطرق إلى الشر الحقيقي، وهو الذي يكون ظاهرًا وباطنًا في غير صالح الإنسان، ولذا فإنّ الله تعالى يبغضه ويحذر عباده من الوقوع فيه أو الانجراف معه.

أ ـ الشرّ في بُعدَيه العقدي والسلوكي

والشر المذكور على نحوين:

الشرّ العقدي: وعمدته الكفر، والكافر في القرآن الكريم ليس مطلق من لا يؤمن بالله تعالى(١)، بل هو الكافر الجاحد الذي يستر معالم الفطرة في نفسه ويتنكر لوجود الخالق، وهذا يعدّه القرآن الشر الأكبر والأخطر، فالكافر هو شر خلق الله تعالى، ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، والوجه في كونه شر خلق الله تعالى ذلك أنّ من يطفئ نور فطرته، ويجحد بالحق رغم وضوحه وسطوع دلائله فهو لن يتوانى عن فعل شيء، وقد أوضحنا سابقًا أنّ التصورات العقديّة لها ارتباطها العضوي بسلوك الإنسان، وانعكاسها المباشر على حياته الفردية والاجتماعيّة.

الشرّ السلوكي: أعني به عمل الشرّ، وكلُّ عمل فيه ظلم للذات أو عدوان على الغير هو شر عند الله، حتى لو كان يحقق مصالح الشخص ورغباته، ومن هنا فقد وصف يوسف الصديق عليه السلام أخوته بأنّهم شرٌّ مكانًا من أخيهم الذي اتهموه بالسرقة، وذلك بسبب حقدهم وحسدهم وأفعالهم

---

(١) قد أوضحنا ذلك في مجال آخر، راجع: فقه العلاقة مع الآخر المذهبي، ج١، ص٧١.

القبيحة، ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

وقصارى القول: إنّ كلّ ما يوجب سخط الله تقدست آلاؤه ويتسبب في إبعاد الإنسان عن ربه عزّ وجل وعن خط الاستقامة هو شر حقيقي، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ومما يبعث على الأسى والحزن أنّ الإنسان بسبب ميله إلى الدَّعة والرخاء وأنسه بالمغريات، فإنه لا يهتم باجتناب الشرور السلوكية والأخلاقية، بل تراه ينغمس فيها ويقدم على ارتكابها حتى لو كانت من المعاصي الموبقة، وقد يصل أنسه وتعلقه بها إلى حدّ تغيّر الصورة عنده وانقلاب المفاهيم لديه، فيخال الشر خيرًا، والخير شرًا، وذلك من قبيل حسبانه أنّ البخل خير له والجود شر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

ومع الأسف فإنّ حقيقة الحال قد لا تنكشف لكثير من الناس السادرين في غيهم والمنغمسين في شهواتهم إلّا يوم القيامة، يوم تبلى السرائر ويكشف الله الغطاء عن أبصار الناس، فيرى الشخص بوضوح كل ما عمي عن رؤيته في الدنيا، ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ [مريم: ٧٥].

ب ـ الشرّ الحقيقي هو ما كانت نتيجته النار

ومما ذكرنا يتضح أنّ الشر الحقيقي هو ما كانت عاقبته وخاتمته النار، وأما شرور الدنيا ومصائبها فهي مهما كانت عظيمة ومؤلمة تبقى ميسورة وسهلة أمام عذاب النار، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

إنّ النار هي شر مكان ومنزل، ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٤]، ومما يزيد في خباثتها أنّها مسكن وموئل أهل الشر من الطغاة، ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ * جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [ص: ٥٥ ـ ٥٦].

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**مَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَه الْجَنَّةُ ومَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَه النَّارُ**»(١)، وعليه، فالأمور بخواتيمها، ومن الجهل بمكان أن نقصر النظر في الحكم بشرّية عمل أو خيريّته على عالم الدنيا، وإنما يلزمنا أن ندخل في الحسبان عالم الآخرة قبل غيره.

ت ـ الوقاية من شرّ يوم القيامة

ويبيّن القرآن بعض سبل الوقاية من شرور يوم القيامة، ويأتي على رأس ذلك: العمل الصالح، من قبيل مساعدة الفقراء والمساكين، قال تعالى متحدثًا عن أهل البيت عليهم السلام الذين آثروا إطعام المسكين واليتيم والأسير على أنفسهم لا لشيء سوى حب الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

ثانيًا: ما هو مصدر الشرّ في العالم؟

إنّ الوجوه المطروحة حول ما يمكن أن يكون مصدرًا للشر بالمباشرة أو التسبيب هي ثلاثة: الله والإنسان والشيطان، وهذا ما نروم توضيحه في النقاط التالية:

وقبل ذلك لا بأس أن نشير إلى أنه يوجد ـ باعتقادنا ـ مخلوق غير الإنسان والشيطان، وهو على صلة معينة بالإنسان، ولكنه بكل تأكيد ليس مصدرًا للشر، وهذا المخلوق هو الملائكة، فالملائكة ـ كما يستفاد من القرآن الكريم الذي هو مصدر إيماننا بوجودهم ـ لا يمتلكون غريزة تدفعهم

(١) الكافي، ج٨، ص٢٤، ونهج البلاغة، ج٤، ص٩٢، والأمالي للصدوق، ص٤٠٠.

إلى العصيان، وهم مفطورون على الطاعة، ولا يعرفون إلّا الخير، وأمّا صلتهم بالإنسان، فهي صلة نقل وحي السماء إلى الأنبياء والرسل، بالإضافة إلى دورهم التنفيذي في الكثير من المهام، ومنها قبضِ أرواح العباد، ولكن قد يُقال إنّ لهم دورًا في الابتلاءات والمصائب في حياة الإنسان، وسيأتي تفصيل ذلك.

١ ـ علاقة الشر بالله تعالى

أما الحديث عن علاقة الشر بالله تعالى، فهو موضوع مهم للغاية، ويمكننا أن نختصر الكلام بشأنه هنا، (ولنا عودة لاحقة إليه) فنقول: إنّ الله تعالى باعتقادنا هو مصدر الخير ولا يصدر عنه إلّا الخير، وكل أفعاله التي تتجلى في خلق الكون وفي هذا النظام الحاكم على الطبيعة هي خير دليل على كونه مصدر الجمال والخير، فأينما تطلعت الباصرة وامتدت بنا اللامسة لن نجد إلّا الروعة والإحكام والإتقان، وأما ما نجده من نواقص في الكون كالبراكين والسيول والزلازل فهي من لوازم وجود عالم الطبيعة، وبها يحصل تطور الحياة واستمرارها، وقد قيل: «لولا التضاد ما صح دوام الفيض عن المبدأ الجواد»[1].

وبعبارة أخرى: إنّ هذا الكون جارٍ على أساس القوانين وقائم على مبدأ الأسباب والمسببات التي أودعها الله فيه، ولم يجرِ على أساس التدخل الإلهي المباشر. ومن طبيعة هذه القوانين أن يكون لها في بعض الأحيان ضحايا؛ فالشمس التي هي مصدر النور والحرارة والتي لا يمكن العيش بدونها قد تتسبب أشعتها أحيانًا بإصابة طفل أو شيخ بحمى أو مرض وقد يفارقان الحياة. وهذا لا يسمح لنا بالحكم على الشمس بأنها شر، وهكذا الحال في الزلازل والبراكين فإنها تخضع لقوانين من طبيعة هذا النظام الكوني، فعدُّها شرورًا هو سذاجة من القول.

---

(١) أصول فلسفه وروش رئاليسم، للشهيد مطهري، ج٤، ص١٠١.

وبناءً عليه، فما ذهب إليه الثنوية من الاعتقاد بوجود إله آخر، وهو إله الشر لا وجه له، لأنّ الشرور ليست أصيلة في ذاتها لنبحث عن خالقها، وإنما هي من عوارض الوجود، وهي تصدر ممن هو في وجوده خير ولا يصدر عنه إلّا الخير، فليس لها إله آخر غير إله الخير، وبتعبير الفلاسفة: إنّ الشرور أعدام، فلا حاجة إلى استنادها إلى علة مستقلة، وإنما علتها هي نفس علة الخير، باعتبار أنها من عوارض الوجود، وقد تعلقت إرادة الله بالوجود، وهو خير بالذات وعلى نحو الحقيقة، وأما الشرور فقد تعلقت الإرادة بها بالعرض وعلى نحو المجاز لكونها مقارنة مع الوجود.

وبناءً عليه، لا مانع من القول بمقتضى اعتقادنا بالتوحيد الفاعلي: إن كل ما يجري في هذا العالم وما يصدر عن الإنسان نفسه هو صادر عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات ٩٦]. وهذا لا يعني صحة قول الثنوية، ولا يعني أيضًا الالتزام بالجبر في أفعال الإنسان، كما لا يخفى.

٢ ـ الإنسان والشر

وأما الإنسان فهو ـ في الرؤية القرآنية ـ الأساس فيما يحدث من شرّ في هذا العالم، وشريّة الإنسان ليست صفة ذاتية ملازمة له، وإنما هي مكتسبة واختيارية، وبيان ذلك: أنّ خلق الإنسان وإيجاده خير محض، والوجود خير من العدم، وخلقه على أحسن صورة وأفضل هيئة هو خير آخر، وتزويده بالعقل والفطرة هو خير ثالث، وتزويده بالغريزة أيضًا خير رابع، لأنّ الغريزة ضرورية له، وهي في حدّ ذاتها لا تعدّ شرًا، فغريزة الشجاعة ضرورية للإنسان ليدافع بواسطتها عن نفسه، نعم إذا خرجت عن حدّها وغدت تهورًا فهنا يقع المحذور بيد أن الأمر بيده، وهكذا فإنّ غريزة حبّ الذات والتملك هما مصدر خيرٍ للإنسان، ولولاهما لما اندفع إلى الإبداع والتنافس مع الآخرين، أجل، قد تصل هذه الغريزة إلى حدّ الأنانيّة المفرطة، فتصبح وبالًا على صاحبها وعلى غيره، وكذلك الحال في سائر الغرائز.

أ ـ الشر صفة عارضة في الإنسان

وبناء على ما تقدم، يتبيّن أنّ الشّر صفة عارضة في الإنسان، ومردها إلى جموح الغريزة وخروجها عن مسارها، وذلك لا يحصل إلّا بتمكين الإنسان لها من التحكم به، وإذا تحكمت الغريزة بصاحبها فإنها تتغلب على طاقة العقل الفطري الذي منّ به الله تعالى عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الإنفال: ٢٢]، حيث دلّت هذه الآية أنّ سبب هذا التردي هو عدم أخذ الإنسان بما يمليه عليه عقله، وعندها تتعطل مصادر المعرفة لديه، واللافت هنا التعبير عن هذا الإنسان بالدابة، لأنّ ميزة الإنسان عن سائر الحيوانات التي تدبّ على الأرض أنّه عاقل، حتى قيل: الإنسان حيوانٌ عاقل، فإذا جمّد عقله وعطّل طاقات التفكير غدا حاله كحال الدواب التي «همّها علفها وشغلها تقممها»[1]، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه المروية عنه.

إنّ النفس الإنسانيّة قادرة على سلوك طريق الاستقامة وانتهاج طريق الخير، بل هي مهيأة ومعدّة لذلك، ولكنّها تحتاج إلى كبح جماح الغريزة، ومجاهدة الهوى، قال تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۞ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤٠].

وإننا نعتقد جازمين، أنّ الله تعالى لم يقهر الإنسان على فعل الشر، وإنما جعله أقرب إلى الخير، فهو يولد على الفطرة السليمة، وقلبُه كالمرآة الصافية، عن الإمام علي عليه السلام: «**وإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ، مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْه، فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ ـ ويَشْتَغِلَ لُبُّكَ**

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٧٢.

لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ»[١]، ومن هنا أوصى الإمام الصادق عليه السلام بالعناية بالأحداث وتركيز الاهتمام الدعوي عليهم، وذلك لأنهم «**أَسْرَعُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ**»[٢].

ولكنْ في صراع الغريزة والعقل قد يسقط الإنسان أمام الشهوات، فيقع في المعصية بسوء اختياره، دون أن يكون مكرهًا على ذلك، فالمعصية من صنع الإنسان وليست من صنع الله تعالى. جاء في الخبر عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «خرج أبو حنيفة ذات يوم من عند الصادق عليه السلام فاستقبله موسى ابن جعفر عليهما السلام فقال له: يا غلام ممن المعصية؟ قال: لا تخلو من ثلاث، إما أن تكون من الله تعالى وليست منه ولا ينبغي للكريم ان يعذب عبده بما لا يكتسبه وإما أن تكون من الله عز وجل ومن العبد فلا ينبغي للشريك القوي أن يظلم الشريك الضعيف وإما أن تكون من العبد وهي منه، فإنْ عاقبه الله تعالى فبذنبه»[٣].

إذن، المعاصي والشرور هي من فعل الإنسان، ولذا استحق المؤاخذة والإدانة، لأنّه كائن مختار وقادر على اجتنابها وعلى لزوم واتباع طريق الاستقامة. والله تعالى وإن كان بإمكانه أن يحول دون وقوع هذه الشرور، لكن هذا خلاف الحكمة في خلق الإنسان كائنًا حرًا، إذ حينها سيغدو حاله الإنسان كحال الملائكة الذين لا يعرفون إلّا الطاعة والانقياد، وفي هذه الحال لا يبقى موجب لخلق الإنسان، بل سيكون صنفًا من الملائكة.

إنّ الحكمة في خلق هذا الكائن الذي قد يختار سبيل الخير وقد يختار سبيل الشر هو تمكينه وتهيئته ليعمر هذه الحياة باختياره ويضبط بإرادته دوافع الشر في نفسه أو في غيره وبذلك يسمو إلى الله تعالى. وفي ضوء ذلك، فما

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٤٠.

(٢) الكافي، ج٨، ص٩٣.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١، ص١٢٦، والتوحيد، ص٩٦. وراوه المرتضى في الأمالي، ج١، ص١٠٥. والاحتجاج للطبرسي، ج٢، ص١٥٩.

يصدر عن الإنسان من شرور هي مسؤوليته لأنه ليس مجبرًا على فعلها وبإمكانه أن يتلافاها.

ب ـ لماذا خلق الله الإنسان الذي يصدر منه الشر؟

والإشكال حول خلق الإنسان الذي من الممكن أن يصدر منه الشرّ مطروح في القرآن الكريم في أول صيغة له على لسان الملائكة، حيث إنهم وبعد أنْ أعلمهم الله تعالى أنّه سيجعل في الأرض خليفة، اندفعوا للاعتراض على ذلك بأنّ هذا المخلوق سوف يفسد في الأرض ويسفك الدم، وبالتالي فهو ليس أهلًا ليكون خليفة لك على الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

إنّ هذه الآية تقرر أنّ الله تعالى أعلم ملائكته أنه بصدد جعل خليفة على الأرض وهو آدم وذريته، والمقصود بكونه خليفة أنّه خليفة لله تعالى، لا أنّ كل جيل من البشر يخلف الآخر كما قد يذكر، ومما يشهد لكونه خليفة لله تعالى هو استغراب الملائكة من جعل خليفة في الأرض يفسد في الأرض ويسفك الدماء والحال أنّ الملائكة يسبحون بحمده ويقدسون له؟! فهذا يناسب كونه خليفة لله تعالى. ثمّ إنّ كلام الملائكة المشار إليه يحمل في ثناياه وجود اعتقاد عندهم أنّ غاية الخلق هو أن يعبد المخلوقُ خالقه. ولكن كيف عرف الملائكة أنّ الإنسان سيُفسد في الأرض؟ والجواب إنّ مردّ ذلك إمّا إلى معرفتهم بطبيعة خلق الإنسان وما تستدعيه، وإمّا إلى أنه تعالى قد أعلمهم بذلك، وإما إلى أنهم عرفوا ذلك من تجربة جيل بشري سابق، وكيف كان، فالله تعالى لم ينف انطباع الملائكة المذكور حول ما سيفعله الخليفة على الأرض، ولكنه أكدّ لهم أنّ ثمة ما يجهلونه عن هذا الإنسان الخليفة، ولذا أتاهم الجواب الأولي مجملًا: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. ثمّ بدأت الحقيقة بالتكشف أمامهم شيئًا فشيئًا، حيث بدأ الله

تعالى بتعليم آدم الأسماء، وذلك من خلال ما زوده به من قدرة على التعلم والتعرف، ما يعني أنّ تعليم الأسماء ليس مجرد معرفة المصطلحات والألفاظ فحسب، بل هو كناية عن فهم حقيقة الأشياء ومعرفة معانيها، وهذا يدلل على إعطاء الإنسان القدرة على الفهم والاكتشاف، ثمّ وفي مرحلة ثانية توجه الله تعالى إلى الملائكة بالسؤال عن هذه الأشياء التي تعلمها آدم، فعجزوا عن الجواب وبان جهلهم، قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ ـ ٣٢]، وعندها طلب الله إلى آدم أن يخبرهم بأسمائهم ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، فقد دلّت «هذه الآية على أنّ للعلم ومعطياته مكانة عظمى عند الله وملائكته، لأنه سبحانه قد برر خلق الإنسان بقابليته للعلم والمعرفة.. وحين أطلع الملائكة على ذلك اعتذروا قائلين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ﴾ [البقرة: ٣٢]»(١). إنّ تزويد الخليفة بالعلم هو أساس قيامه بمهمة الخلافة على أتم ما يرام.

وسوف نتوسع في الحديث عن فلسفة خلق الإنسان في المحور الآتي فلاحظ.

ت ـ قصة الشر / الجريمة الأولى

وقد عرض القرآن الكريم لقضية القتل الأولى على وجه البسيطة، وهي قصة ابني آدم، قابيل وهابيل، حيث إنّ كل واحد منهما قدم قرباناً فتقبل الله قربان هابيل دون قربان أخيه قابيل، فثارت نار الحسد في نفس قابيل، وتوعد أخاه بالقتل، ثمّ أقدم على ارتكاب الجريمة الفظيعة، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ

(١) تفسير الكاشف، ج١، ص٨١.

لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

إنّ المتأمل في هذه الآيات يتضح له أنّ الذي يقف وراء هذه الجريمة النكراء هو الحسد الذي كان يعتمل في صدر قابيل اتجاه أخيه(١)، وأنه أقدم بكامل وعيه واختياره على قتل أخيه، ولم يُفرض عليه ذلك من أحد، فانظر إلى قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٠]، فنفس قابيل إذًا هي التي سوّلت له الإقدام على قتل أخيه ولم يكن مجبرًا على ذلك.

ولربما يقال: إنّ الذي دفع قابيل وجرّأه على قتل أخيه هو تقبل الله قربان أخيه دون قربانه، الأمر الذي أثار حنقه وحسده على أخيه، ومن ثم أقدم على ارتكاب جريمة القتل.

ولكننا نقول: إنّ الآيات قد أوضحت أنّ السبب لعدم تقبل قربان قابيل، يعود إلى قابيل نفسه، وهو أنّه لم يكن من أهل التقوى، والله تعالى إنما يقبل الطاعة ممن كان زاكي القلب متقٍ، وقد أوضح هابيل هذا الأمر لأخيه: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فكأن هابيل يقول لقابيل: إنك «إنما أوتيت من قبل نفسك لانسلاخك من لباس التقوى لا من قبلي فلِمَ تقتلني؟!»(٢)، ومع ذلك، أصرّ قابيل على عمليّة القتل النكراء! ليكون هابيل أول دم سُفك على الأرض بغير حق.

---

(١) وقد قيل في تفسير هذا الحسد: «أوحى الله تعالى إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما توأمة الآخر، وكانت توأمة قابيل أجمل، فحسد عليها أخاه، فأبى ذلك، فقال لهما آدم: قربا قربانا فمن أيكما قبل أزوجها، فقبل قربان هابيل بأن نزلت نار فأكلته، فازداد قابيل حسدا وسخطا وتوعده بالقتل»، تفسير جوامع الجامع، ج١، ص٤٩٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٩٢.

وقد أراد الله تعالى لهذه القصة أن تكون درسًا عظيمًا لبني آدم عليه السلام، وعبرة ماثلة أمام أعينهم، ومفادها أنّ الغل والحسد والأنانية هي منشأ الشرور الإنسانية وقد تدفع بالشخص إلى قتل أقرب الناس إليه وعندها يبوء بالخسران المبين.

وقد تقول: أليس الله تعالى من أودع في قابيل غريزة الحسد، وبالتالي فما أقدم عليه من القتل كان بسبب خلقه على هذه الشاكلة وما أودع فيه من غرائز.

ولكننا نقول: إنّ هذه الغريزة موجودة عند قابيل وهابيل معًا، ولكنّ الفرق بينهما أنّ قابيل سمح لها أن تقوده وتسيطر عليه، بينما قابيل عمل على ترويض نفسه بتقوى الله، ولم يسمح للغريزة أن تقوده، لذلك نجده ـ ومع قدرته على القتل ـ امتنع عنه من تلقاء نفسه ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، ومن هنا فعلى الإنسان أن لا يسمح لغريزة الحسد أو الشهوة أو غيرها أن تفقده توازنه وتقتل روح الإنسانية فيه، ولا سبيل أمامه إلّا أن يعمل على تطهير النفس وتزكيتها من أغلال الأنا وآصار النفس الأمارة بالسوء، وصولًا إلى الاستقرار النفسي والاجتماعي ومرضاة الله تعالى.

٣ ـ الشيطان ودوره في الشرّ

ويبقى السؤال عن دور الشيطان في الشر؟ وعن السبب في خلق الله تعالى كائنًا هو تجسيد للشر ويسعى في إغواء الخلق بما يساهم في نشر الشر والرذيلة في العالم، كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، فما السرّ في خلق الشيطان، وتسليطه على الإنسان؟

أ ـ من هو الشيطان؟

الشيطان ـ بحسب نص القرآن ـ مخلوق من جنس الجن، ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، وليس من الملائكة، ولو كان ملكًا لما عصى الله أبدًا. والجنّ هو من نوع الكائنات غير المرئية ولا نعرف

عنهم إلّا ما عرفنا الله تعالى، وحالهم كحال الإنس في أنّهم مختارون، ومكلفون، وأنّ فيهم الصالحين والطالحين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]، والصالحون لهم ثواب عند ربهم، وأما الطالحون فهم من أهل النار ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، وسبب انحرافهم هو السبب عينه في انحراف الإنس، والمتمثل بعصيانهم لله، ما يؤدي إلى تعطيل مصادر المعرفة والهداية التي أنعم الله بها عليهم، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الخلق العاقل في القرآن ثلاثة أنواع: الإنس والجن والملائكة، والإنس والجن يشتركان في أنّ لديهم اختيارًا وقدرة على الطاعة والمعصية، بينما الملائكة منزهون عن المعصية، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ب ـ خلق الشيطان كان خيرًا

وبناءً على ما ذكرناه، من أنّ الشيطان هو واحد من الجن المختارين الذين زودهم الله تعالى بإمكانية الهداية وهيأ لهم طريق التكامل، يكون خلقه خيرًا، وليس شرًا. ولا سيما أنه قد كان مؤمنًا عابدًا ولديه قابليّة للإيمان والهدى، أجل، بسبب تكبره على الله تعالى، فقد أحبط عمله، عن أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة القاصعة: «**فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ الله بِإِبْلِيسَ، إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَه الطَّوِيلَ وجَهْدَه الْجَهِيدَ، وكَانَ قَدْ عَبَدَ الله سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ، لَا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ، عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ**»(١).

وقد تسأل: هل يمكن أن يتوب الشيطان ويعود إلى الله تعالى؟ ويغفر له الله تعالى كما يغفر لسائر التوابين؟

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص١٣٨.

والجواب:

أولا: من الناحية العقلية، ليس ثمة ما يمنع من توبة الشيطان، لا من جهة الله سبحانه، وهو التوّاب الرحيم الذي لا يسد باب التوبة على أحد من خلقه، ولا من جهة الشيطان نفسه. فإنه ورغم كل أعماله التي أضل بها العباد، يظل كائنًا مختارًا وقادرًا على أن يعود إلى ربه، ويستغفره من كل ما جنت يداه.

ثانيًا: أما من جهة النصوص الدينية، فيواجهنا قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥] وقوله تقدست آلاؤه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، وإنّ هاتين الآيتين قد توحيان باستمرار الشيطان في غيّه وتمرده إلى يوم القيامة، وإلّا فلا موجب لاستمرار اللعنة الإلهية عليه إلى يوم الدين؛ ومن تلحقه اللعنة الإلهية إلى يوم الدين، لا يكون عنده قابلية أو استعداد للتوبة.

اللهم إلّا أن يُقال: إنّ ظهور الآيتين في استمرار اللعنة عليه إلى يوم الدين مقيدٌ بعدم توبته، فحالهما كحال سائر آيات الوعيد التي تنذر بالعذاب حيث لا بد من تقييدها بعدم التوبة، فتكون النتيجة: إنّ لعنتي مستمرة عليك إلى يوم الدين ما لم تتب وترجع عن غيّك. والله العالم.

ت ـ دور الشيطان في الشرّ

إن ما يفعله الشيطان في نطاقه الخاص وفي دائرة الجن، لا يعنينا كثيرًا في المقام. نعم، هو بالتأكيد مسؤول عن تصرفاته وسوف يحاسبه الله عليها يوم القيامة، وأما دوره في التأثير على الإنسان، فهو ما يعنينا فعلًا، ويمكن توضيحه من خلال النقاط التالية:

الأولى: عداوة الشيطان للإنسان

يقرر القرآن الكريم أن الشيطان عدو للإنسان، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] وقال سبحانه على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ

لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥]، وقال عز وجل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣]، ومنشأ هذه العداوة هو الحسد والتكبر، فقد اختار الله الإنسان ليكون خليفته على الأرض، وأمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود له، فاستجاب الملائكة وسجدوا لآدم، وأبى إبليس وتكبر متعللًا بأنه خير منه، فقد خلقه الله من نار وخلق آدم من طين، والنار أفضل من الطين، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۞ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٤ ـ ٧٦].

الثانية: نستطيع الانتصار على الشيطان

ويستفاد بوضوح من آيات الكتاب أن الشيطان لا يستطيع إجبار الإنسان على فعل الشر، وإنما ينحصر دوره بالتزيين والوسوسة، كما عبرت الآية: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، ولا سلطة له على الإنسان ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [ابراهيم: ٢٢].

إنّ للشيطان وظيفة واحدة وأساسية جند نفسه لها منذ أن طرده الله من الجنة فطلب من ربه إمهاله إلى يوم القيامة ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] واستجاب له الله طلبه: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ ـ ٣٨]، والوظيفة المشار إليها هي إغواء الإنسان، قال تعالى على لسان الشيطان: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]، والتزيين هو غاية ما يمتلكه الشيطان، دون أن يكون له سلطة على الإنسان، بما يفقده اختياره وإرادته، قال تعالى حكاية عن لسان الشيطان وهو يدافع عن نفسه يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِىۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ومن هنا، ولأن الشيطان لا سلطة له علينا فقد وصف الله تعالى كيد الشيطان بالضعف، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

وفي ضوء ذلك، فلا يكون في خلق الشيطان أو تمكينه من أن يوسوس للإنسان، أي ظلم لنا، لأنّ وسوسته لا تتجاوز حدّ الإغواء دون أن تصل إلى مستوى يفقدنا الاختيار، بحيث يصبح له سلطنة علينا. أجل، إننا نحن من نجعل للشيطان سلطنةً علينا عندما نتبع خطواته ونتولاه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وكلّما أوغل العبد في البعد عن طاعة الله زاد الشيطانَ تمكينًا من نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

الثالثة: الوسوسة للذكر والأنثى

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم يؤكد على أنّ قدرة الشيطان على الوسوسة لا تختص بالمرأة ولا تنحصر بها، فالرجل قد يقع فريسة الشيطان أيضًا، وثمة رفض في القرآن الكريم لفكرة أنّ حواء هي أصل الغواية، وأنّ الشيطان اتخذها وسيلة لإضلال آدم، فهذه الفكرة ذات أصل توراتي(١) وهي مرفوضة قرآنيًا، فالشيطان ـ وفقًا لما نصّت عليه الآيات الكريمة ـ قد وسوس للاثنين (آدم وحواء) معًا، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، والاثنان معًا انساقا مع تلك الوسوسة الشيطانية ووقعا ضحاياها وسقطا في حبالها، قال تعالى في مورد آخر: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، بل نقرأ في آية أخرى من آيات الكتاب أنّ الشيطان وسوس لآدم، دون ذكر لحواء أصلًا، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ

(١) كما أوضحنا ذلك في كتاب «المرأة في النص الديني»، ص٥٣.

أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. وعن الإمام عليه السلام: «ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَه آدَمَ دَارًا أَرْغَدَ فِيهَا، عَيْشَه وآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَه وحَذَّرَه إِبْلِيسَ وعَدَاوَتَه، فَاغْتَرَّه عَدُوُّه نَفَاسَةً عَلَيْه بِدَارِ الْمُقَامِ، ومُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّه والْعَزِيمَةَ بِوَهْنِه، واسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا وبِالِاغْتِرَارِ نَدَمًا، ثُمَّ بَسَطَ اللهُ»[١].

ث ـ رسول الداخل والخارج

وعلى الرغم من أنّ إرادة الإنسان وحرية اختياره ووعيه بمآل الأمور وعواقبها كفيلة بقهر الشيطان، فإنّ الله تعالى بمنه ولطفه لم يكتف بذلك، بل جعل الشيطان هو العنصر الوحيد في حلبة الصراع مع الإنسان، وزود سبحانه الإنسانَ ـ بالإضافة إلى قوة الإرادة والعقل السليم الذي يبصره بعواقب الأمور ويميز بواسطته بين القبيح والحسن والخير والشر ـ بهداية داخلية وفطرة سوية، وهي ما عبّر عنه قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وهذه الهداية كفيلة بأن تعصمه عن الوقوع في شرك الشيطان وتأخذ بيده إلى الطريق السوي، وفوق ذلك كله فقد زوده بهداية خارجية وهم الرسل والأنبياء عليهم السلام الذين حذروه من اتباع الشيطان، ووضعوا له خارطة الطريق الموصلة له إلى أقصى درجات الكمال المعنوي. وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه إلى هذه الأنواع المختلفة من الهداية الربانية، قال: «وَاصْطَفى سُبْحَانَهُ مِنْ وُلْدِهِ (آدم) أَنْبيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِيثَاقَهُمْ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَانَتَهُمْ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرُ خَلْقِهِ عَهْدَ اللهِ إِلَيْهِمْ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ، واتَّخَذُوا الأَنْدَادَ مَعَهُ، وَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ، وَاقتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بَالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ»[٢]، وعلى ضوء ذلك فلا يبقى

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٢٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٣.

للإنسان أي حجة في اتباع الشيطان، بل لله الحجة البالغة علينا. قال عزّ وجـــلّ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ج ـ التحذير الإلهي من الشيطان

ثم إنّ الله تعالى لم يتركنا غافلين عما يريد الشيطان بنا وما يكيده لنا، وإنما أوضح لنا عداوة الشيطان وكشف خططه وأحابيله، وحذرنا من اتباع خطواته، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، إنّ هذه الآية تقول لنا إن الشيطان سعى في إخراج أبويكم من الجنة وهو يجند نفسه لمنع عودتكم المظفرة إليها، فاحذروه، واستعيذوا بالله تعالى منه، وطَلَبُ الاستعاذة من شر الوسواس الخناس، جاء التأكيد عليه في العديد من الآيات المباركات، منها قوله تعالى في سورة الناس: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ * ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦]، وعلينا التنبيه هنا إلى أنّ الاستعاذة من الشيطان ليست مجرد كلمات نرددها بألسنتنا، وإنما هي لجوء إلى الله تعالى واعتصام بحبله وسير على هدي تعاليمه.

والاستعاذة بالله تعالى والمتمثلة باللجوء إليه والأخذ بالمنهج الذي جاء في كتابه حول تربية النفس وتهذيبها، سوف لن تساعد الإنسان في الانتصار على الشيطان فحسب، بل سوف تساعده في الانتصار على النفس الأمارة بالسوء، وسوف تمنحه إرادة وعزيمة، يتغلب بها على كل الشرور على اختلافها، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

د ـ الحكمة من تمكين الشيطان من الوسوسة

وقد تسأل: ما الحكمة في إعطاء الشيطان هذه القدرة على التزيين والوسوسة للإنسان؟

والجواب: لعلّ الحكمة من إعطاء الشيطان دور الوسوسة هي:

أولًا: تعميق قضيّة اختيار الإنسان وتوكيد مسألة امتحانه وابتلائه ليكون الامتحان جدّيًّا لا شكليًّا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١]. وبذلك يكون طريق التكامل محتاجًا إلى مصابرة ومجاهدة مستمرة، لأن العلى لا تنال بالمجان.

ثانيًا: إيجاد نوع من التوازن بين مقتضيات الهداية ومقتضيات الضلالة، فإذا كانت دوافع الهدى تتمثل بنداء من الداخل وهو العقل والفطرة والنفس اللوامة ونداءٍ من خارج النفس، فإن طريق الضلالة أيضًا لها دافع داخلي وهو النفس الأمارة بالسوء، وآخر خارجي وهو شياطين الجن والإنسان.

هـ ـ هل ظلم الله الشيطان؟

وإذا كان البعض يرى أن في تسليط الشيطان على الوسوسة للإنسان نوعَ ظلم للإنسان، (وقد عرفت بطلان هذا الزعم)، فإنّ البعض الآخر في المقابل قد انتصر للشيطان، معتبرًا أن الله تعالى قد ظلمه عندما أمره بالسجود لآدم، وأنّ امتناعه عن السجود له كان تعبيرًا عن توحيده الخالص لله تعالى، إذ لم يشأ أن يشرك مع الله أحدًا في السجود له!

وجواب ذلك يكون بمعرفة المغزى الحقيقي لسجود الملائكة لآدم مما أمرهم الله تعالى به في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. والحقيقة أنّ سجود الملائكة لآدم هو في الواقع سجودٌ لله تعالى الذي أمرهم بذلك، فمن أطاع شخصًا أمره الله بإطاعته فقد أطاع الله، ومن سجد امتثالًا لأمر الله تعالى فقد سجد لله، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام أن زنديقًا قال له: «أفيصلح السجود لغير الله؟

قال: **لا**. قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟ قال: **إنّ من سجد بأمر الله، سجد لله، إذا كان عن أمر الله**»(١). ولذا لا يصح كلام البعض عن أن إبليس كان موحدًا، لأنه رفض السجود لغير الله، فضلًا عن دعوى أنّه كان شيخَ الموحدين! لأن السؤال الذي يواجه هذا اللون من التفكير: أيعقل أن يكون الإنسان موحدًا لله تعالى بعصيانه والتمرد عليه؟!

ثمّ إن البعض يريد أن يكون محامي الشيطان بما يجعله أشدَّ مهارة من الشيطان نفسه، وذلك أنّ إبليس لم يمتنع عن السجود لآدم لأنّه كان موحدًا لله أو لأنّ السجود بنظره ينافي التوحيد، كلا، بل إنما امتنع عن السجود، لأنه ـ أعني الشيطان ـ اعتبر أنّه خير من آدم، فآدم خُلِق من تراب وهو خُلِق من نار، فالدافع لترك السجود ليس تنزيه الله تعالى، وإنما هو تكبره على آدم، كما أسلفنا. وعليه، يكون إبليس قد جنى على نفسه، وإن تمرده هذا على الله سبحانه وإباءه عن السجود لآدم يكشف أنّ عباداته السابقة لم تؤت أكلها في تطهير النفس من الأنا، لتكون هذه النفس منقادة لله ومحبة لما يحبه الله تعالى.

٤ ـ ما هي وظائف الملائكة؟

أ ـ من هم الملائكة؟

يرد اسم الملائكة في العديد من الآيات القرآنية، وهم خلق عظيم له مكانته عند الله تعالى، ولهذا فإنه يقسم بهم، ومعلوم أنّ الله سبحانه عندما يقسم بكائن أو مخلوق فللدلالة على أهميته عنده، فيقول ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥] جاء ذلك في سورة النازعات ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥]. وربما أراد من قسمه إلفات نظرنا إلى فوائد المُقْسَم به، مثل قسمه بالتين والزيتون.

ومن مزايا الملائكة أنهم مفطورون على الطاعة لله وتنفيذ أوامره دون

---

(١) الاحتجاج، ج٢، ص٨١.

تردد أو اعتراض، قال الله جل وعلا: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

وفي آية أخرى تشير إلى عبادتهم لله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

ب ـ وظائفهم وأدوارهم

ما هو عمل الملائكة والمهام المناطة بهم؟

لقد ذكر في القرآن الكريم عدة وظائف ومهام للملائكة، بعضها وظائف لهم في دار الدنيا، وبعضها وظائف لها في الدار الآخرة، وإليك أهمها:

أولًا: النزول بالوحي وإبلاغ رسالات السماء إلى الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وفي آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]، وفي آية أخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فاطر: ١].

ثانيًا: والوظيفة الثانية للملائكة هي الاستغفار للعباد، قال سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]. وهذه الآية دلت على استغفارهم لكافة من في الأرض، لكن في آية أخرى ثمّة ما يشير إلى أنّهم يستغفرون للمؤمنين، **قال تعالى**: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[غافر ٧ ـ ٩]، والظاهر أنّ الذين يستغفرون للمؤمنين هم طائفة خاصة من الملائكة، وهم الملائكة الموكلون بحمل العرش.

ثالثًا: الترحيب بأهل الجنة والتسليم عليهم، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣ ـ ٢٤].

رابعًا: وثمة صنف من الملائكة موكلون بتعذيب أهل النار، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٢٧ ـ ٣١].

خامسًا: كتابة أعمال العباد، وإحصاء سيئاتهم وحسناتهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨]. قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار ١٠ ـ ١٢] وقال عزّ وجلّ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

سادسًا: الشهادة على أعمال العباد يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ * وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٠ ـ ٢٢].

وجاء في دعاء كميل: «الهي وسيدي فأسألك بالقدرة التي قدرتها... أن تهب لي في هذه الليلة.. كل جرم أجرمته وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني وجعلتهم شهودًا عليّ مع جوارحي وكنت أنت الرقيب علي من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم وبرحمتك أخفيته وبفضلك سترته..»[1].

(١) مصباح المتهجد، ص٨٤٩.

سابعًا: ومن أبرز المهام التي أنيطت بهم: قبض الأرواح، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

وعندما يقبض ملك الموت روح المؤمن فإنه يسلم عليه، ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢].

كما أنّ الملائكة يبشِّرون المؤمنين بالجنة عند الموت، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۞ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢]. فإنّ نزول الملائكة على المؤمنين المستقيمين يتم أثناء الموت والانتقال إلى عالم الآخرة كما يحتمل البعض وتدل عليه بعض الروايات. ويرى بعض آخر أنّ نزولهم يكون في ثلاثة مواطن عند الموت وعند دخول القبر وعند البعث والنشور. ويرى ثالث أنه لا داعي لتخصيصها بهذه المواطن بل يمكن أن تكون هذه البشائر مستمرة وأنها حاصلة حتى في الحياة الدنيا، كما يشهد قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [فصّلت: ٣١] ولكن نزول الملك لا يكون برؤيته وسماعه بل بالإلهام المعنوي.

ثامنًا: وثمة مهمة أخرى يبدو من القرآن الكريم أنّها موكلة إلى الملائكة، وهي مهمة القيام ببعض الأمور التكوينية، ومنها، ما تقدمت الإشارة الإجماليّة إليه في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، أو هبة الروح، كما في قوله تعالى في قصة انعقاد نطفة نبي الله عيسى عليه السلام في رحم أمه السيدة مريم عليها السلام، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا... إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ ـ ١٩]. هذا مع أن القرآن الكريم

يضيف عملية نفخ الروح بشكل عام إلى الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. وهذه المهمة التكوينية قد وقعت موردًا للبحث..

وقد سألني أحدهم: هل صحيح أنّ الملائكة مكلفون بتحريك الرياح وإنزال المطر، مع أن البحوث العلميّة تشير إلى أسباب ذلك من قبيل التفاوت في درجات الحرارة، أو الضغط الجوي؟

وكان الجواب: إنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو نسبة هذه الأمور إلى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الرّوم: ٤٨]، وكذا الحال في إنزال المطر ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]. وهناك آية قرآنية تجمع بين إنزال المار وتحريك الرياح معا، وتنسبهما إلى الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

ونسبة الأمور التكوينية إلى الله تعالى لا تنافي أنها تعتمد على أسباب مباشرة من قبيل التفاوت في درجات الحرارة أو الضغط الجوي، فإنّ الله بما أنه مسبب هذه القوانين، فهو ينسب الأشياء والأفعال إليه بهذا الاعتبار بشكل مباشر.

نعم قد ورد في طائفة أخرى من الآيات ما استفاد منه البعض أن للملائكة دورًا في حركة الأحداث الكونيّة، وهذه الآيات هي ـ بالإضافة إلى ما أشرنا إليه ـ ما جاء في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۞ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ [المرسلات: ٢ ـ ٣] ، فقد فسرها البعض بالملائكة وأنها تقوم بدور إرسال الرياح، وهذا التفسير لو صح مساعدة الظاهر عليه، أو تمّ تأكيده من خلال النصوص الروائية الواردة في هذا المجال فلا مانع من الأخذ به، وليس من الصعب عندها الجمع بين الطائفتين المذكورتين، وذلك بالقول إن الطائفة الثانية بحديثها عن دور الملائكة لا تنافي ما دلّ

على صدور هذه الأفعال من الله تعالى، لأنّ الملائكة هم يده ويتحركون بأمره، ففعلهم هو فعله، تمامًا كما تمّ التوفيق بين نسبة الإماتة في القرآن إلى الملائكة وإلى الله تعالى أيضًا. لكن العمدة في استظهار هذا المعنى من الطائفة المذكورة أو نهوض دليل آخر عليه، أما استظهاره من الآيات فهو تام على نحو الموجبة الجزئية، لكن لا يستفاد منه قاعدة عامة في أن كل الأحداث الجارية في الكون قد أوكل بها بعض الملائكة، ولا سيما الآية الأخيرة التي تتحدث عن دور الملائكة في إرسال الرياح فهي محل إشكال في دلالتها، إذ ثمة وجه آخر في تفسيرها، وهو يرى أنّ المقصود من الناشرات هي الرياح نفسها، ولا ينكر أحدٌ دور الرياح في مسألة المطر، أما الأخبار التي ورد فيها نسبة هذه الأفعال إلى الملائكة، فلو صحت سندًا، وأمكن الوثوق بصدورها فلا ما مانع من الالتزام بمفادها، وطبيعي أنّ الأخذ بها لا يتنافى مع وجود علل تكوينية لهذه الظواهر، إما بحمل الملائكة على معنى رمزي للدلالة على هذه العلل التكوينية، أو أن يُقال بأن ثمة ملكًا يقف وراء هذه الظاهرة بأجمعها في أسبابها ومسبباتها أو أنّ له دورًا ما على هذا الصعيد ما برر نسبة الفعل إليه في الروايات. والتفصيل في ذلك موكول إلى محله.

ت ـ كيف نفهم هذا الوظائف؟

من خلال ما تقدم تبين أنّ الملائكة هم الجهاز التنفيذي والإداري لله سبحانه وتعالى في إنفاذ الكثير من المهام[1]، ولكن السؤال الذي يواجهنا هنا: هل يحتاج ربنا إلى جهاز تنفيذي، فالرئيس من بني الإنسان يحتاج إلى جهاز إداري تنفيذي يعاونه لضعفه وعدم قدرته على القيام بكل الأمور، ولكن الله قادر على كل شيء وهو غني عن العالمين، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فلماذا إذن خلق الملائكة وأوكل إليها المهام؟

---

(١) على حد تعبير السيد موسى الصدر، انظر: مسيرة الإمام، ج١١، ص٤٦.

والجواب من جهتين:

أولًا: إنّ الله سبحانه ومع اقتداره عل مباشرة خلق الأشياء، وعدم حاجته للواسطة خلافًا لما يراه أصحاب نظرية الوسائط في الخلق[١]، قد شاءت حكمته وجرت سنته على اعتماد الوسائط، وأراد لكل أحداث عالم الإمكان أن تجري وفق قانون العلية (الأسباب والمسببات)، فجعل لكل شيء سببًا، بذلك جرت سنته، فالنار لا تشتعل بأمره المباشر بل بسبب معين، وهو إشعال الكبريت مثلًا، ولا بدّ أيضًا من فقد المانع بأن لا تكون الورقة مبتلة بالمياه، ولا بد أيضًا من توفر الشرط وهو اقتراب الورقة من النار، وهكذا هطول المطر فهو لم يحصل بأمره المباشر، بل إنّ له أسبابه من تجمع الغيوم ثم التقاء تيار بارد مع آخر حار.. إلى غير ذلك، ولتكن أحد العناصر التي قدر الله جل جلاله أن تكون سببًا لوجود بعض المسببات والأحداث هي الملائكة، فإيكال قبض الأرواح إلى الملائكة هو جري مع هذا النظام العلِّي. وعليه، فالإيمان بالملائكة ينبغي أن يشعرنا أنّ الله سبحانه وتعالى حاضر من خلال نظامه وأياديه ليس في خلق الكون فحسب، بل وفي كل تفاعلات هذا الكون وظواهره وأحداثه وفي كل صغيرة وكبيرة فيه، وليست يده مغلولة كما قال بعض المفوضة.

ثانيًا: قد عرفنا أنّ أحد مهام الملائكة الاستغفار للمؤمنين وهذا في الواقع باب من أبواب الرحمة الإلهية بعباده، وهكذا الحال في قيامهم بالترحيب بالمؤمنين والسلام عليهم في الجنة. ومن جهة أخرى، فإنّ خلق الملائكة وأمره بالسجود للإنسان يبين عظمة الإنسان ودوره في هذه الحياة، وهذا يحملّه مسؤولية عظيمة، حتى لا يعيش مجرد الانتفاخ والغرور بنفسه.

---

(١) كتاب الشيعة والغلو (تحت الطباعة).

المحور الخامس
فلسفة خلق الإنسان في الرؤية القرآنية

١ ـ خلق الإنسان في رؤية العرفاء والفلاسفة

٢ ـ القرآن وفلسفة خلق الإنسان

٣ ـ لماذا خلق الله الكافر؟

٤ ـ هل يناسب ذلك رحمته؟

٥ ـ ماذا لو لم يقتنع الإنسان بالأجوبة؟

إنّ سؤال: «لماذا خلقنا الله؟» هو سؤال قديم جديد، وبعض الناس يطرحه على نفسه كسؤال داخلي، وبعضهم يطرحه على غيره، طلبًا للإجابة، ومن الملح جدًا للباحث عن عدل الله تعالى والذي يبغي معرفة الإجابة على إشكالية الشرور أن يقدم إجابة على هذا السؤال، فمعرفتك بفلسفة خلقك كإنسان تتقدم على معرفتك بما تواجهه من شرور ومصاعب.

وفيما يلي نحاول تقديم إجابة مختصرة على التساؤل المذكور، وعسى أن تكون نافعة، آخذين بنظر الاعتبار براءة السؤال، حتى مع علمنا أن البعض ربما طرحه اعتراضًا لا استفهامًا، لكننا نتعامل مع الأمر باعتبار أنه سؤال طبيعي وهو يلح على كل عاقل أطلق لنفسه حرية التفكّر في أمر الخلق، ولذا ينبغي أن لا يستفزنا طرح هذا السؤال، بل من المفترض أن لا نتخوف من الأسئلة كافة، أكانت ترد على خاطرنا كأسئلة داخلية، أو

يطرحها الآخرون علينا، فمن دون السؤال لن نعرف الجواب، ومن دون الشك لن نصل إلى ساحل اليقين، ولن نُحكم بناءنا العقدي.

وينبغي أنّ لا يتوهم أحدٌ أنّ هذه الأسئلة تتنافى والايمان، لا سيما أنها أسئلة ترد على كل خاطر، وقد سئل النبي ﷺ عمن خلق الله تعالى، فلم يستفزه السؤال ولم ينهر السائل، بل أجابه مطمئنًا، وقال: إنّ ذلك محض الإيمان[1]، أجل، إنّ علينا أن لا نستسلم لهذه الأسئلة بل لا بد من متابعتها بالبحث.

١ ـ خلق الإنسان في رؤية العرفاء والفلاسفة

قبل أن ندخل في بيان الأطروحة القرآنية حول فلسفة الخلق، لا بأس أن نشير إلى بعض النظريات التي وردت في كلمات الفلاسفة والعرفاء الذين قاربوا فلسفة الخلق على طريقتهم، حيث تبرز أمامنا نظريتان:

أ ـ النظريّة العرفانيّة التي تقول: إنّ الله تعالى إنما خلق الخلق جميعًا أكانوا من الإنس أو الجن أو الملائكة، لأنّه سبحانه أهل الفيض المطلق والخير المحض وأهل الجود والكرم، ولا بخل على الإطلاق في ساحته، فليس وراء جوده غاية ولا خلف فيضه علة، ولتقريب الفكرة نقول: أرأيتم لو أنّ إنسانا كريمًا قد أصبح الكرم طبعًا وسجية له، إنّ مثل هذا الإنسان لا يُسأل عن سبب كرمه وعطائه ولو سئل لعدّ السؤال نفسه إهانة له، لأن الكرم

(١) في الخبر عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله هَلَكْتُ فَقَالَ لَه ﷺ: أَتَاكَ الْخَبِيثُ فَقَالَ لَكَ مَنْ خَلَقَكَ فَقُلْتَ الله فَقَالَ لَكَ الله مَنْ خَلَقَه فَقَالَ إِي والَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَكَانَ كَذَا فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: ذَاكَ والله مَحْضُ الإِيمَانِ قَالَ ابْنُ أَبِي عُمَيْرٍ فَحَدَّثْتُ بِذَلِكَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْحَجَّاجِ فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ إِنَّمَا عَنَى بِقَوْلِه: «هَذَا والله مَحْضُ الإِيمَانِ» خَوْفَه أَنْ يَكُونَ قَدْ هَلَكَ حَيْثُ عَرَضَ لَه ذَلِكَ فِي قَلْبِه»، الكافي، ج٢، ص٤٢٥. والمضمون نفسه مروي في مصادر أهل السنة، انظر: صحيح مسلم، ج١ ص٨٣، وراجع سنن أبي داوود، ج٢ ص٥٠٠ باب في رد الوسوسة.

وحده هو الدافع لإقدامه على العطاء، وكذلك هو الله جل وعلا، فهو الكمال والفيض والرحمة المطلقة وهو الذي لا يعدّ كرمه، ومن موقع لطفه وكرمه هذا، خَلَقَ الخلق وأنعم عليهم بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، إنّ إلهًا هذه صفاته لا يحتاج إلى سبب للعطاء، بل لو أنه سبحانه لم يخلق الخلق ولم يفض عليهم الوجود لتوجّه السؤال عندها إليه: بما أنك قادر على الفيض فلمَ لا تفيض؟!

باختصار: لا يُسأل الله تعالى: لمَ خلقت؟ بل لِمَ لم تخلق؟ لأنّ الخلق هو لطف ملائم لذاته وصفاته، والفياضية هي من أخصّ صفاته ولا نتصوره إلاّ فياضًا. ولذا ـ وفقًا لهذه النظرية ـ لا يتصور وجود مرحلة ينقطع فيها الفيض الإلهي(١)، بل هو دائم ومستمر، فمذ كان الله في أزله كان فياضًا ومعطاءً.

ب ـ النظريّة الفلسفيّة، وهي لا تبعد كثيرًا عن النظرية العرفانية، فهي ـ وفقًا لمصطلحاتها الخاصة ـ تبرر الخلق باعتباره إيجاد، والوجود خير من العدم، وهذا المعنى بديهي، ووجداني، ولا يحتاج إلى إقامة أدلة وبراهين، فالنظرة العقليّة للأمور المبنية على فهم معنى الوجود والحياة تدفع كل عاقل إلى الاعتراف أنّ الوجود خير من العدم، وأنّ الذي خلقني قد تفضّل عليّ وأكرمني.

ولا ينظر إلى الوجود باعتباره شرًا إلّا الجاهلون أو الفاشلون في الحياة والضعفاء الذين يستسلمون لخوفهم وهواجسهم وضعفهم، وأمّا الأقوياء في

---

(١) وهذا يدفع إلى طرح التساؤل: أنه إذا كان الفيض من مقتضيات ذاته المقدسة، فهل يكون فيضه قديمًا كما قد يقال، لجهة أنّ ذاته تعالى علة تامة، ولا يتخلف معلولها عنها، وربما أجيب على ذلك بأنه تعالى «فاعل ومكون للأشياء بإرادته ومشيئته، من باب صدور الفعل عن الفاعل، ومشيئته أمر حادث كما يستفاد ذلك من الروايات، نعم العلم بمشيئته الحادثة أزلي، لأنه عين القدرة»، صراط النجاة، ج١، ص٥٦٥، وتفصيل الكلام في ذلك موكول إلى محله.

إرادتهم الذين صمموا على تحويل الضعف إلى قوّة والإعاقة إلى طاقة، والتهديد إلى فرصة فهؤلاء لا ينظرون إلى الوجود ونظام الحياة بكل تحدياته أنّه شر، ولا يستسلمون للأمر الواقع، ولا يجلسون حبيسي بيوتهم بانتظار الفرج. بل يندفعون للعمل والتغيير، إنه ينظرون إلى هذا الكون بكل عناصره على أنه مظهر من مظاهر الحكمة الإلهية، لما فيه من روعة وجمال وإتقان وإبداع، ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]. ومن أبرز مظاهر الإبداع والجمال في هذا الكون هو خلق الإنسان.

وما طرحناه في التقريبين المتقدمين صحيح، ولا غبار عليه، لكنه قد لا يجيب عن سؤال يطرح في المقام، وهو أنه إذا كانت الفياضية من لوازم ذاته القدسية، فما السبب والغاية في كون الفيض على هذه الصورة أو تلك؟ بل لمَ تجسد الفيض في خلق الإنسان، ولم يقتصر على خلق الملائكة مثلًا؟ والحال أن الإنسان لديه القدرة على التمرد على الله وربما تحول إلى عنصر شر؟ وكيف نفهم سر الفيض في خلق الحيوانات الضارة؟ إلى غير ذلك من الأسئلة حول كيفية الفيض ونوعيته. ومن هنا نحتاج إذا أردنا بيان الصورة كاملة إلى معرفة الطرح القرآني لقضيّة الهدف من خلق الإنسان وفلسفته، وهذا ما تتكفل به النقطة التالية.

٢ ـ القرآن وفلسفة خلق الإنسان

وبمراجعة القرآن الكريم نجد أنّه قد تطرق في أكثر من آية من آياته إلى هدف الخلق وفلسفته، ويمكن تلخيص المعنى المستفاد من تلك الآيات بجملة واحدة، وهي أنّ الله تعالى خلق الخلق وكلّفهم بالأحكام ليتكاملوا في خط طاعته وصولًا إلى نيل رضوانه ومحبته، ولن يتسنى لهم ذلك إلّا إذا عرفوا الله، وإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه وصلوا إلى عزّ قدسه واقتربوا منه قربًا معنويًا وهذا ما نحتاج إلى توضيحه من خلال النقاط التالية:

أ ـ هدفية الخلق

إنّ الحقيقة الثابتة التي يؤكد عليها الكتاب في العديد من آياته المباركة، هي هدفية الخلق، إذ يستحيل في حكمة الخالق أن لا يكون للخلق هدف وغاية. وهدفية الخلق هي أمر بديهي في القرآن، ويعبر القرآن عن هذه الحقيقة بألسنة شتى، فتارة يعبر عنها بلسان إثبات الغائية والهدفيّة، بتأكيده أنّ الخلق قائم على أساس الحق، فيقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥ ـ ٨٦]، إنّ قوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والذي يتكرر في آيات أخرى[1]، هو من أجمع الآيات وأوضحها وأوجزها في الدلالة على هذا المعنى، أعني تأكيد قصدية وهدفية الخلق، وأنه قائم على أساس الحق الذي لا يشوبه باطل ولا لغو. وتارة أخرى يعبّر عنها بلسان تنزيه الله تعالى عن اللاغائية، وذلك إما بنفي الباطل عن خلق السماوات والأرض، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وإما بلسان نفي اللعب عن ساحته جل وعلا، كما في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨ ـ ٣٩]، أو قوله تقدست آلاؤه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧]، وإما بلسان نفي العبث، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إنّ الآيات الكريمة المذكورة والتي نفت العبث واللهو والباطل عن خلق الله تعالى بالإضافة إلى دلالتها على هدفية الخلق، فإنها تضمنت عدة إشارات ونكات رائعة، منها:

أولًا: إنّ هدفية الخلق في أعظم تجلياتها إنما تكون بوجود حياة أخرى، وبدون تلك الحياة، سيكون وجودنا في هذه الدنيا عبثيًا جزافيًا

(١) راجع: الروم الآية: ٨، والأحقاف الآية ٣.

فاقدًا للمعنى، لأنه وجود محفوف بالظلم ومشوب بالتفاوت، وتتعطل فيه الكثير من طاقاتنا دون أن يبلغ الإنسان غايته أو يصل إلى كماله المرجو، ولذا نلاحظ أن الآيات احتفّت بقرائن سياقية تشير إلى ذلك، من قبيل ما جاء في الآية الأولى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ [الحجر: ٨٥]. أو قوله الاستفهامي الإنكاري في الآية الأخيرة: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

ثانيًا: إنّ المنفي في بعض الآيات هو الباطل وفي بعضها العبث وفي بعضها اللعب وفي بعضها اللهو، وهذه العناوين تلتقي في دلالتها على أمر واحد، وهو وجود الهدفية في الخلق، مع وجود اختلافات بينها، فالباطل هو ما لا ثبات له، فهو زائل وزاهق، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، والعبث هو الفعل الذي لا غاية ولا هدف له، أو كما ما قيل[١] هو ما خلا عن الإرادات إلّا إرادة حدوثه فقط، وقد جاء التعبير عن نفي العبث عن عملية الخلق بلسان الاستفهام الإنكاري تدليلًا على نزاهة ساحته عن ذلك، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أمّا اللعب واللهو فتتوفر فيهما إرادة أخرى وقعا بها لعبًا ولهوًا، وهذه الإرادة الأخرى قد تكون هي إرادة اللذة والأنس من خلال اللعب واللهو.

ثالثًا: هدفية الخلق حاضرة على الدوام في عيون أولي الألباب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]، فالعاقل لا ينظر إلى الكون نظرة عابرة بل نظرة متفكرة، ولا يقصر نظره على ظواهر الكائنات ليستمتع بها فحسب، بل ينظر إلى تناسقها وانتظامها، والأهم أنه ينظر إلى مآلاتها وأهدافها، ليرى جمال الخالق المبدع في جمالها وروعته في روعتها وحكمته في تناسقها وعلمه في دقتها.

---

(١) الفروق اللغوية، ص٣٥٠.

ب ـ لم يخلقنا من موقع الحاجة إلينا

وإذا كان من المستحيل أن يخلقنا الله تعالى عبثًا أو لعبًا أو لا لغرض، فإنّ من المستحيل أيضًا أن يعود غرض خلقنا إليه تعالى، لأنّ لازم ذلك كونه محتاجًا ويستكمل نقصه ويشبع حاجته بالخلق والإيجاد، وقد تقدس وجلّ عن ذلك، لأنه الغني المطلق، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام كما جاء في الصحيفة السجادية: «**أَسْتَوْهِبُكَ يَا إِلَهِي نَفْسِيَ الَّتِي لَمْ تَخْلُقْهَا لِتَمْتَنِعَ بِهَا مِنْ سُوءٍ، أَوْ لِتَطَرَّقَ بِهَا إِلَى نَفْعٍ، ولَكِنْ أَنْشَأْتَهَا إِثْبَاتًا لِقُدْرَتِكَ عَلَى مِثْلِهَا، واحْتِجَاجًا بِهَا عَلَى شَكْلِهَا**»[١]. فتعيّن أن يكون النفع عائدًا إلى الإنسان نفسه، فما هو هذا النفع؟

ت ـ ماذا يعني خلقنا للعبادة؟

إنّ تكامل الإنسان وارتقاءه روحيًا ومعنويًا، هو الغاية القصوى التي يرمي إليها المبدع الخلاق من خلق الإنسان، بحسب ما يستفاد من القرآن الكريم.

وأول ما يطالعنا في هذا المقام قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إنّ هذه الآية هي من أوضح الآيات القرآنية في الدلالة على هدف الخلق، وهي تصرح بأنّ الغاية هي عبادة الله تعالى، ولكن هذه الغاية في نظرة أوليّة لا تنهي القضيّة إذ يعود السؤال مجددًا: ولماذا يريدنا أن نعبده؟ ما هو هدف العبادة ومغزاها؟ وهل هو بحاجة إلى عبادتنا؟! أم أنه يريد معاقبتنا بهذه التكاليف العبادية الشاقة من صلاة وصوم وحج وغيرها؟

والجواب: إذا عرفنا مفهوم العبادة الحقّة تندفع كل هذه التساؤلات، وللأسف فقد شاع تفسير مجتزئ للعبادة، وهو التفسير الذي يقدمها بصفتها

---

(١) الصحيفة السجادية، من دعائه عليه السلام في طلب العفو والرحمة.

مجرد طقوس وصلوات وأذكار وصيام وحج وعمرة، مع أنّ الأمر ليس كذلك، فما ذكر وإن كان من أمهات العبادة التي لها وظيفة جليلة على صعيد تهذيب النفس الإنسانية وتزكيتها، بيد أنّ العبادة في الإسلام لا تنحصر بذلك، بل هي ذات مفهوم أعمق وأوسع، فهو شامل للكثير من الأعمال العقلية والجسدية والروحية والعلمية والأنشطة الاجتماعية والخدماتية التي تخفف عن كاهل الإنسان. وبتصنيف آخر للعبادة ربما أشار إليه بعض الباحثين يمكن القول إنّها على ثلاثة أنحاء: وهي العبادة الشعائرية والعبادة الاجتماعية، والعبادة التفكرية، وكل أنحاء العبادة هذه يعود نفعها إلينا لا إلى الله تعالى.

أما العبادة الشعائرية، والمتمثلة بالتزام ما جاء عن طريق الوحي من أعمال عبادية، واجبة كانت أم مستحبة، كالصلاة والصوم والحج والعمرة، والذكر والدعاء فيفترض بها أن تصقل شخصية الإنسان وتهذبّها، وأن تمنحه الأمن والسلام الروحي وتوصله إلى حالة التقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧].

وأما العبادة الاجتماعية، فهي تتمثل وتتجسد بانخراط الإنسان في شتى الأنشطة الاجتماعيّة، وأعمال الخير والبر التي تمدّ جسور التواصل بين الناس وتخفف معاناتهم، من قبيل مساعدة الفقراء والمحتاجين، وزيارة الأرحام والإخوان، وتشييع جنازة الأخوة والأصدقاء، والابتسامة في وجوه الآخرين، وكل ما يساعد على نشر حبال المودة والترابط.. إنّ ذلك كله عبادة لله تعالى ومقرِّب نحوه. أي إنه وبمقدار قربك من عيال الله فإنك تقترب من الله تعالى، والعكس بالعكس، في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**نظر الولد إلى والديه حبًا لهما عبادة**»(١). وعن الإمام علي عليه السلام وهو يحدثنا عن عبادة الله بالكلام الطيب: «**إنّ من العبادة لين**

(١) تحف العقول، ص٤٦.

الكلام وإفشاء السلام»[١]. وعن رسول الله ﷺ متحدثًا عن عبادة الله تعالى في طلب الرزق الحلال: «**العبادة عشرة أجزاء تسعة أجزاء في طلب الحلال**»[٢].

وغير بعيد عن هذا المجال لعبادة الله يأتي ما يمكن أن نسمّيه بالعبادة الأخلاقية، المتمثلة بالحفاظ على النواميس الأخلاقية التي تحفظ للإنسان إنسانيته وكرامته، وتبعده عن الانحطاط إلى الحالة البهيمية، في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**أفضل العبادة العفاف**»[٣]، وفي حديث آخر عنه عليه السلام: «**غضّ الطرف عن محارم الله سبحانه أفضل عبادة**»[٤].

وتبقى الإشارة إلى العبادة التفكرية وهي ما توضحه الفقرة الآتية.

ث ـ العبادة لا تكون بدون معرفة

وطبيعي أن العبادة الحقيقية لله جل وعلا لا تكون دون معرفة به، فالعاقل لا يعبد ما يجهل، ولذا وجدنا أنه سبحانه يتحدث في بعض الآيات عن المعرفة كهدف للخلق، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. حيث دلّت على أنّ خلق السماوات والأرض هو بهدف أن يتعرفوا على الله تعالى من خلال قدرته وسِعَة علمه اللذين هما تعبير آخر عن معرفته تعالى، وهي خير معرفة به، لأنها تقوم على التعرف إليه من خلال أبرز صفاته، وإذا عُرف كذلك أي في مواقع عظمته ودلائل قدرته ومظاهر جماله وجلاله عندها يذعن العبد أنّه أمام إله هو أهل للعبادة فيعبده، كما قال علي عليه السلام فيما روي عنه: «**وجدتك أهلًا للعبادة فعبدتك**»[٥]. إنّ جعل

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص١٤٢.
(٢) بحار الأنوار، ج١٠٠، ص٩.
(٣) الكافي، ج٢، ص٧٩.
(٤) عيون الحكم والمواعظ، ص٣٤٩.
(٥) شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، لابن ميثم البحراني، ص٢٢٠، وبحار الأنوار، ج٤١، ص١٤.

العبادة غاية لخلق الجن والإنس يختزن هذا المعنى، وهو معرفة الرب، وفي الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «خرج الحسين بن علي عليهما السلام على أصحابه فقال: «**أيها الناس إنّ الله جل ذكره ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه**»[١].

ومن هنا، كانت عبادة التفكر قمة العبادات، وعبادة التفكر معناها أن نعبد الله من خلال القراءة الواعية والمتدبرة في الكتاب المنظور، بما يفضي إلى التعرف على آيات قدرته وجماله، وقد زود الإنسان بطاقات عقلية خلاقة مكّنته أن يكتشف الكثير من هذا الكون الفسيح والبديع. إنّ عبادة التفكر هي علم وعمل، عقل وقلب، علم يكتشف وعمل يبدع، عقل ينظم وقلب يسدد ويصوب، لتتم الإفادة من كل الاكتشافات في سبيل رقي الإنسان لا في سبيل تسلطه وتكبّره، في سبيل البناء لا في سبيل الدمار، وفي الإشارة إلى هذه العبادة جاء الحديث النبوي الشريف: «**تَفكُّر ساعة خير من قيام ليلة**»[٢]، وعن الإمام علي عليه السلام: «**التفكّر في ملكوت السماوات والأرض عبادة المخلصين**»[٣]. وهنا وعندما ينخرط الإنسان في هذه العبادة الكونية متأملًا في آفاق السماء والأرض سوف يتملكه إحساس بضرورة التواضع ونبذ التكبّر، لأنه سيرى نفسه كائنًا صغيرًا في هذا الكون العظيم والهائل، وسوف يكتشف أنه مع سائر المخلوقات التي لا تعد ولا تحصى، يسير في حركة دائبة وخاضعة للقوانين المحكمة التي أبدعتها يد القدرة الإلهية، التي أتقنت كل شيء، وبكلمة أخرى: إنّ هذه العبادة التفكرية في آفاق السماوات والأرض، تشعر الإنسان أنه كائن صغير في هذا المعبد الكبير/ الكون الذي يتحرك بانتظام، وهو ينطق بملء فيهِ ويخاطب ـ بلسان الحال ـ كل ذي لب: إنّ النظام يحتاج إلى منظّم، والجمال يحتاج إلى ريشة تخطّ وأنامل تبدع،

---

(١) علل الشرائع، ج١، ص٩.

(٢) المحاسن للبرقي، ج١، ص٢٦.

(٣) عيون الحكم والمواعظ، ص٥٣.

كما ويحتاج ـ في المقابل ـ إلى ذوق يتلمس ووجدان يقر بالجميل ويعرف بالفضل والإحسان، وهذا هو الدرس العظيم لهذه العبادة، وهو الذي يعطيها هذا الوزن الكبير ليغدو تفكر ساعة أفضل من قيام ليلة، والدرس الآخر لهذه العبادة هو درس الانتظام، فإنّه إذا كانت هذه الكائنات بأجمعها تتحرك في مسار منتظم وبديع ولا تتخلف عنه طرفة عين أبدًا، فالحري بالإنسان أيضًا أن يتناغم معها ممتثلًا لإرادة الله، فيتحرك في خط سوي مستقيم بلا عبث ولا تخريب.

وفي الحديث القدسي: المروي عن داود عليه السلام، قال: «يا ربّ لم خلقت العالم والخلق؟ فقال: يا داود كنت كنزا مخفيّا أردت أن أعرف. وهذا رمز لا يعلمه الَّا العارفون»[١]. نعم، وقع الحديث موقع الجدل في صحته[٢].

ج ـ لقاء الله غاية الغايات

وقد تسأل: وإذا عرف الإنسان ربه وعبده، فماذا بعد؟

الجواب: إنّ معرفة الله تعالى وتقواه والسير في خط طاعته تهيّئ الإنسان للوصول إلى أعلى درجات القرب المعنوي من الله تعالى في مسار تكاملي يفترض أن يتكلل بالسعادة الأبدية في جوار الله تعالى، حيث الفوز الدائم بالرضوان، وهذه الغاية الثمينة تُخاضُ من أجلها اللجج وتُبذل المهج، وهي وإن كانت محفوفة بالصعاب ولكنها ليست مستحيلة على الإطلاق، وقد تكفل الله تعالى أن يكون عونًا للإنسان إذا ما سار في خط مجاهدة النفس وصقلها وتهذيبها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومؤكد أنه في نهاية هذا المسار سيصل

(١) معارج نهج البلاغة، ص٥٧.

(٢) قال الفتني: «كنت كنزا لا أعرف، فأحببت أن أعرف فخلقت خلقا فعرفتهم بي فعرفوني» قال ابن تيمية: «ليس من الحديث ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي وشيخنا، وفي الذيل قال ابن تيمية: موضوع وهو كما قال»، تذكرة الموضوعات، ص١١.

الإنسان إلى معدن العظمة مما لا يصل إليه أحد من خلق الله تعالى، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٦].

٣ ـ لماذا خلق الله الكافر والعاصي؟

قد تقول: لكن الكثيرين يسقطون في الطريق، ولا يصلون إلى الغاية المنشودة، بل يكون مصيرهم هو الشقاء الأبدي، فيكون خلقهم وبالًا عليهم، ولذا من حقهم أن يتساءلوا: لماذا خلقتنا يا رب؟

وبكلمة أخرى: إذا كانت معرفة الله تعالى وإطاعته هي الغاية القصوى للخلق، فالكافر لم يعرف الله ولم يطعه، بل عصاه وتمرد عليه، فلماذا خلقه الله تعالى(١)؟ وأين العدل في خلق إنسان معلوم أن مصيره إلى النار؟ وكذلك الحال في المجرم والظالم، فإنه لم يجن على نفسه وإنما جنى عليه من خَلَقَه!! فلماذا خلق الله من يعلم بأنّ عاقبتهم هي الجحيم والنيران؟

وفي الإجابة على هذه التساؤلات نقول:

أولًا: إنّ الله تعالى في أصل الخلق لم يخلق كافرًا ولا مؤمنًا وإنما خلق إنسانًا ذا فطرة واستعداد تام لسلوك طريق الإيمان والتوحيد واتباع طريق الخير والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الرّوم: ٣٠]، وقال ﷺ فيما روي عنه: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسّانه**»(٢)، وعليه، فإذا اختار

(١) تجدر الإشارة إلى أن للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي رسالة خاصة تحمل عنوان «خلق الكافر»، وقد ألّفها إجابة على سؤال وجه إليه عن علة خلق الكافر، وقد ذكر في الجواب اثني عشر وجهًا في ردِّ هذا الإشكال، وبعضها يمكن إرجاعه إلى ما ذكرناه، وبعضها الآخر يمكن النقاش فيه، وقد طبعت هذه الرسالة مؤخرًا في إيران. وقد نقل في مقدمته أن للسيد ابن طاووس رسالة بعنوان: الجواب الباهر في خلق الكافر، انظر: خلق الكافر، ص١٢.

(٢) صحيح البخاري، ج٢، ص٩٧، مَنْ لا يحضره الفقيه، ج٢، ص١٠٧.

الإنسان بعد ذلك الكفر أو العصيان فقد ظلم نفسه ولم يظلمه الله تعالى. ولهذا لا يصح لك أن تقول إن الله تعالى خلق الكافر كافرًا أو المجرم مجرمًا، كلا وإنما خلقه إنسانًا، وهو الذي اختار الكفر أو الإيمان، الطاعة أو العصيان.

ثانيًا: إنّ الله تعالى ما خلقنا للعذاب ولا للشقاء ولا للجحيم والنيران، بل خلقنا للرحمة، وهذا ما يمكن إثباته بالعقل والنقل، أما دليل العقل، فبيانه أنّ الله تعالى: إما خلق العباد للرحمة أو للنقمة، وبما أنه يُجلّ عن أن يكون خلقهم للنقمة والعذاب، فيدل ذلك على أنه خلقهم للرحمة، وأمّا النقل، فيستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩]، حيث ذكر جمع من المفسرين(١)، أن المقصود باسم الإشارة هو الرحمة، ومن هنا وجدنا أن الله تعالى يأمر نبيه أن يخبر العباد جميعًا أنه تعالى هو الغفور الرحيم، ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، فلاحظ كيف نسب الرحمة إلى ذاته، والعذاب إلى فعله(٢)، وأمر نبيه ﷺ أن يعلمهم أنّ عليهم إذا أخطأوا أن لا ييأسوا من رحمته تعالى، لأنه الغفور الرحيم، قال جل وعلا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وخلقهم للرحمة يدلّ عليه بشكل صريح ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام في جواب الزنديق الذي سأله: قائلًا: «فخلق الخلق للرحمة أم للعذاب؟ قال عليه السلام: خلقهم للرحمة،

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص١٠، وتفسير القرآن للصنعاني، ج٢، ص٣١٦. ونقل عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، انظر: جامع البيان للطبري، ج١٢، ص١٨٧، وثمة تفسير آخر يرى أنه تعالى للاختلاف خلقهم، لأن الاختلاف هو الذي يثري الحياة وينميها ويطورها، وقد رجحنا هذا التفسير الثاني في مجال آخر، راجع: فقه العلاقة مع الآخر المذهبي، ج١، ص٢٣، ولذا يكون الاستشهاد بالآية الكريمة هنا مبنيًا على الرأي الثاني في تفسيرها.

(٢) مع أن الرحمة والعذاب كلاهما من صفات الفعل لا من صفات الذات، ما يعني أن الغرض من هذه المغايرة في التعبير هي إشعارنا أن الرحمة أقرب إليه من العذاب.

وكان في علمه قبل خلقه إياهم، أن قوما منهم يصيرون إلى عذابه بأعمالهم الردية، وجحدهم به»[١]. وأما الذين عصوه وتمردوا عليه فربما كان إدخالهم النيران بغرض أن يغسلهم من درن الخطايا ليصبحوا مؤهلين ومستعدين لمجاورة أهل النعيم ومرافقة الأنبياء والصالحين.

ثالثًا: إنه تقدست آلاؤه وجل ثناؤه عندما خلقنا فقد أحسن إلينا، لأنّ الوجود خير محض، كما قلنا سابقا، وعلُمه بأننا سنكون من أهل المعصية والتمرد لا ينافي عدله ولا حكمته، لأنّ المفروض أنّه خلقنا وأعطانا حرية الاختيار، ولم يجبرنا على معصيته، فإن عصيناه فبإرادتنا وسوء اختيارنا، وإن أطعناه فبحسن اختيارنا، فليس في خلقه إيانا ـ مع علمه بأننا سنختار طريق المعصية ـ أي ظلم لنا، بل نحن من ظلمنا أنفسنا، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]. وعن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**إِنْ تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي لِذَلِكَ أَهْلٌ، وهُوَ ـ يَا رَبِّ ـ مِنْكَ عَدْلٌ، وإِنْ تَعْفُ عَنِّي فَقَدِيمًا شَمَلَنِي عَفْوُكَ**»[٢].

٤ ـ هل يناسب ذلك رحمته؟

قد تقول: إنّ خلقه إيانا مع علمه بأننا سنختار طريق الانحراف وإن لم ينافِ عدله، لكنه لا يتلاءم مع رحمانيته، فعدم خلقه للعصاة هو رحمة بهم دون شك، فلماذا خلقهم وهو يعلم بمآلهم؟ ألم يكن عدم خلقه لهم هو الأكثر انسجامًا مع لطفه ورحمته وكرمه؟ لماذا خلقنا وهو يعلم أنّه سيعذبنا؟

والجواب على ذلك:

أولا: إنّه بناءً على هذا الكلام فالأجدى أن لا يخلق الله إلاّ الصالحين الذين يضمن صلاحهم وإيمانهم واستقامتهم، وهذا سيعني أنّ هذه الدنيا ستخرج عن طبيعتها التي خطط الله لها، في أن تكون مختبرًا للإنسان

(١) الاحتجاج للطبرسي، ج٢، ص٩٥.

(٢) الصحيفة السجادية، مِنْ دُعَائِه عليه السلام فِي الرَّهْبَةِ، ص٢٤٦.

ومضمارًا للسباق، حيث يثبت الإنسان كفاءته وجدارته من خلال اجتهاده في خط طاعة الله تعالى، وبذلك يتقدم من جدّ واجتهد، ويتأخر ويرسب من تمرد وعصى وانقاد للشهوات. بكلمة أخرى: إنّ من طبيعة هذه الدنيا أنّها مختبر للإنسان وجسر عبور نحو العالم الآخر، ومقتضى الاعتراض المذكور، أن تخرج هذه الدنيا عن طبيعتها وقوانينها.

ثانيًا: إذا تعاملنا مع القضية بميزان الرحمة فمن قال بأنّ الله سيعذب العاصي جزمًا ويقينًا؟! صحيح أنه توعّد بذلك، ولكن خلف الوعد هو القبيح، وأما الخلف بالوعيد فليس قبيحًا. طبيعي أن احتمال العذاب موجود وهو كافٍ للعاقل بأن ينضبط ويرتدع ويستقيم.

إنّه تعالى رحيم، بل هو أرحم من الطفل بأمه، وهو قد أمرنا بالرحمة فيكون أحرى أن يرحمنا.

٥ ـ ماذا لو لم يقتنع الإنسان بالجواب؟

وقد تسأل: ماذا لو أنّ إشكال خلق الكافر وإشكال وجود الشر في العالم استحكم في ذهن المرء ما دفعه للتساؤل عن عدل الله تعالى أو حكمته، ولم يستطع لهذا الإشكال دفعًا ولا ردًا فهل يؤاخذ على ذلك أم لا؟ وهل يؤثر ذلك على عقيدته؟

والجواب على ذلك:

أولًا: إنّ على العاقل الذي لم يستطع دفع هذه الأسئلة ولا وَجَدَ إجابة مقنعة عليها رغم بذل الجهد في هذا السبيل، أن يركن إلى حكمة الله تعالى ويوطن النفس على التسليم له، وذلك لعلمه أنّه سبحانه هو الأعلم والأقدر والأحكم، وفي مثل ذلك، فمقتضى الحكمة والرشد أن لا يندفع العبد الذي لا يفهم مغزى أمر أو جدواه إلى نفي جدوائيته أو الحكم بعبثيته، وكيف يجزم بذلك والحال أن احتمال وجود حكمةٍ لم يطلع عليها موجود، فلمَ التسرع بالتشكيك والمبادرة إلى الإنكار؟! ومن المؤكّد أنّه سوف يزداد الإنسان تبصرًا ـ قبل الاعتراض والتشكيك ـ إذا وضع نصب عينه أنّ تجارب

الحياة أثبتت أنّ كثيرًا من الأمور التي كان لا يفقه سرّها ولا يدرك حكمتها ومغزاها قد تبدى له مع الوقت ـ ببركة العلم والتفكر ـ أن فيها الكثير من الأسرار وانكشف أنّ فيها الكثير من الفوائد.

ثانيًا: وإذا وَطَّن العبد على التسليم لله تعالى باعتباره الأحكم والأعلم، ومع ذلك بقيت الأسئلة تراود نفسه، فإنّ هذه الأسئلة أو أحاديث النفس سواء فيما يتصل بوجود الله تعالى أو بعدالته أو حكمته، هي أسئلة معفو عنها ولا يعاقب عليها، وذلك لأن معاقبته عليها هي عقاب على ما ليس في الاختيار وهو قبيح، قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وفي الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام: «**كُلُّ مَا غَلَبَ الله عَلَيْه فَاللَّه أَوْلَى بِالْعُذْرِ**»[١]، وهكذا فإنّ الحديث المعروف بحديث الرفع يدلّ على أنّ الإنسان لا يؤاخذ على ذلك أيضًا، ففي صحيحة حريز عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: **قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: **رفع عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة**»[٢].

إلى غير ذلك من النصوص التي تؤكد معذورية الإنسان على ما لا يملك له دفعًا، ولا يستطيع له رفعًا، وهذا في الواقع مما يحكم به العقل قبل النقل.

وقد سألني أحدهم قائلًا: إنّي أعاني من حديث النفس، حيث يدور في ذهني صور وكلام فيه إساءة وجرأة على أولياء الله، مع أنّي أشعر بذنب كبير وأنا ملتزم وأخاف الحساب على هذا الحديث النفسي الباطني فبماذا تنصحني؟

---

(١) الكافي، ج٣، ص٤١٢.

(٢) التوحيد، ص٣٥٣، والخصال، ص٤١٧، ومن لا يحضره الفقيه، ج١، ص٥٩.

فأجبته قائلًا: إنّ هذه الوساوس وأحاديث النفس معفو عنها ولا يحاسب الإنسان عليها ما دامت غير اختيارية له ولا يتعمد استحضارها وإنما تفرض نفسها عليه، لأنه كما ورد في الحديث الشريف «كل ما غلب الله عليه فهو أولى بالعذر». أجل، يجدر بالمؤمن أن يُدرّب نفسه على تجنّب مثل هذه الوساوس حتى لا تسقط حرمة الأنبياء والأولياء عليهم السلام في نفسه، فيكون اقترانهم عليهم السلام بالصور القبيحة وألفاظ السباب أمرًا عاديًا. ولكن السؤال هو عن الطريق الأمثل لتجنب مثل هذه الوساوس، وفيما أرى وأرجح فإن الأمر قد يختلف من حالة إلى أخرى، فبعض الناس قد يكون طريقهم الأسهل للخروج من وطأة هذه الأحاديث النفسية هو أن يستحضروا عظمة الأنبياء عليهم السلام في أنفسهم، وأن يستحضروا قبل ذلك أن هذه النفس بما يجول فيها من معاني قبيحة وكلام نفسي سيء تجاه الأنبياء عليهم السلام، إن هذه النفس مكشوفة أمام الله جلَّ وعلا، فهو مطلع على قباحة هذه الصورة التي تفرضها هذه الوساوس، ومن المعلوم أن حضور الله في نفس الإنسان يطرد وساوس الشيطان وكل قبيح منها، والإنسان المؤمن لا يحب أن يراه الله على هذه الصورة لأنه يخجل من ذلك. في المقابل فإن شريحة أخرى من الناس لا ينفعها الطريق المتقدم، بل قد يزيد ذلك من تفاقم المشكلة لديهم، ولذا فقد يكون العلاج الأمثل بالنسبة إليهم أن لا يُبالوا بهذه الوساوس ـ على قباحتها ـ وأن يعلموا أنها وساوس عابرة ولا يحاسب الله عليها، ولا ينبغي إيلاؤها كثير أهمية، الأمر الذي يساعد على نسيانها مع مرور الوقت.

الباب الثاني

المقاربة القرآنية لإشكالية الشرور

- المحور الأول: معالجات غير موفقة لدفع إشكالية الشرور
- المحور الثاني: القرآن والمقاربة البرهانية لمشكلة الشرور
- المحور الثالث: القرآن والمقاربة الإيمانية لإشكالية الشرور
- المحور الرابع: القرآن والمقاربة التربوية لإشكالية الشرور
- المحور الخامس: القرآن والمقاربة الاجتماعية لإشكالية الشرور

هذا الباب بمحاوره الآتية مخصص لتقديم الإجابة القرآنية على إشكالية الشرور أو ما يواجهنا من المصائب والفواجع والنواقص.

ويمكننا تصنيف المقاربة القرآنية لمشكلة الشرور إلى: مقاربة برهانية، وأخرى دينية إيمانية، وثالثة تربوية، ورابعة اجتماعية، ونستبق هذه المقاربة بالحديث في محور خاص عن بعض الإجابات والمعالجات غير الموفقة لإشكالية الشرور.

المحور الأول
معالجات غير موفقة
لدفع إشكالية الشرور

١ ـ **الثنويه ودفع الإشكالية**

٢ ـ **التناسخية ودفع الإشكالية**

٣ ـ **الأشاعرة ودفع الإشكالية**

٤ ـ **الشيخية ودفع الإشكالية**

ثمة أطروحات عديدة للإجابة على إشكالية الشرور، وبعض هذه الأطروحات محكمة وسديدة وبعضها الآخر غير موفقة ولا يسعنا الموافقة عليها، وفي هذا المحور نتطرق إلى بعض المعالجات غير السديدة أو التي تعتمد في دفع الإشكال على مبادئ أو أصول غير صحيحة، لنعود في المحاور اللاحقة إلى تقديم المعالجات السديدة والمختارة:

١ ـ الثنوية ودفع الإشكالية

الأطروحة الأولى هي أطروحة الثنوية، فقد رأى المجوس أنّ الإله هو مصدر الخير والجمال، وهذا يعني حكمًا أن ما يشهده عالم الطبيعة من ظواهر مخيفة كالصواعق والزلازل والفيضانات وغيرها، لا يمكن أن يكون من فعل إله الجمال، وكذا ما يفعله الإنسان ويصدر عنه من شرور وظلم وعدوان لا يعقل أن يأذن به إله الخير أو يرضاه، ما دفعهم للاعتقاد والاستنتاج بأن مصدر هذه النواقص والشرور والمظالم ومنشأها هو إله آخر وهو إله الشر. وبالتالي فقد افترضوا أنّ ثمة صراعًا قائمًا بين الإلهين، وأنّ

على الإنسان أن لا ينقاد مع غرائزه ويطلق العنان لهواه، لأن ذلك يعد انتصارًا لإله الشر «إهريمان»، بينما إقدامه على أعمال الخير يُعد انتصارًا لإله الخير «أهورا مزدا».

إنّ هذه الأطروحة في دفع إشكالية الشرور باطلة عند كل من رفض فكرة تعدد الإله، ونحن من موقعنا الإسلامي من الطبيعي أن نرفضها، لأن التوحيد أصل من أصولنا العقدية، وقد دلَّ البرهان والقرآن على أن الإله واحد أحد ولا شريك له ولا ندّ له، وأنّ التعدد باطل بطلانًا كليًا ومطلقًا. وسوف نرى لاحقًا أنّ بالإمكان دفع هذه الإشكالية بناءً على الاعتقاد بوحدانية الإله، دون حاجة إلى ردّها بالاستناد إلى أساس باطل.

٢ ـ التناسخية ودفع الإشكالية

والأطروحة أو المعالجة الثانية في دفع الإشكالية المذكورة هي ما تقدم به القائلون بالتناسخ، فإنهم بنوا معالجتهم لإشكالية الشرور في العالم على رؤيتهم الخاصة حول تناسخ الأرواح، فعلى ضوء هذه الرؤية تمّ إعطاء تفسير خاص للقهر والمعاناة والآلام التي تصيب الإنسان، وللتفاوت بين أفراده، وخلاصة هذا التفسير: أن الآلام التي تصيب بعضنا هي جزاء عادل على ما اقترفته أيدينا في المرحلة السابقة من حياتنا قبل انتقال الروح إلى الجسد الجديد، وعندما نجد شخصًا أبيض وآخر أسود وشخصًا سليمًا وآخر معاقًا، وشخصًا جميلًا وآخر معاقًا، وشخصًا عاقلًا وآخر مجنونًا وشخصًا فقيرًا وآخر غنيًا وشخصًا سعيدًا وآخر شقيًا، فإنّ مرد ذلك إلى النجاح أو الفشل في التجربة السابقة من حياته وقبل انتقال روحه بالتقمص إلى الجسد الجديد، فمن كان ناجحًا في التجربة الأولى في خط الاستقامة سيكون في الثانية سليمًا معافى وسعيدًا وكلما زاد نجاحه في قوس الصعود المعنوي ستزداد سعادته وراحته جسديًا ومعنويًا في المراحل اللاحقة من حياته.. وأمّا من فشل في التجربة الأولى فسوف يفقد حظًا من السلامة النفسية أو

الجسدية في المرحلة اللاحقة، وهكذا نزولًا إلى درجة أن تحلَّ روحه في جسد حيوان، وهو ما يسمونه المسخ(١)!

وهذه النظرية هي على العكس تمامًا من نظريّة التطور الدارونية في تفسير الخلق، فنظرية التطور تفترض أن سير الحياة هو دائمًا سير تكاملي والبقاء للأصلح والأقوى، فالإنسان ـ مثلًا ـ قد انتقل بالتطور من مرحلة الحياة القردية إلى مرحلة الحياة البشرية، ولكن نظرية التناسخيين تفترض أن الإنسان قد يسير في خط تنازلي فيصبح قردًا بعد أن كان إنسانًا.

وملاحظاتنا على هذه الأطروحة:

أولًا: إنّ تبرير المصائب والآلام وما نشهده من تفاوت واختلاف بين بني الإنسان في الطاقات والإمكانات والألوان لا ينحصر بالتناسخ، بل يمكن تفسير انسجام ذلك مع عدل الله تعالى بأكثر من تفسير علمي وفلسفي وديني، كما سيأتي لاحقًا.

ثانيًا: إنّ هذه النظرية تحمل في طياتها نظرة دونية أو عنصرية اتجاه الأشخاص الملونين (السود) والمشوهين والمعاقين، فهي ترى أنّ هؤلاء هم من الصنف الذي فشل في التجربة السابقة، فأصابهم الغضب الإلهي ولحقتهم اللعنة والعقوبة.

ثالثًا: إنّ هذا الرأي يعني سد الباب أمام حركة البحث العلمي، لأنّ التفكير في علاج هذه النواقص، فضلًا عن العمل على تغييرها هو مخالف لإرادة الله تعالى، في نظام الخلق، على أنّ إرجاع الاختلافات المذكورة إلى أن ذلك عقوبة طبيعية للإنسان جزاء ما فعله في الطور السابق، يعني حكمًا أن ما يعانيه من إعاقة غير قابل للعلاج إلّا في المرحلة التالية من الحياة، والحال أننا وجدنا حالات شتى خُلقت مشوهة ومعاقة ثم تمت معالجتها، وعادت سليمة وسعيدة، إن العلم يعطي تفسيرًا للكثير من

---

(١) لدينا بحث نقدي مفصل لنظرية التناسخ والتقمص وهو جزء من كتابنا «التشيع والغلو» والذي هو في طريق الطبع بإذن الله تعالى.

الإعاقات والتشوهات، ويرى أن بالإمكان تلافيها من خلال استعمال دواء معين قبل الحمل أو أثناءه أو بعد الولادة، بينما هذه النظرية تفترض أن ذلك عقوبة لا مفر منها..

رابعًا: وأخيرًا فإن نظرية التناسخ تفترض حكمًا وجود مساواة في الطور الأول من الخلق، بمعنى أن كل من كان في الطور الأول من الخلق لا بدّ أن يكون سليمًا معافى جميلًا ولا يولد شخص معاق أو مشوه في الطور الأول من الخلق، وذلك ليحصل العدل، فمن أين يثبت هؤلاء هذه الفرضية؟! وما دليلهم عليها؟! والحال أن الكثير من التشوّهات قد تكون في عالم الرحم أو تحدث أثناء الولادة..

٣ ـ الأشاعرة ودفع الإشكالية

الأطروحة الثالثة في علاج الإشكالية، هي أطروحة الأشاعرة، وتوضيح ذلك:

أنّ إشكالية الشرور ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمسألة كلامية خلافية، وهي أنّ أفعال الله تعالى هل يمكن تعليلها بالأغراض أم لا؟ فلو قلنا بأن أفعال الله تعالى مبنية على أهداف ومعللة بالغايات والأغراض، فمن الطبيعي أن نتساءل عندها عن فلسفة وغاية بعض الأفعال التي قد تبدو منافية لحكمته تعالى. وأما إذا أنكرنا أن تكون لأفعاله تعالى غايات فلا معنى للإشكالية من أساسها. ومن المعلوم أنّ الأشاعرة قد أنكروا تعليل أفعاله بالغايات، وقالوا: لا يجوز أن نجعل لأفعاله سبحانه غاية أو هدفًا، فهو لم يخلق الخلق لعلة أو غاية، بذريعة أنّ ذلك (خلق الخلق لأجل غاية ما) هو شأن المحتاج، والله تعالى غني عن العالمين، وهذا الرأي اضطرهم إلى ممارسة نوع من التأويل غير المبرر للآيات القرآنية الظاهرة في أنّ أفعاله سبحانه لها غايات وعلل، قال الفخر الرازي «وفي قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] لام الغرض، وظاهره يقتضي تعليل أفعال الله وأحكامه

بالأغراض والمصالح، إلّا أنا نصرف هذا الكلام عن ظاهره بالدلائل العقلية المشهورة»[(١)].

وفي المقابل، ذهب العدلية[(٢)] (الشيعة والمعتزلة) إلى أن أفعاله عزّ وجلّ بأجمعها معللة ولها غايات ومقاصد، وغاياتها بطبيعة الحال لا تعود إلى الله تعالى ليستلزم ذلك نقصه وينافي غناه، وإنما هي غايات تعود إلى العباد أنفسهم وما يتصل بهم من النظام الكوني، وغائية الأفعال هو شأن كل حكيم. وبناءً على ذلك، فلا موجب لتأويل الآية المشار إليها ونظائرها، وكذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، وغيرها من الآيات الصريحة في التعليل، وما ذكرناه في عالم التكوين يجري بعينه في عالم التشريع، فكل أحكام الله تعالى، معللة بالمصالح والمفاسد، ولها علل ومقاصد وغايات عَلِمَها من عَلِمَها وجَهِلَها من جَهِلَها.

والواقع أنّ هذه المسألة كما اعترف بذلك التفتازاني[(٣)]، هي من فروع مسألة الحسن والقبح العقليين، فمن أنكر مسألة التحسين والتقبيح العقليين أنكر تعليل أفعاله بالأغراض، ومن اعترف بتلك الكبرى، لا مفر له من الإيمان بهذه، وبما أننا نؤمن ـ تبعًا لجمهور العدلية ـ بغائية أفعاله، فمن

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج١٥، ص١٦٨.

(٢) وقد اختصر المحقق نصير الدين الطوسي الكلام في هذه المسألة فقال: «في أنه يفعل لغرض، ونفي الغرض يستلزم العبث ولا يلزم عوده إليه» وعلق العلّامة الحلّي على كلامه شارحًا: «أقول: اختلف الناس هنا، فذهبت المعتزلة إلى أنه تعالى يفعل لغرض ولا يفعل شيئا لغير فائدة. وذهبت الأشاعرة إلى أن أفعاله تعالى يستحيل تعليلها بالأغراض والمقاصد. والدليل على مذهب المعتزلة: أن كل فعل لا يُفعل لغرض فإنه عبث، والعبث قبيح، والله تعالى يستحيل منه فعل القبيح. احتج المخالف بأن كل فاعل لغرض وقصد فإنه ناقص بذاته مستكمل بذلك الغرض، والله تعالى يستحيل عليه النقصان، والجواب: النقص إنما يلزم لو عاد الغرض والنفع إليه؛ أما إذا كان النفع عائدا إلى غيره فلا، كما نقول إنه تعالى يخلق العالم لنفعهم»، كشف المراد، ص٤٢٢.

(٣) شرح المقاصد في علم الكلام، ج٢، ص١٥٤.

الطبيعي أن نُعنى بالجواب على إشكالية الشرور التي تبدو منافية لحكم الخالق وهدفيّة أفعاله.

٤ ـ الشيخية ودفع الإشكاليّة

وقد قدّم الشيخ أحمد الأحسائي (١٢٤١ هـ) معالجة لإشكال الشرور، فقال: «وقد جرت حكمة الحكيم في خلقه أنه يخلق كل شيء بمقتضى قابليته، ومعنى ذلك بلسان أهل الشرع عليهم السلام أنه سبحانه يخلقهم بالاختيار، مثلًا: الأعمى إنما خلقه أعمى لأنه اختار العمى، وكذلك الأصم والمقعد والكافر والمؤمن، ولولا ذلك لكان للناس على الله حجة، كما إذا قال المبتلى: لو عافيتني لعملت كما يعمل المعافى.. ولا يحسن من الحكيم العليم الغني أن يأخذ ما أعطى بدون علّة من الذي كان أعطاه، لأنّ هذا ينافي الحكمة والغنى المطلق، وقد ذكر هذا في كتابه المجيد فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، فيلزم من هذا أنه كان عن سبب وقع من المخلوق ولا يصح أن يؤاخذ بسبب يقع منه بغير اختياره، لأنه كمن لا سبب له، فثبت أنه سبحانه أصابهم ببعض ذنوبهم، ويجري هذا الحكم على الإنسان والحيوان والنبات والجماد..»[١].

وهذا التوجيه الذي يعيد حالات الإنسان المعنوية إيمانًا أو كفرًا، أو حالاته الجسدية بصرًا أو عمى، سلامة أو مرضًا.. إلى اختياره يحتمل أحد وجهين:

الأول: أن يريد بكلامه أنّ العبد اختار ذلك فعلًا من خلال اختياره في مرحلة سابقة للطريق الذي سيفضي به إلى هذا المصير، والذي هو إمّا نتيجة تلقائية تترتب على ذلك الموقف الاختياري السابق ترتب المعلول على العلة، وإمّا نوع جزاء ـ ثوابًا أو عقابًا ـ أعده الله تعالى لسالك ذلك الطريق حتى لو لم يكن بين العمل والجزاء سنخية. وعليه، فمن عوقب بالعمى

---

(١) شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، (مدرجة في تراث الشيخ الأوحد)، ج٣، ص١٧٩،

المعنوي أو المادي، فهو إنما يعاقب على ما اجترحت يداه في العالم السابق، كما يوحي بهذا آخر كلام الشيخ الأحسائي.

ولكنّ هذا الوجه بشقيه لا يصح، لابتنائه إما على مسلك التناسخيّة، أو على بعض الوجوه في تفسير عالم الذر، وكلاهما مرفوض، أما الأول فواضح البطلان[١]، وأما الثاني، فلأن عالم الذر على القول به ليس عالم التكليف، ليكون حالنا في هذا العالم ايمانًا وكفرًا طاعة وعصيانًا من قبيل النتيجة لموقفنا هناك، بمعنى أنّ من آمن بالميثاق وأقرّ به كان في هذه بصيرًا ومن رفض الإيمان هناك كان في هذه أعمى، وهو يحاسب على عصيانه وتمرده. إنّ الرؤية القرآنية تقول: إنّ هذه الدار الدنيا هي دار التكليف والاختبار وكل مولود فيها يولد على الفطرة السليمة المهيأة والمعدة لبلوغ أعلى درجات الكمال المعنوي، والمكلف نفسه يختار هنا الإيمان أو الكفر، والطاعة أو العصيان، لا أن إيمانه أو كفره وطاعته وعصيانه في هذه الدار يكون نتيجة لموقف اختياري سابق، إذ لو كان الأمر كذلك لما كان الإنسان مختارًا وللغا تكليفه في هذه الدنيا، والحال أنها دار التكليف والابتلاء والآخرة دار الحصاد.

الثاني: أن يريد بما ذكره أنّ الله تعالى علم أنّ العبد سيختار خطَّ الهدى أو الضلالة، فخلقه في هذه الدنيا على الوضعيّة التي تناسب علمه تعالى بما سيختاره، وما سيكون عليه حاله في المستقبل، فهو سبحانه قد خلق فلانًا كافرًا أعمى البصيرة لعلمه أنه سيختار الكفر. وخلق فلانًا مؤمنًا لعلمه أنه سيختار درب الهداية.. وخلق فلانًا أعمى البصر لعلمه بأنه سيكون أعمى البصيرة مثلًا وهكذا..

وهذا الوجه ـ مع كونه بعيدًا عن مفاد كلامه ـ مرفوض أيضًا، لأننا نقبل أن يكون علمه جل وعلا بما سيفعله الإنسان المطيع باختياره سببًا لزيادة

---

(١) إنّ بطلان القول بالتناسخ قد أوضحناه بشكل مفصل في كتابنا «الشيعة والغلو»، الذي هو في طريقه إلى الطباعة.

اللطف والعناية به بعد خلقه في هذه الدار الدنيا ، إنّ هذه العناية تبدو مبررة، لأنها حتى لو كانت من قبيل المكافأة قبل أوانها فهي أمر معقول لا قبح فيه بل هو يعبر عن عظيم لطفه، ولكننا لا نقبل حرمانه المعنوي أو المادي من بعض الملكات أو الطاقات، لعلم الله تعالى بأنّه سيختار طريق الضلالة، لانّ هذا لا مبرر له، ولا يَقْطَعُ عذر المتعللين، وهو في الحقيقة من قبيل العقاب قبل استحقاقه وحصول موجبه.

المحور الثاني
القرآن والمقاربة البرهانية لمشكلة الشرور

١ ـ الشر أمر نسبي وعارض

٢ ـ كيف نبرهن على ذلك؟

٣ ـ ما منشأ خطأ الإنسان في أحكامه؟

٤ ـ استحكام الإشكالية

١ ـ الشر أمر نسبي وعارض

في الرؤية القرآنيّة الدقيقة ليس ثمّة شيء في هذا الكون يمكن وصفه بكونه باطلًا أو عبثًا أو بلا جدوى، أو شرًا كليًا ومطلقًا ومن جميع الوجوه والجهات، ويمكن تقريب وتوضيح هذه الرؤية بأحد تقريبين:

التقريب الأول: الشّر أمرٌ نسبيٌ وليس مطلقًا

إنّ النظرة المتأملة تقودنا إلى قناعة راسخة وهي أنّ الشّر أمرٌ نسبي وليس مطلقًا، قال تعالى متحدثًا عن عباده الذاكرين والمتفكرين في خلقه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، أي إنهم بتأملهم في خلق السماوات والأرض سوف يصلون إلى قناعة راسخة مفادها أن الله

تعالى لم يخلق هذا الكون باطلًا أو للباطل. وكيف يكون باطلًا والحال أنّ مظاهر النظم والعدل والاتساق بادية فيه وبيّنة لكل من تأمل وتدبر.

صحيح أنّه قد يكون في هذا الأمر أو ذاك ضرر عليك، أو لا تعي حكمته، ولكنه ـ بكل تأكيد ـ ليس شيئًا باطلًا بطلانًا مطلقًا ومن كل الجهات، فما يكون مزعجًا لك هو مريح للآخرين، بل ربما كان مريحًا لك أيضًا من حيث لا تدري، وما يكون شرًا من جهة، هو خير محض من جهات أخرى، وهذا ينطبق على كل الظواهر في هذا العالم، فالمطر والشمس والرياح وإن كانت مؤذية أحيانًا لبعض الناس، لكنها مفيدة لنظام الطبيعة برمته ونافعة للإنسان أيضًا، إذ بدونها لن تستقر حياته، وهكذا الحال في سمّ الأفعى مثلًا، فهو بالنسبة لمن تلدغه شر، لكنه بالنسبة إليها خير محض تدافع به عن نفسها، بل هو خير للإنسان نفسه من جانب معين، لأنه قد يشكل دواءً وعلاجًا لبعض أمراضه، وعلى هذا فقسْ سائر الظواهر.

والأمر عينه نقوله في سائر المصائب التي تواجه الإنسان، فالمرض شر على المريض خير بالنسبة للطبيب، بل ربما كان خيرًا للمريض أيضًا من جهات أخرى تربوية ونفسية وغيرها، كما سيأتي.

يقول الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا (١٦٧٧م): «إن الخير والشر نسبيان وفي الغالب يعودان إلى أذواق البشر وغاياتهم. وعندما يبدو لنا أي شيء في الطبيعة مضحكًا أو سخيفًا، غامضًا أو شرًا فذلك لأننا ليست لدينا سوى معرفة قليلة بالأشياء، وأننا جاهلون بنظام الطبيعة وتماسكها ككل واحد، ولأننا نريد أن تجري الأشياء وفقًا لتفكيرنا وآرائنا، مع أنّ ما يعتبره عقلنا سيئًا أو شرًا ليس شرًا أو سيئًا بالنسبة إلى نظام الطبيعة وقوانينها الشاملة الكلية. بل بالنسبة إلى قوانين طبيعتنا الخاصة المنفصلة. أما بالنسبة إلى كلمة الخير والشر فإنّها لا تدل على شيء إيجابي في حد ذاتها.. لأنّ الشيء الواحد نفسه قد يكون في وقت واحد خيرًا أو شرًا، أو لا هذا ولا ذاك كالموسيقى مثلًا فإنها خير بالنسبة إلى المنقبض النفس، وشر بالنسبة

إلى النائح الحزين الذي فقد شخصًا عزيزًا عليه وهي ليست خيرًا أو شرًا بالنسبة إلى الميت(١).

ويقول العلامة الطباطبائي: «وجود الشر أمر نسبي لا نفسي، فما يتحقق من الشر في العالم كالموت والمرض والفقر والنقص وغير ذلك إنما هو شر بالنسبة إلى مورده، وأما بالنسبة إلى غيره وخاصة النظام العام الجاري في الكون فهو من الخير الذي لا مناص عنه في التدبير الكلي، فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العناية الإلهية وهو مراد بالذات، وما كان من الشر فهو مما تعلقت به العناية لغيره وهو مقتضي بالعرَض»(٢).

ومن هنا، فإنّ على الإنسان أن يدقق النظر في الظواهر ويتمهل قبل إصدار الأحكام، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢١٦]. إنّ هذه الآية تلفت انتباهنا إلى عدم التسرع في الحكم على الظاهرة التي تواجهنا بأنها شرٌّ، فربّ أمرٍ نخاله شرًا هو في حقيقته خير لنا، فما يكون ظاهره شرًّا قد يكون باطنه خيرًا، وفي المقابل رُبّ أمر نخاله في نفعنا وهو ليس كذاك.

التقريب الثاني: الخير متأصل والشر عرضي

توجد طائفتان من الآيات تتحدثان عن الخير وصِلَتِهِ بالله تعالى:

الطائفة الأولى: ما نص على أنّ الله تعالى هو الخير المطلق والكلي، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]، وليس عنده إلّا الخير ولا يصدر منه إلّا الخير، ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤] ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

---

(١) قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ول ديورانت، ترجمة: الدكتور فتح الله محمد المشعشع، ص١٣٦.

(٢) تفسير الميزان، ج١٣، ص١٨٥.

إنّ خيرية الله تعالى هي خيرية محضة، وإذا كان الله خيرًا وكمالًا محضًا فلا يصدر منه شرٌّ محضٌ، لأن الشر المحض «لا يناسبه ولا يليق به، وقاعدة السنخية بين العلة والمعلول، تقتضي أن لا يصدر منه تعالى إلّا ما يناسب ذاته الكامل والجميل، وإلا لزم الخلف في كونه محض الكمال وهو محال»(١).

الطائفة الثانية: ما نصّ على أنّ ما يفعله الله وأنّ ما عند الله هو خير للإنسان، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٥]، وبيده الخير، ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦] ، ولا يصدر عنه إلّا الخير، وقد أعد لهم الخير الباقي وهو الخير الأوفى، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ﴾ [القصص: ٦٠]، ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧]. إن المستفاد من هذه الآيات المباركة أنّ الأصل في الخلق والهدف منه هو الخير، فالخير صفة ذاتية وأصيلة في كافة المخلوقات، وأمّا الشرّ فهو أمر عرضي وطارئ وليس من ذاتيات الأشياء، وليس أصيلًا ولا مرادًا بالذات، ولا يسعنا أن نصف شيئًا بالشر من جميع الجهات. وكيف يكون الشر متأصلًا والحال أنّ وجود المخلوقات خير، لأنّ الوجود خير من العدم، وإذا انضمت إلى الوجود خصائص إضافية فهي تزيده خيرًا على خير ونورًا على نور.

ويمكنك القول: إن المخلوقات إمّا أنّها خير محض لا يمازجه شر أو أنّ الغالب عليها هو الخير، بينما الشر فيها عرضي أو جزئي، أما الشر المحض أو الغالب فلا وجود له فيما خلق الله تعالى.

ويمكن الاستعانة في إثبات ما جاء في هذه الإجابة حول أن الأصل في الخلق هو الخير بينما الشر أمر جزئي وعرضي، بالاكتشافات العلمية التي تظهر لنا كل يوم فوائد جديدة لبعض المخلوقات أو الظواهر التي كنا لا

(١) بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، ج١، ص١٠٠.

نخال وجود نفع فيها في رؤيتنا البسيطة، وصحة هذه الكلام ستتبدى أكثر فأكثر في الأجوبة الآتية.

الفلاسفة وعدمية الشر

وأمّا الفلاسفة، فقد أجابوا على طريقتهم، فقالوا: إنّ الشر أمر عدمي، وهو «إما عدمُ ذات، أو عدمُ كمال للذات»(١)، يقول الملا هادي السبزواري: «ثم إنّ هذا الشر القليل مجعول بالعرض، ومعنى قولهم إنّ الشر مجعول ومقضي أو مقدر بالعرض شيئان:

أحدهما: أنّ الشر عدم، فلا جعل له بالذات...

وثانيهما: أنّ النار التي هي موجود من الموجودات ويقال أنها شر مجعولة بالعرض بما هي شر وشرير بمعنى أنّ الجاعل جعلها بما هي خير، ولأجل الانتفاع بها لا لأجل أن يحرق ثوب السعيد مثلًا، لكن كونها بحيث إذا يماس بدن حيوان يؤذيه لازم لوجودها وكونها بحيث يترتب عليها كمالاتها وخيراتها اللايقة بها، واللازم مستند إلى نفس الملزوم بالذات والى جاعل الملزوم بالعرض»(٢).

٢ ـ كيف نبرهن على ذلك؟

ولكن كيف يتسنى لنا أن نبرهن بشكل وافٍ وبطريق مقنع على أن الشرور أمور طارئة ونسبية؟

إنّ بالإمكان البرهنة على عدم وجود الشر المتأصل بأحد سبيلين:

الأول: السبيل العقلي، وذلك لأنّ «الأمور على خمسة أقسام: ما هو خير محض، وما خيره أكثر من شره، وما يتساوى خيره وشره، وما شره أكثر من خيره وما هو شر محض، ولا يوجد شيء من الثلاثة الأخيرة

---

(١) شرح الأسماء الحسنى، ج١، ص٢٥٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٢٤.

لاستلزامه الترجيح من غير مرجح أو ترجيح المرجوح على الراجح، ومن الواجب بالنظر إلى الحكمة الإلهية المنبعثة عن القدرة والعلم الواجبين والجود الذي لا يخالطه بخل أن يفيض ما هو الأصلح في النظام الأتم، وأن يوجد ما هو خير محض، وما خيره أكثر من شره، لأنّ في ترك الأول شرًا محضًا وفي ترك الثاني شرًا كثيرًا، فما يوجد من الشر نادر قليل بالنسبة إلى ما يوجد من الخير وإنما وجد الشر القليل بتبع الخير الكثير»[(١)].

الثاني: السبيل الحسي الوجداني، فإنّ التأمل في هذا الكون والتطلع إلى الاكتشافات العلمية المتواصلة هي خير وسيلة لإثبات تلك الدعوى. ومن هنا فإنّ علماء الطبيعة لا يرون أنّ ثمة شيئًا في هذا الكون أو في جسم الإنسان قد خُلق عبثًا أو بدون نفع أو لا لغاية، والتجربة العلميّة قد علّمتهم درسًا في التأني وعدم التسرع بإطلاق الأوصاف العريضة التي تنفي فائدة أي ظاهرة في الكون. وتذكر بعض الأبحاث العلمية أن علماء البيولوجيا ولعقود من الزمن كانوا يعتقدون أن عظام حوض الحوت هي بقايا آثار تطورية عديمة الفائدة وليس لها غرض حقيقي، ولكنّ الدراسات الحديثة أظهرت أنّ لها غرضًا وفائدة مهمة وكبيرة ولا سيما فيما يتصل بتكاثر الحيتان والدلافين وقد نُشرت هذا الأبحاث في العام ٢٠١٤ م في العديد من المجلات العلمية[(٢)]. وكنا نسمع أنّ بعض الأطباء في الأزمنة الغابرة كانوا لا يرون للزائدة الدودية الموجودة في جسم الإنسان نفعًا، وربما رغب بعضهم في إزالتها من دون التهاب أو نحوه، ولكن تطور العلم أثبت أنّها ليست زائدة كما تسمى بل إنّ لها «فائدة مناعية، حيث إنّ بها نسيجًا لمفاويًا، يعمل على تصفية البكتيريا والفيروسات الدخيلة، وتكوين مناعة ضدها».

وهذه الحقيقة المحسوسة قد أشار إليها القرآن الكريم في العديد من

(١) الميزان، ج١٣، ص١٨٨.

(٢) Peter Reuell, october 28, 2014, "Useless vestiges' no more, resealchels say" https://news.harvard.edu/gazette/story.2014/10/status-shift-for-whalc-pelvic-bones/

الآيات، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ۞ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ۞ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الحجر: ١٩ ـ ٢١] وقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩].

نعم، إنّ كل من نظر في هذا العالم الطبيعي سوف يرى أنه يعيش في عالم محفوف بشيء مما نخاله نقصًا وفجوات، ويجري فيه ما لا يرضينا، واعتقادنا أنّ هذا جزءٌ من طبيعته ويضفي عليه جمالية خاصة، وتوضيحًا لهذا الأمر نقدم شرحًا مختصرًا لذلك:

أولًا: التفاوت هو جزء من نظام عالم التكوين

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. إن من يسرح النظر في العالم التكويني سيجدُ الاعتدال والتوازن حاكمًا على كل ظواهره وحركته، وسيرى الجمال باديًا في كل مظاهره وآياته، بدءًا من الذرة ووصولًا إلى المجرّة، فكلُّ شيء موضوع في مكانه المناسب وليس هناك شيء لا وظيفة له أو خُلق عبثًا، ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، فالسماء عالم مدهشٌ بسعتها وعظمتها ودقة نظامها وتناسقها مع ما يسبح فيها من كواكب منيرة تأخذ بالألباب، فهي قائمة على أساس العدل بمعناه التكويني، أي الانتظام والاتساق، وكل شيء في ميزان، كما أشارت الآية أعلاه، وكما ورد في بعض الكلمات: «بالعدل قامت السماوات والأرض»(١)، وليس في هذه السماوات على سعتها الهائلة أية عيوب أو

(١) قائل هذه الفقرة هم بعض اليهود، وقد قالوها لما رأوا عدل النبي ﷺ في أخذ الضريبة منهم، وقد نقل الإمام الصادق عليه السلام ذلك وظاهره إمضاء ما قالوه، ففي صحيحة الْحَلَبِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام أَنَّ أَبَاه عليه السلام حَدَّثَه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَى خَيْبَرَ بِالنِّصْفِ أَرْضَهَا ونَخْلَهَا فَلَمَّا أَدْرَكَتِ الثَّمَرَةُ بَعَثَ عَبْدَ الله بْنَ رَوَاحَةَ فَقَوَّمَ عَلَيْهِمْ قِيمَةً فَقَالَ لَهُمْ: إِمَّا أَنْ تَأْخُذُوه وتُعْطُونِي نِصْفَ الثَّمَنِ وإِمَّا أَنْ أُعْطِيَكُمْ نِصْفَ الثَّمَنِ وآخُذَه، فَقَالُوا: بِهَذَا [أي بالعدل والإنصاف] قَامَتِ السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ»، الكافي، ج٥، ص٢٦٦.

نواقص، نعم قد يكون فيها مجاهيل كثيرة وأمور غير مكتشفة، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٣ ـ ٥]، هذا بالنسبة للسماء، وأما الأرض فلو أننا سرّحنا النظر إلى معالمها، إلى بحارها وجبالها ووديانها، وما ضمته في ثناياها من مخلوقات وخيرات ونِعَمٍ لا تعدّ ولا تحصى، وعلى رأس ذلك الأصناف الرائعة من الحيوانات، مع دور كل نوع منها في حياة الآخر وفي حفظ التوازن البيئي العام، لوجدنا شيئًا مذهلا لا يمكن وصفه إلّا بأنه في منتهى الدقة والاتزان والعظمة والحكمة.. ولو تجاوزنا ذلك كله وقصرنا النظر على عالم الإنسان وتأملنا في عظيم خلقه، في جسده وعقله وروحه، في لسانه وعينيه وشفتيه، في جهازه العصبي والهضمي في خريطته الجينية... فهل يسعنا إلّا الانحناء أمام قدرة المبدع الخلاق، والشهادة بين يديه مرددين مع كل ذوي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [المؤمنون ١٢ ـ ١٧].

بيد أنّ هذا الإتقان وذاك الإبداع لا يلغي وجود التنوع والاختلاف والتفاوت والتدافع، وهذه ـ أعني الاختلافات والتفاوتات ـ تعدّ جزءًا من نظام عالم الطبيعة نفسها، وهي مستندة إلى أسباب خاصة اقتضتها طبيعة الخلق الآخذة بالتطور، ومؤكدٌ أنّه بالإمكان إيجاد تفسير لهذه الاختلافات نتيجة البحث العلمي. وما هو أكثر وضوحًا وتأكيدًا أنّ ما نخاله عيوبًا أو نواقص كالزلازل والبراكين والخسوف والكسوف قد لا تكون كذلك بل لها فوائد نجهلها، ويقف وراء بعضها حكمة قد لا نعرف إلى الآن سرّها بيد أننا قد نعرف ذلك مستقبلًا، وهذا ما أكدته تجارب السنين، فكمْ من الأشياء

التي كان الإنسان يظنّها معايب وشرورًا ويحسبها من علامات غضب الإله أو الطبيعة عليه، وإذا بتطور العلم يوضح مكنونها ويكشف وظيفتها ومنافعها الباهرة، وأنها تعدّ ضرورة لاستمرار الحياة، وربما كان لها علاقة بتربية الإنسان نفسه.

ثانيًا: التنوع سرّ جمال الكون

قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النّمل: ٦٠].

ثمّ إنّ هذا التنوع والاختلاف في عناصر الطبيعة سواء كان بين أجناسها الأساسية من نبات وحيوان وجماد وإنسان.. أو داخل الأجناس عينها وما نراه فيها من أنواع مختلفة وأصناف متعددة بديعة، إنّ ذلك هو سرُّ جمال هذا الكون، وهو الذي يضفي عليه روعته وبهاءه، ويعطيه هذه اللمسة الساحرة، وقد قالوا: «والضدُّ يُظهر حسنه الضدُّ»[1]، ولو أنّ الظواهر الكونيّة فقدت هذا التنوع أو استمرّت على وتيرة واحدة لفقدت بهجتها ورونقها وجمالها، فالتغير والتبدل من حال إلى حال، من خضرة إلى يبوسة، من صغر إلى كبر، من شباب إلى مشيب، من ليل إلى نهار[2]، من

---

(١) هذا عجز بيت من الشعر، قال الشاعر:

فالوجه مثل الصبح مبيضّ ... والفرع مثل الليل مسودّ
ضدّان لما استجمعا حسنا ... والضّدّ يظهر حسنه الضّدّ

راجع: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٢، ص٥٠٣.

وقال المتنبي:

ونذمهم وبهم عرفنا فضله ... وبضدها تتبين الأشياء

(٢) قال أبو تمام:

راحت وفود الأرض عن قبره ... فارغة الأيدي ملاء القلوب
قد علمت ما رزئت إنما ... يعرف قدر الشمس بعد الغروب

ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء، يضفي على الكون لمسةَ جمالٍ فريدة، ألا ترى أنّ الظلام يمنح النور سر ضيائه، وأن اختلاف الليل والنهار يعطي لكل منها روعته وبهجته، وأنه لولا الشوك لما عرفنا قيمة الورد، ولولا الصحراء لما عرفنا قيمة الواحات الخضرة، ولك أن تقول العكس أيضًا، لأن لكل شيء في هذا الكون جماليته الخاصة، ولو أنّ الفصول الأربعة كانت فصلًا واحدًا، بحيث كنا في شتاء دائم أو خريف دائم أو صيف دائم أو ربيع دائم لما كان لهذه الحياة رونقها.

والشيء نفسه يقال في الاختلافات التي تشهدها الحياة الإنسانية والاجتماعية، فلولا المرض والألم لما عرفنا قيمة العافية، «**شيئان لا يعرف محلهما إلّا من فقدهما: الشباب والعافية**»[1]، ومن أمثال العرب: «لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية»[2]، ولولا مسّ الجوع لما عرفنا قيمة الشبع، ولولا المخاوف التي تواجهنا في الأزمات لما عرفنا نعمة الأمن، ولن يُقَدِّرَ نعمة السلطان العادل إلّا من عاش تحت وطأة السلطة الجائرة والظالمة، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام قبيل موته: «**غَدًا تَرَوْنَ أَيَّامِي ويُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي**»[3].

باختصار: إنّ التباين والاختلاف في عالم الطبيعة هو سبب دوامها وبقائها وتجددها، وهو ـ أيضًا ـ الذي يعطيها بهاءها وجمالها.

وقد يقال: إنّ هذه الأجوبة أجوبة تخديرية، أليس بإمكان الله تعالى أن يخلق عالمًا خاليًا من الألم والجوع والعاهات والتشوهات، ومع ذلك يخلق فينا الإحساس بالجمال على الدوام ويعرفنا قيمة النعمة حتى دون زوالها أو فقدها؟!

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٢٩٨.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج٩، ص١٢٥.
(٣) نهج البلاغة، ج٢، ص٣٤.

قلت: إن ذلك ممكن، ولكن هذا العالم الذي يحلم به البعض هو عالم مثالي ليس مكانه في هذه الدنيا، وإنما يتحقق هذا الحلم والأمل في النشأة الأخرى، ليكون الجائزة العظيمة التي ينالها الرابح في السباق الدنيوي، وهناك سيكون عالم الإحساس بالفرح واللذة التي لا انقطاع لها والشعور بالجمال دون ملل، ولذا وصف القرآن خمرة الجنة بأنها لا توجب الصداع... ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

ثالثًا: النقص والألم وطبيعة الحياة

وعطفًا على ما ذكرناه للتو في السطور الأخيرة، فإنّنا نقول: إنّ النقص الذي نسميه شرًا هو أمر لا مفر منه وتقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية في هذا العالم، لأنّ هذه الحياة محكومة لقوانين خاصة، فمن يتعرض للحرارة العالية سيصاب بالحمى، ومن يقرّب يده من النار سوف تحترق، ومن يعشْ في هذه الحياة عمرًا مديدًا لا بدّ أن يهرم ويشيخ وتتعطل وظائف جسده حتى يرد إلى أرذل العمر(١)، ومن يرغب في أن يعيش حياةً كريمةً يستغني معها عن أن يمد يده إلى الناس فلا بدّ له من الكدّ والمعاناة في ميدان العمل، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ولن يستطيع الوصول إلى ما يتمناه إلّا بعد عناء، والعناء هنا يغدو جميلًا لأنه سيعقبه الفرح والسرور، تمامًا كما هو الحال في ألم الولادة الذي تشعر به الأم عند المخاض، فهو ألم سرعان ما يتبدد عند رؤية الطفل بين يديها.

ويمكنك أن تضيف: إنّ تفاوت العباد في الملكات هو شرط لصلاح الحياة في هذا الكون، وإلا لو كانت الناس متساوية في كفاءاتها وملكاتها لفسدت الحياة. يقول الشاعر في الإشارة إلى أنّ الآلام هي من طبيعة هذه الحياة:

---

(١) قال زهير:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

انظر: العين، ج٥، ص٣٧٣.

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
طبعت على كدر وأنت تريدها صفوًا من الأقذاء والأكدار
ومكلِّفُ الأيام ضد طباعها متطلب من الماء جذوة نار(١)

وفي ضوء ذلك، فأمام الإنسان خياران لا ثالث لهما: إمّا أن يتقبل هذه الدنيا كما هي ويعمل على فهمها وفهم قوانينها وأسرارها ويسعى للتغلب على صعوباتها، وإمّا أن يجلس حبيس بيته نادبًا حظه العاثر، معلنًا فشله واستسلامه للأمر الواقع، والخيار الثاني ليس دليل الفشل فحسب بل ستكون نهايته الخيبة والخسران. والغريب أن نجد بعض الناس من الملحدين يتحدثون عن ضرورة تقبل هذا العالم كما هو ولا يسمحون للمصائب أن تفت عضدهم أو تسقط إرادتهم بينما نجد ـ في المقابل ـ أنّ بعض المؤمنين تأخذ الإشكالات حول عدل الله تعالى بألبابهم وتسيطر عليهم، فتفسد إيمانهم!

إنّ مشكلة البعض منا أنه يملأ حياته ودنياه كلها بالاعتراض والشكاية، بدل أن يتقبل واقعه ويعمل على تطويره إنْ استطاع، ولا شكّ أنّنا قادرون على التغيير، فما أكثر الأشياء التي كانت تفرض نفسها علينا وتجعلنا من ضحاياها كبعض الظواهر التكوينية (شدة الحرارة أو البرودة أو الزلازل)، لكن الإنسان استطاع بما أوتي من علم أن يتغلب عليها أو يتنبأ بحدوثها، ويتلافى أضرارها ويتجنب آلامها، لأنه سار وفق ما أراد الله تعالى له أن يسير عليه في حياته ومسيرته الحضارية، ألم يكن الكثيرون يموتون نتيجة الأمراض المعدية دون أن يعرفوا أنّ العدوى هي السبب؟! فلولا العلم لظلّ الموت ينشر رائحته بينهم، ألم يكن الكثير من الأولاد يولدون مشوهين نتيجة خلل هرموني معين وقد توصل العلم إلى إمكان تلافي ذلك من خلال الفحص المبكر؟! فلا يحقّ للإنسان اليوم أن يعترض ويقول: لماذا يا رب

(١) تاريخ مدينة دمشق، ج٤٣، ص٢٢٢.

رزقتني ولدًا مشوها ما دام أنّ بمقدوره أن يجري فحوصات طبية قبل الزواج وهو ما يرشده إليه الأطباء وأهل الخبرة.

٣ ـ ما منشأ خطأ الإنسان في أحكامه؟

وفي ضوء ما تقدم، فإن السؤال الذي يطرح نفسه: ما هو منشأ الخلل لدى الإنسان، ما الذي يجعله ينظر إلى الأمور هذه النظرة التشاؤمية السوداوية؟ ولماذا لا يزال إلى يومنا هذا ـ ومع كل ما تكشفه له العلوم المختلفة وتثبته التجارب من حسنات هذا النظام الكوني برمته ـ يحكم على بعض الأمور بأنّها شرّ محض، ولا يقتنع بعدل الله تعالى أو حكمته في خلقها؟

أعتقد أنّ مكمن المشكلة فيما يلي:

أولًا: النظرة الضيقة

إن النظرة الضيقة والمتعجلة التي تتحكم بالإنسان تعميه عن رؤية الأمور على حقيقتها، فيتسرع في إصدار الحكم، والعجلة هي أحد أسباب ومصادر الخطأ عند الإنسان، أكان في الفكر أو في السلوك، وهذا ما أشار إليه الحق في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. فالعجلة والتسرع تجعل الإنسان أعمى، ويدعو بالشر من حيث تخيله أنه يدعو بالخير.

أ ـ قصة الرجل القروي مع ابنتيه

ومن المناسب وتوضيحًا لما نقصده من تحكم النظرة الضيقة بالإنسان في حكمه على الأشياء، أن نذكر قصة طريفة، ومفادها:

أنّ رجلًا قرويًا صالحًا كان لديه ابنتان، وقد زوّج إحداهما وهي الصغرى من رجل مزارع وصاحب مواشي، وزوّج الكبرى من رجل فخاري (يعمل في صناعة الفخار)، وفي يومٍ من أيام فصل الخريف وبعد الفراغ من أعماله الموسمية في الحصاد وجمعِ الغلال عزم الوالد على زيارة ابنتيه، مبتدأً بزيارة الكبرى، ولما دخل عليها سُرّت به ورحبت به ترحيبًا مميزًا،

واقتنص الأب فرصة سريعة قبل أن يعود صهره من عمله، فجلس مع ابنته وسألها عن حياتها وأحوال زوجها وما يعانون من مشكلات ومصاعب؟ فقالت: يا ابتي إنّي أحمد الله وأشكره على أنّ زوجي رجل طيب وعطوف، وإنّ حياتي معه مفعمة بالاحترام، ولكنْ يا والدي لدينا في هذه الأيام قلق وخشية!

مما تخشون يا ابنتي؟ لا أقلق الله بالكم!

أجابت: إننا نخشى في الأيام القادمة من نزول المطر وأن يكون شتاؤنا قارصًا!

فسألها الأب مستغربًا: ولماذا تخشون نزول المطر وهو مصدر الحياة؟!

قالت: يا ابتي لأنّ مهنة زوجي ـ كما تعرف ـ هي صناعة الفخار، وهي مهنة تحتاج إلى طقس مشمس، لكي يجف الفخار ونتمكن من بيعه، وإذا طال نزول المطر وهطل مدرارًا فسوف تبور تجارتنا، فادع لنا الله ـ يا والدي ـ أن يحبس المطر عنا في الشتاء القادم عسى أن تبقى الشمس طالعة والطقس دافئًا ويستمر مصدر رزقنا. فما كان من هذا الأب الرؤوف إلّا أن رفع يديه بالابتهال إلى السماء، وهو لا يفكر في تلك اللحظات بشيء سوى سعادة ابنته وأن تعيش بهناء مع زوجها! نعم، رفع الوالد يديه متضرعًا إلى الله تعالى أن يحبس مطر السماء!

ومع بزوغ فجر اليوم الثاني، ودّع الوالد ابنته الكبرى منطلقًا إلى زيارة ابنته الصغرى في القرية المجاورة. دخل الأب بيت ابنته الثانية، وبعد السلام والترحيب، استغل الأب غياب زوجها ليسألها عن حالها وحال أولادها وكيف تسير أمورها مع زوجها؟ وعما إذا كانوا يعانون من ضنك الحياة وصعوباتها؟

قالت البنت ـ بعد أن شكرت الله تعالى ـ : يا والدي، إننا بخير وعلى أفضل حال، ولا نشكو من شيء، وأمّا زوجي فهو رجل صالح ومجِّد في عمله، ويكنّ لي كل الحب والاحترام، ولكنْ هذه الأيام تجتاحه بعض

الهواجس والمخاوف، فإنّ زوجي ـ كما تعرف ـ رجلٌ مزارع، وقد بدأ في هذه الأيام ببذر الأرض بالحبوب، وقد كان العام الماضي ممطرًا وإننا نخشى من تقلب الأحوال هذا العام وأن يجتاحنا الجفاف، فادع لنا ـ يا والدي ـ الله تعالى أن ينزل علينا الغيث، فينبت زرعنا وتخرج مواسمنا ونطعم مواشينا.

وكان الأب العطوف يستمع إلى ابنته وهو مأخوذ بهواجسها، فما كان منه إلّا أنّ همّ برفع يديه نحو السماء ليتضرع إلى الله ويطلب إليه أن يحقق مأمول ابنته، لكنه قبل أن ينطق بشيء مما جال في خاطره سرعان ما تذكر ما كان منه في الأمس من دعاء، استجابةً لطلب ابنته الكبرى، فعزف عن الدعاء وتجمدت الكلمات في لسانه، وانتابته حيرة وذهول، فكيف يدعو اليوم بنزول المطر، وهو الذي طلب بالأمس من الله تعالى أن يحبس المطر في هذا العام؟! وساد الصمت وغرق الأب في التفكير!!

وفي وسط هذه الحيرة والوجوم الذي ساد، قطعت البنت جدار الصمت وسألت أباه: ما لك يا أبي؟ وماذا دهاك؟ ولِمَ لَمْ تَدعُ لنا كما عودتنا؟

فأجابها الأب بعد أن استجمع أفكاره مليًا: يا بنيتي أنت تعلمين أن المثل الشعبي يقول: «لا يرضي العباد إلّا رب العباد»، ولكنّ تجارب الحياة علمتْ أباك درسًا آخر، وهو أنه لا يرضي العباد حتى رب العباد؟![1]

يا بنيتي، لقد دعوت الله بالأمس ـ استجابة لرغبة أختك ـ أن يحبس الله مطر السماء، لتتحرك تجارة زوجها، فكيف أدعوه اليوم أن يجعل هذا العام مطيرًا استجابة لرغبتك ورغبة زوجك؟!

إنّ هذه القصّة ـ بصرف النظر عن واقعيتها ـ تعبّر عن حقيقةِ حال الإنسان في هذه الحياة، وتوضّح أنّ منشأ كثير من إشكالاته على عدالة الله وحكمته هو النظرة الضيقة التي تحكمه، حيث إنّ كل واحد منا يجعل نفسه

---

(١) لم ينطلق الرجل من موقع التشكيك في قدرة الله بقدر ما انطلق من أن الإنسان لا يرضى بما قدر الله تعالى له.

المقياس والميزان، ثم يصدر حكمه على هذا الأساس، فإذا كانت الظاهرة الكونية أو الحادثة النازلة به تصبان في صالحه ونفعه وسَمَهما بالخير حتى لو كانتا مضرتين بالملايين من بني جنسه، وإن كانتا في غير صالحه وجلبتا له ضررًا ولو قليلًا وصفهما بالشر حتى لو كانتا في صالح النوع البشري برمته!

ومن المعلوم أنه إذا جُعلت المصلحة الشخصيّة هي المعيار في التقييم، فلن يبقى شيء في هذا الكون يمكن عدّه خيرًا، حتى الهواء والشمس والماء ستغدو شرًا، لأنها تتسبب بضرر البعض، فعندما تمطر السماء ـ مثلًا ـ ويتسبب ذلك بسيل معين يجرف بستان زيد من الناس فإنه سيعترض على عدل الله تعالى، ويقول: يا رب لماذا فعلت بي هذا؟ ويحكم على هذا المطر بأنه كان شرًا، مع أنه لو وسّع أفقه قليلًا لأدرك أنّ هذا المطر هو نعمة كبيرة ومصدر حياة لكل المزارعين وللناس جميعًا بل لكل كائن حي على هذا الكوكب، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وفي آية أخرى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، بل إنّ المطر حتى بالنسبة لهذا المعترض هو خير من جهات أخرى، فهو سوف يسقي زرعه وغرسه الآخر، وسوف يغسل كل أشكال التلوث المنبعثة من المصانع وعوادم السيارات وما إلى ذلك، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، وبالتالي سوف ينعم هو وعياله بتنشق الهواء الصافي.

ولهذا فالصحيح في منطق العقل وميزان العقلاء هو جعل المصلحة النوعية هي المعيار في شريّة الظاهرة أو خيريتها، وبناءً على ذلك لن يكون هناك ظاهرة طبيعية يمكن وسمها بالشر.

والكلام المذكور كما يجري وينطبق على القوانين الطبيعية، فإنه يجري وينطبق على القوانين التشريعية أيضًا، فإنّ وصفها بالصلاح إنما يكون بلحاظ مدى كونها محققة للمصلحة النوعية، ووصفها بالضرر أو الفساد إنما يكون بلحاظ مدى كونها غير محققة للمصلحة النوعية، فهذا هو المعيار.

وعليه لا يمكنك الاعتراض على عدالة التشريع لأنّه تسبب بضررك هنا أو ضرر شخص آخر هناك، مع كونه في مصلحة النوع الإنساني. إنّ عدالة القانون الشرعي أو الوضعي تنبع من هذا الأساس، وهو أن يحقق المصلحة النوعية، وقلّ أن يوجد قانون عادل يحقق المصلحة والمنفعة لأفراد الإنسان كافة، وإنما غايته أنه يحقق مصلحة النوع.

ب ـ وسعْ أفقك

ويشبّه بعض العلماء الإنسان الذي يجعل نفسه المقياس في الحكم بمن ينظر من شباك بيته العالي إلى بعض الحقول أمامه فيجد آلة كبيرة (جرافة) تحفر الأرض وتنثر الغبار في الفضاء، فيسد شباكه متذمرًا وقد يأخذ باللعن والشتم، ويقول ما هذا العمل الشرير! وهو لا يدري أنّ الهدف من هذا الجرف والحفر، هو بناء مستشفى لمعالجة المرضى، وربما يكون هو أحد المرضى الذين سوف يعالجون فيها. أو أنّ حاله كحال الشخص الأبرص الذي يؤذيه نور الشمس فيصفها بالشرّ! هل نقبل منه هذا الحكم!؟ بالطبع لا.

وأقدم هنا نصيحة مخلصة وعملية لكل من وقع في مأساة أو ألمت به مصيبة، والنصيحة هي أنّ علينا عدم الاستغراق في المأساة أو الجمود عند المعاناة التي تواجهنا، وإنما يجدر بنا أن ننطلق في مسارات الحياة ودروب هذا العالم، وأن نتحرك في رحلة من التأمل والتدبر خارج حبس الذات وأسر النفس التي أرهقتها المصيبة وأرّقها الحزن، وبذلك ستنحلّ الكثير من الإشكالات والعقد، دون حاجة إلى المرشد أو الكتاب. إنّ الحلّ لمشكلاتنا هو بأيدينا ويكمن بأن توسع أفقك، وجربْ عندما تدهمك المصيبة أن تنظر إلى هذا الكون الفسيح بعظمته ونظمه، بإحكامه وإتقانه، بروعته وجماله، فهذا سوف يساعدك ليس على فهم حكمة ربك فحسب، بل وعلى أن تتواضع عندما تكتشف ضآلة ما تعرفه بالقياس إلى ما تجهله، وهذا سوف يصونك بكل تأكيد من التسرع في إصدار الأحكام المتعجلة.

ت ـ لا تتسرع في إصدار الأحكام

ومن هنا فإننا ندعو إلى التأني قبل إصدار الحكم على الظاهرة بأنها شر أو فاجعة أو مصيبة، وهذا المطلب منطقي للغاية، والتأني أو عدم التسرع في الحكم ينبغي أنْ يدفعنا إلى القراءة والتأمل ودراسة الظاهرة من كل جوانبها ومراجعة مصادر معلوماتنا جيدًا وأن نسأل أهل الذكر والتخصص عن طبيعة الحادثة التي تواجهنا، ونتعرف على ظروفها المحيطة بها ووجوهها المختلفة ومآلاتها، وهذا لن يغني ثقافتنا العلمية فحسب، بل سوف يجنبنا الكثير من الأخطاء في التقييم الخاطئ.

وأهمّ أمرٍ يفترض بنا أخذه بنظر الاعتبار قبل إصدار الحكم هو معرفة أنّ هذه الظاهرة التي نخضعها للتقييم والدرس لم توجد صدفة وليست وليدة عملٍ ارتجالي ولا صادرة عن شخص محدود العقل وربما جانب الحكمة والصواب فيما فعل حتى يسهل فهم أبعاد فعله بسرعة والحكم عليه بسهولة، وإنما هي من فعل الله تعالى وتنتسب أو تنتهي ـ بشكل أو بآخر ـ إليه جل وعلا، فهو الخالق والمقدِّر، وهو المنظم والمصمم، وهو في الوقت عينه العليم والحكيم الذي لا يفعل عبثًا ولا لغوًا، ومن هنا فعلينا التروي في فهم الأحداث والنوازل، ولعلّه لهذا وجدنا أن القرآن الكريم قد أطلق الدعوة إلى التفكر والتدبر في ظواهر خلق الله معبرًا عنها بالآيات وهو تعبير دال على اتقانها وهدفيتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وإنّ مما يفرض علينا مزيدًا من التأني قبل إصدار الأحكام المتسرعة، هو أن علومنا وأدواتنا في معرفة ظواهر هذا الكون واكتشاف مجاهيله وأسراره مهما بلغت من التقدم والتطوّر والدقة، فإنّها لم تبلغ الكمال، بل هي تظل قاصرة عن الإلمام بالكثير من الحقائق والظواهر، ورب أمر جهلناه

اليوم قد نكتشف أمره في المستقبل، وقد حدثني بعض الاختصاصين في مجال العلوم الكونية يقول: إنّ ما نجهله عن هذا الكون يزيد على نسبة ٩٥٪، وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فهل نحكم على مجهول؟! وقد علمتنا تجارب الحياة أنّ ما لا نفهمه اليوم قد تكشف لنا الأيام سرّه ومنفعته! وكم من أمر خلناها شرًا لنا فبان أنه الخير بعينه.

ولا أبالغ بالقول: إنّ بعض الأحكام التي يصدرها الكثير من الناس حول عدم الحكمة في بعض الأفعال الإلهيّة هي أحكام متسرعة ناشئة إمّا عن جهلٍ أو عن حالة غرور علمي. وإنّ الحكمة تقتضي أن يتريث الإنسان العاقل عن تسجيل موقف متسرع اعتراضًا على إرادة الله تعالى، لدى مواجهته بعض الحوادث التي لا يفهم حكمتها وسرها.

ثانيًا: كن جميلًا ترى الوجود جميلًا

وقد يكون السبب في رؤيتنا المتشائمة لما يجري في العالم الطبيعي والبشري وغفلتنا عن كلّ عناصر الجمال والجلال فيه، هو أننا نعيش حالة من الفراغ الفكري والخواء الروحي، وتسيطر علينا الكثير من العقد النفسيّة والاجتماعيّة فتدفعنا إلى أن نحدّق فيما نخاله سلبيات ومعايب، ونغفل أو نعمى أو نتعامى عن أن نرى ما في هذه الظواهر من خير كامن في ثناياها. إنّ مشكلة الإنسان في كثير من الأحيان أنّه يضع على عين البصر والبصيرة نظارة سوداء فيرى الأشياء من خلالها قاتمة مظلمة، فيأخذ بالاعتراض على الله تعالى! ولو أنّه نزع تلك النظارة لغيّر رأيه حتمًا وأدرك أنّ اللذة قد تكون كامنة في رحم الألم، وأنّ الإحساس بالفرح الحقيقي لن يكتمل إذا لم يتحسس معنى الحزن والمعاناة. ألا نظرنا إلى الأمور نظرة عميقة لنكتشف الجمال قابعًا داخل القبح، كما اكتشف ذلك السيد المسيح عليه السلام، فقد روي أنّه «مرّ مع الحواريين على جيفة كلب فقال الحواريون رضي الله تعالى عنهم

بتقزز: ما أنتن ريح هذا الكلب! فما كان من روح الله إلّا أن ألفت نظرهم إلى ما هو جميل في هذه الجيفة، قائلًا: **ما أشد بياض أسنانه!**»[1].

يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

أيـــهـــذا الـــشـــاكـــي ومـــا بـــك داء ... كـيـف تـغـدو إذا غـدوت عـلـيـلًا

إنّ شـرّ الـجـنـاة فـي الأرض نـفـس ... تـتـوقـى قـبـل الـرحـيـل الـرحـيـلا

وتـرى الـشـوك فـي الـورود وتـعـمـى ... أن تـرى الـنـدى فـوقـهـا إكـلـيـلًا

أيـــهـــذا الـــشـــاكـــي ومـــا بـــك داء ... كـنْ جـمـيـلًا تـرى الـوجـود جـمـيـلًا

٤ ـ استحكام الإشكالية في الذهن

وقبل أن نغادر الحديث عن المقاربة القرآنية البرهانية لمشكلة الشرور، يواجهنا السؤال التالي: ماذا لو أنّ إشكال وجود الشر في العالم استحكم في ذهن المرء ما دفعه للتساؤل عن عدل الله تعالى أو حكمته، ولم يستطع لها دفعًا ولا ردًا فهل يؤاخذ على ذلك أم لا؟ وهل يؤثر ذلك على عقيدته؟

والجواب على ذلك:

أولًا: إنّ العبد إن كان لا يستطيع لهذه الأسئلة دفعًا ولا وجد إجابة مقنعة عليها رغم بذل الجهد في هذا السبيل، فإنّه لا يحقّ له أن يجهر بإعلان الموقف السلبي من الله تعالى، لأنّه إن كان لا يفهم حكمة أمر أو جدواه فإنه لا يجزم أيضًا بعدم جدوائيته أو بعبثيته، فهو يحتمل وجود سبب ولو كان غير مفهوم له أو حكمة لم يطلع عليها، وبالأخص إذا وضع نصب عينه أنّ تجارب الحياة أثبتت أنّ كثيرًا من الأمور التي كان لا يفقه سرّها وحكمتها قد انكشف مع الوقت أنّ فيها الكثير من الفوائد.

ثانيًا: إنّ حديث النفس والأسئلة التي تفرض حالها على الإنسان، إنْ

---

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج٢ ص٢٨، وتاريخ مدينة دمشق ج٤٧ ص٤٣٨. وكشف الريبة للشهيد الثاني ص١١.

فيما يتصل بوجود الله تعالى أو بعدالته أو حكمته، لا يعاقب عليها، وذلك لأن عقابه عليها هو عقاب على ما ليس في الاختيار وهو قبيح، قال تعالى ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وأضفْ إليه أنّه قد ورد في الحديث الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام: «**كُلُّ مَا غَلَبَ الله عَلَيْه فَاللَّه أَوْلَى بِالْعُذْرِ**»[1]، وهكذا فإنّ الحديث المعروف بحديث الرفع يدلّ على أنّ الإنسان لا يؤاخذ على ذلك، عن ففي صحيحة حريز عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: **قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم: **رفع عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة**»[2].

إلى غير ذلك من النصوص التي تؤكد معذورية الإنسان على ما لا يملك له دفعًا، وهذا في الواقع مما يحكم به العقل قبل النقل.

---

(١) الكافي، ج٣، ص٤١٢.

(٢) التوحيد، ص٣٥٣، والخصال، ص٤١٧، ومن لا يحضره الفقيه، ج١، ص٥٩.

المحور الثالث
القرآن الكريم
والمقاربة الإيمانية لإشكالية الشرور

١ ـ هل لنا من حق على الله سبحانه؟

٢ ـ الركون إلى حكمة الله تعالى

٣ ـ النقص وقانون التعويض الإلهي

٤ ـ قصة موسى مع العبد الصالح ودلالاتها

إنّنا نعتقد ونؤمن إيمانًا لا يشوبه أدنى شك أنّ الله سبحانه عادل وحكيم، وأنّ ما يواجهنا من أعمال ومصائب هي بكل تأكيد لا تنافي عدله ولا حكمته، وما سوف نقدمه في هذا المحور من مقاربة لإشكالية الشرور هو مقاربة إيمانية نقدِّمها لكلٍّ من يؤمن بالله ورسوله، ولا نستطيع أن نقنع بها الآخرين.

ثمة حكاية جميلة ومعروفة تُروى عن عصفور صغير وما أصابه من نكبات الدهر وعاديات الزمن، وهي بصرف النظر عن واقعيتها، لها دلالة معبرة عما نروم الحديث عنه[(١)].

---

(١) وخلاصة الحكاية:

أنّ الملائكة كانوا على موعد يومي مع عصفور جميل، يطرب مسامعهم ويشنف آذانهم بزقزقاته الجميلة وصوته الندي، فيأنسون لذلك، ويسبحون المبدع الخلاق على عظيم ما=

=خلق وصوّر، وذات يوم وبينما هم على الموعد في انتظار سماع نغمات صوت العصفور، إذا بهم يفاجؤون بالصمت مخيمًا على المكان! وطال الانتظار ولم ينبس العصفور ببنت شفة، الأمر الذي أقلق الملائكة، ولكنّهم ظنّوا أنّ عارضًا قد أصاب العصفور وعسى أن يزول سريعًا، وغابت شمس ذلك اليوم وبات الملائكة ليلتهم على الأمل، وما أن انبلج فجر يوم جديد وشارف موعدهم مع العصفور على البدء حتى سارع الملائكة إلى الاصطفاف الذي اعتادوه، والأمل يحدوهم بسماع صلوات العصفور وترانيمه مجددًا، ودخل الوقت المحدد والملائكة منشدون بمسامع قلوبهم، وأبصارهم شاخصة نحو العصفور.. ودخل الوقت المحدد ومرّ ثقيلًا، دون أن يتكلم العصفور بشيء، فاشتد قلق الملائكة وكادت قلوبهم تتفطر حزنًا وخوفًا على العصفور، وأخذوا يتساءلون: أأصابه مكروه أم ألمت به مصيبة أحزنته وأغمته؟! أم اعتراه سقمٌ ومرضٌ أخرس صوته وأسكت لسانه؟! أم أغواه الشيطان وشغله عن ذكر ربه؟؟!

وما كان من الملائكة وبعد أن استمر صمت العصفور لأيام إلّا أن توجهوا بالسؤال إلى الله تعالى، وهو العالم بمجريات الأمور والقادر على إعادة العصفور إلى حاله، فنادوه من أعماق القلوب: يا إلهنا وخالقنا يا راحم المساكين يا جابر القلب الكسير، إنّ عصفورك الصغير قد توقف عن عزفه الجميل.. فكنْ به رحيمًا ولهمه كاشفًا ولغمه مفرجًا، وادفع عنه كل كرب!

فأوحى الله تعالى إلى العصفور، على طريقته الخاصة في مخاطبة خلقه، وناجاه بلسان الحال: يا عصفوري الصغير ما الذي كدّر خاطرك؟! ومن الذي أسكت صوتك ورسم الكآبة على وجنتيك؟! سأله الله تعالى سؤال العالم، الذي يحبّ أن يسمعَ صوت مخاطبه ويرغب بأن يدنو منه عصفوره الجميل ليشكو ما ألم به وينطلق لسانه ويعبر عن هواجسه، فإنّ في ذلك راحة للنفس وتقديرًا للرب.

فأجاب العصفور بلسان الحال: يا ربي وخالقي ورازقي، يا عضدي وسندي، إنّ علمك بحالي يغني عن سؤالي!

يا عصفوري الجميل: أخبرني بما جرى، فإني أحب أن أسمع صوتك!

قال العصفور: يا سيدي ومليكي قد أتعبتُ نفسي وأجهدتها في بناء عشٍّ صغير كنت أخطط له وأرجو أن يكون مأوى ومأمنًا لي ولفراخي فيما بعد، وفي ليلة عاصفة أذنت ـ يا سيدي ـ للريح أن تهبّ وتأخذَ معها العشّ، وتبددت جهودي كلها وتحطمت أحلامي، وهجرتني شريكة حياتي، التي أصابها من الألم ما أصابني، فهذا ما أهمني وأحزنني وأخرس لساني يا سيدي..

فأوحى إليه الله: يا عصفوري الجميل، ثقْ أنّي لا أريد لك إلّا الجميل، ولا أفعل بك إلّا=

وفيما يلي نطرح الأجوبة القرآنية التي يمكن تصنيفها تحت عنوان الأجوبة الإيمانية على إشكالية الشرور، والمقصود بكونها أجوبة إيمانية أنّها تأخذ بعين الاعتبار تحكيم مبدأ أساسي في التعامل مع صعوبات الحياة ومشكلاتها، وهو مبدأ الإيمان بالله تعالى والإقرار بعدالته وحكمته والتسليم له تسليمًا مطلقًا، باعتباره الأعلم والأرحم، وطبيعي أنّ هذه الإجابات قد لا ترضي التفكير العقلي لدى بعض الناس ولكنها بالتأكيد تلقى صدى طيبًا في نفوس المؤمنين.

١ ـ هل لنا من حق على الله؟

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

إنّ إشكال الشرور نتج عن غفلة واضحة، أو مصادرة جلية وهي افتراضنا

=الأفضل وما هو خير لك، ولأنّي أحبّك فعلت بك ما فعلت!
كيف ذلك يا رباه! وأي حبٍّ هذ الذي يقضي على آمالي ويبدد أحلامي في بناء أسرتي الصغيرة أسوة بباقي العصافير!
لا تتعجلْ يا عصفوري الصغير، واصغِ إليّ لأخبرك كيف حرستك من حيث لا تدري، لقد كنت ذات يوم تحلّق في السماء مزهوًا فرحًا بعشك الصغير الذي بنيت عليه أحلامًا كبيرة، وكنت لا تنفك تتردد عليه بين الفينة والأخرى، غافلًا عما يدور حولك، وإذا بأفعى كبيرة تمرّ في الجوار ساعية خلف فريسة تلتهمها، وقد عرفت وأحست الأفعى بغريزتها من خلال ترددك على الشجرة أنك تبني فيها عشًا، فنصبتْ لك كمينًا محكمًا، وقبل أنْ ترميك بسمها الزعاف وتقع بين أنيابها أنت وشريكة حياتك أمرتُ الريح أن تهبّ وتأخذ العشّ بعيدًا، وذلك لحمايتكما من مكيدة الأفعى، وليتسنى لكما بعد ذلك بناء تجربة جديدة.
هذا ما كان من أمر العش يا صغيري، فلا تحزنْ ولا تبتئس، ولا تسمح للإحباط أن يشلّ حيويتك، وتطلّعْ إلى المستقبل، فإذا ضاعت منك فرصة، فثّمة فرصُ أخرى هي بانتظارك، أمامك متسع كبير فانهض مجددًا لبناء عش جديد.
وهنا أدرك العصفور أنه أساء الظن بالله تعالى لقصر نظره، فخرّ ساجدًا وأناب إلى الله تعالى، وانبعثت فيه الروح من جديد، فرجع إلى تلاوة ترانيمه الجميلة وانطلق يفتش عن شريكة حياته ليعاود رحلة بناء الحياة من جديد، وأدخل بذلك السرور على قلب الملائكة.

بأن لنا حقًا عند الله تعالى، وهو قد سلبنا هذا الحق ما سوّغ لنا اتهامه تعالى بالظلم، وهذا في الحقيقة فيه مصادرة بيّنة، لأنّ السؤال البديهي هنا: ما هو الظلم؟ إذا كان العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، فالظلم هو سلب صاحب الحق حقه، وعليه نسأل: أيُّ حق لنا على الله حتى نعترض عليه ونقول له: لماذا ابتليتنا وأمرضتنا وأمتنا وخلقتنا بشكل لا نريده؟!

إنّ هذا لا يعني على الإطلاق أنّ فعله تعالى عبثي أو خال من الحكمة، كلا، ولا أريد بهذا وضع حدٍ لتساؤلاتنا وفضولنا المعرفي والتعبير عن قلقنا وهواجسنا أو عدم فهمنا لبعض الأشياء، لكنّ الشيء الذي لا بدّ من وضع حدٍ له هو سخف الإنسان وغروره وتكبره وعجرفته التي تجعله يرفع نفسه إلى مستوى الندية مع الله تعالى، بما يسمح له أن يضع الله تعالى في قفص المحاكمة، ولا يجد غضاضة في إدانته وإصدار الأحكام على أفعاله جلّت آلاؤه، فيصنف فعلًا من أفعال ربه بأنه جيد، وفعلًا آخر بأنه قبيح! ويصدر حكمًا بأنّ هذا ما ينبغي لله سبحانه أن يفعله وذاك ما كان ينبغي له فعله! وهو تعالى قد عَدل هنا وظلم هناك!! نعم، هكذا حالنا نحن بني الإنسان مع ربنا وخالقنا ومالك أمرنا، فمن أنت أيها الإنسان في جنب الله تعالى؟ وما مدى سعة معرفتك وعلمك إلى جنب علمه ومعرفته، لكي تصل بك الجرأة إلى هذا الحد؟!

ولا يخفى أنّ ثمة خطابًا ثقافيًا يروّج لهذا الاستعلاء البشري على الله ويبرر هذا الأسلوب الفظّ من تعاطي العبد مع ربه، معتبرًا أنّ ذلك حق من حقوق الإنسان! ويصفق الكثيرون لهذه الجرأة، ولا يجدون فيها غضاضة!

إنّ ما ترمي إليه الآية المتقدمة ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، هو إيصال هذه الفكرة إلى الإنسان، وهي أنّ خالقه عزّ وجلّ هو فوق أن يكون محل محاكمة أو إدانة أو مساءلة من العبد.

إنه إذا كان لنا من حق على الله تعالى، فذلك الحق هو ـ سبحانه ـ مصدره وهو منحنا إياه، فما أعظمك من رب! أنت تخلقنا وترزقنا وتزودنا بكل ما نحتاج، وتمنحنا الحق في أن يكون لنا حق عليك، فما أعظمك وما أحكمك وما أحلمك! وقد تكلم الإمام علي عليه السلام في وصف الحق فقال: **«لَا يَجْرِي لأَحَدٍ إِلَّا جَرَى عَلَيْه، ولَا يَجْرِي عَلَيْه إِلَّا جَرَى لَه، ولَوْ كَانَ لأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَه ولَا يَجْرِيَ عَلَيْه، لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصًا لِلَّه سُبْحَانَه دُونَ خَلْقِه، لِقُدْرَتِه عَلَى عِبَادِه، ولِعَدْلِه فِي كُلِّ مَا جَرَتْ عَلَيْه صُرُوفُ قَضَائِه، ولَكِنَّه سُبْحَانَه جَعَلَ حَقَّه عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يُطِيعُوه، وجَعَلَ جَزَاءَهُمْ عَلَيْه مُضَاعَفَةَ الثَّوَابِ، تَفَضُّلًا مِنْه وتَوَسُّعًا بِمَا هُوَ مِنَ الْمَزِيدِ أَهْلُه»**[1].

ما لكم لا ترجون لله وقارا؟!

وبإغراء من الخطاب الثقافي المستعلي على الله والذي أشرنا إليه زادت جرأة الكثير من الناس على ربهم جل جلاله، حيث نراهم ـ وقبل أن يفكروا في سبب ما حصل معهم من مصائب ويبحثوا عن مسؤوليتهم عن ذلك، وقبل أن يتفكروا فيما إذا كان للحدث وجه أو تفسير ـ يتسرعون ويبادرون إلى الاعتراض والتشكيك وإلقاء اللوم على الله، في سلوك ينمّ ـ من جهة ـ عن جهلهم وعدم معرفتهم بالله حق معرفته، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] ، ويعبّر ـ من جهة أخرى ـ عن جرأتهم على ربهم، وهذا ما يذكرنا بقول نبي الله نوح عليه السلام فيما حكاه الله تعالى عنه مخاطبًا قومه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ [نوح: ١٣].

٢ ـ الركون إلى حكمة الله تعالى

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦].

إنّ الإيمان بحكمة الله سبحانه وسعة علمه، وفي الوقت عينه بمحدودية علمنا، إنّ ذلك سوف يسهم في رفع إشكال الشرور، ويدفعنا إلى التمهل

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص١٩٨.

والتأني قبل التسرع بالحكم على الظاهرة بأنها شرٌّ ومصيبة، لأننا عندما نؤمن بأنّ الله سبحانه حكيم وأنه لا يفعل القبيح ولا العبث واللغو، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۞ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦ ـ ١٧] فسوف نذعن بالتالي بأن كل أفعاله جلّ وعلا حسنة وطيبة، سواء اتضح لنا ذلك أو لم يتضح، وسوف نعتقد بأنّ كل ما يصيبنا هو لمصلحتنا وإن لم يتبد لنا وجهه، فقد يعجّل لنا النعمة لحكمةٍ يراها، وقد يؤخر لنا ذلك لحكمة يعلمها، ولسان العبد المؤمن بالإله الحكيم لا بد أن يلهج دومًا بقول الإمام الكاظم عليه السلام وهو يتحدث بلسان العارفين بالله تعالى: «**ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور**»(١) فكلّ ما في الكون هو فعله، وله فيه حكمة معينة، وقد تنكشف لنا هذه الحكمة والمصلحة وقد لا تنكشف حاليًا، وقد لا تنكشف إلّا يوم القيامة، وعليه، فقبل أن نتسرع ونحكم على بعض الظواهر بأنّها شر وننفي فائدتها، فلنرجعْ إلى إيماننا واعتقادنا بأن الله عالم حكيم ولا يفعل عبثًا واعتباطًا، ثم لننتظر مرور الزمان وتطور العلوم والمعارف، فإنه كفيل بكشف الكثير من الأسرار الكونية وغيرها مما لا نفهم عنها شيئًا، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وفي صحيحة داود بن فرقد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**كان فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى** عليه السلام: **أن يا موسى ما خلقت خلقًا أحبَّ إليّ من عبدي المؤمن، وإنما أبتليه لما هو خير له وأعافيه لما هو خير له، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر عبدي، فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي أكتبه في الصديقين عندي إذا عمل برضائي فأطاع أمري**»(٢).

وقد قدمنا سابقًا أنّ العقل يحكم بأن الله تعالى لا يفعل إلّا ما هو أصلح، وقاعدة الأصلح التي هي من متفرعات قاعدة التحسين والتقبيح

---

(١) تهذيب الأحكام، ج٣، ص٨٩.

(٢) التوحيد، ص٤٠٥.

العقليين، ـ بالإضافة إلى كونها قاعدة عقلية ـ تدل عليها الأخبار: من قبيل ما ورد في الحديث القدسي: «.. وإنّ من عبادي المؤمنين لمن يريد الباب من العبادة فأكفّه عنه لئلا يدخله عجب فيفسده، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالسقم ولو صحّحت جسمه لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلّا بالصحّة ولو أسقمته لأفسده ذلك، وإنّي أدبّر عبادي بعلمي بقلوبهم فإنّي عليم خبير»[١].

وتعبّر روايات أهل البيت عليهم السلام عن هذا المعنى وهو الرضا بما قسمه الله لنا تعبيرًا جميلًا، وهو أنّ المؤمن العارف بالله تعالى ينبغي له أن يحبّ ما أحبّه الله تعالى له، فعنْ عَلَاءِ بْنِ كَامِلٍ قَالَ: «كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام فَصَرَخَتْ صَارِخَةٌ مِنَ الدَّارِ! فَقَامَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام ثُمَّ جَلَسَ فَاسْتَرْجَعَ، وعَادَ فِي حَدِيثِه حَتَّى فَرَغَ مِنْه، ثُمَّ قَالَ: إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ نُعَافَى فِي أَنْفُسِنَا وأَوْلَادِنَا وأَمْوَالِنَا، فَإِذَا وَقَعَ الْقَضَاءُ فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نُحِبَّ مَا لَمْ يُحِبّ الله لَنَا»[٢].

وفي رواية أخرى عن يُونُسَ بْنِ يَعْقُوبَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِنَا قَالَ: «كَانَ قَوْمٌ أَتَوْا أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام فَوَافَقُوا صَبِيًّا لَه مَرِيضًا فَرَأَوْا مِنْه اهْتِمَامًا وغَمًّا وجَعَلَ لَا يَقِرُّ، قَالَ: فَقَالُوا: والله لَئِنْ أَصَابَه شَيْءٌ إِنَّا لَنَتَخَوَّفُ أَنْ نَرَى مِنْه مَا نَكْرَه! قَالَ: فَمَا لَبِثُوا أَنْ سَمِعُوا الصِّيَاحَ عَلَيْه، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرَجَ عَلَيْهِمْ مُنْبَسِطَ الْوَجْه فِي غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا! فَقَالُوا لَه: جَعَلَنَا الله فِدَاكَ لَقَدْ كُنَّا نَخَافُ مِمَّا نَرَى مِنْكَ أَنْ لَوْ وَقَعَ أَنْ نَرَى مِنْكَ مَا يَغُمُّنَا، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ نُعَافَى فِيمَنْ نُحِبُّ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ الله سَلَّمْنَا فِيمَا أَحَبَّ»[٣].

---

(١) علل الشرائع، ١، ص١٢، والتوحيد، ص٤٠٠.

(٢) الكافي، ج٣، ص٢٢٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّا أهلُ بيتٍ نجزع قبل المصيبة فإذا نزل أمر الله عز وجل رضينا بقضائه وسلمنا لأمره وليس لنا أن نكره ما أحب الله لنا»(١).

ويجدر بنا أن نستحضر في هذا السياق جملة السيدة زينب بنت علي عليها السلام الشهيرة، في محضر عبيد الله بن زياد في قصر الكوفة بعد أن أُدخلت عليه على هيئة السبية بعد مقتل أخيها الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، فقد قال لها ابن زياد: «كيف رأيت صنع الله بأخيك وأهل بيتك؟ فقالت زينب رضي الله عنها: ما رأيت إلّا جميلًا»(٢)، في كلمة تنضح تسليمًا واحتسابًا إلى الله تعالى، وصبرًا على بلائه ورضًا بقضائه.

ومن أجمل وأبلغ ما تضمنته آيات القرآن الكريم من دعوة إلى عدم التسرع في إصدار الأحكام، هو ما جاء في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وحيث إن الحديث عن هذه القصة سيكون مسهبًا وفي الوقت عينه على صلة بكل ما تضمنه هذا المحور في عناوينه الرئيسة، فإننا سنؤخر الحديث عن هذه القصة ودلالتها إلى آخر المحور لتكون الفقرة الرابعة والختامية منه.

٣ ـ النقص وقانون التعويض الإلهي

والإجابة الإيمانية الثالثة التي يمكن ذكرها في المقام، هي أنّ إشكال الشرور الذي يُسجَّل على عدل الله تعالى أكان من الجهة التكوينية، أو التشريعيّة، إنما يرد إذا لم يتم تدارك النقص بالتخفيف على المبتلى بالمصائب، أو التعويض عليه، وإلا لو كان النقص متداركًا والألم معوضًا، فيرتفع الإشكال.

---

(١) من لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٨٧.

(٢) الفتوح لابن الأعثم الكوفي، ج٥، ص١٢٢، ومثير الأحزان لابن نما الحلي، ص٧١، واللهوف في قتلى الطفوف، ص٩٤،

والمستفاد من مدرسة الوحي أنّ ما يواجه الإنسان من مصائب أو آلام، لا يمرّ دون تعويض، والتعويض يمثل قانونًا إلهيًا عادلًا وشاملًا لكل الذين فقدوا حاسة أو طاقة أو ولدًا أو جمالًا أو غير ذلك.

ثمّ إنّ التعويض تارة يكون دنيويًا وأخرى أخرويًا، وثمة مراعاة تشريعية لبعض ذوي العاهات والمرضى، يمكن أن نصطلح عليها ـ ولو توسعًا ومجازًا ـ بالتعويض التشريعي، وإليك التوضيح:

أ ـ التعويض الدنيوي

والتعويض الإلهي في الدنيا، يمكن تصوره على نحوين:

النحو الأول: ما قد يمكن تسميته بالتعويض السنني، والنظر فيه ليس إلى الفرد، بل إلى النوع أو المجموع، وهو تعويض من خلال القوانين، وهذا ما يمكن رصده في حياة الكائنات الحية بأجمعها، ومنها الحيوانات، فإنّها أُعطيت القدرة على التكيف مع ما تواجهه من ظروف مناخية وبيئية وغيرها من الصعوبات والقدرة أيضًا على التغلب على ذلك بما يجعلها تحافظ على بقائها واستمرارها، وكل نوع من الحيوانات، أكان مما يمشي على أربع، أو يمشي على بطنه أو على رجلين، قد أمده الله بنقاط قوة يتغلب فيها على نقاط ضعفه، ويواجه بها نقاط قوة الآخر، وهذا هو أهم العناصر الحيوية في صراع البقاء، ولولا ذلك لانقرضت الحيوانات، ولعل كثرة الإنجاب عند بعض الحيوانات التي تُطلب لحومها للأكل من الحيوانات المفترسة أو من الإنسان هو نوع تعويض للجنس الحيواني عن ضعفه أمام ما يتعرض له من محاولات افتراس، وبهذا تحفظ بقاءها واستمرارها.

وهكذا الحال في الإنسان، فإننا نرى أنّ من يتعرّض لنقص معين فإنه يُعَوَّض بطاقة أخرى، فمن تنزل عليه المصيبة ترى أن الله تعالى قد يمده بطاقة الصبر ليتغلب على المأساة التي تواجهه، وكثيرًا ما نلاحظ أنّ

المصاب بإعاقة جسدية قد يعوض بقدرات عقلية استثنائية، وقد يكون العكس صحيحًا.

وقد ورد في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام فيما روي عنه: «**بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَدًا وأَكْثَرُ وَلَدًا**»(١). وهذا الكلام الرائع يمكن درجه في قانون التعويض الإلهي المشار إليه، حيث إنّ الأمة أو الجماعة التي تتعرض للإبادة يتحوّل خوف الانقراض عندها إلى طاقة داخلية تؤثر إيجابًا بشكل تكويني لا إرادي على القدرة الإنجابية وكثرة التوالد، فتزيد القدرة على الإخصاب عند نساء هذه الجماعة والرغبة في الاستيلاد عند رجالها، وهذا ما حصل مع أبناء علي عليه السلام في التاريخ، فإنه وبالرغم مما تعرضوا لهم من محاولات الاستئصال، وإذا بهم يزدادون عددًا وانتشارًا، في بلاد المسلمين. وهذا ما يبدو أنه حاصل مع الشعب الفلسطيني المضطهد، فقد قرأت تقريرًا ذات يوم، يقول: إنّ المرأة الفلسطينية هي من أكثر النساء قدرة على الإنجاب، إنّ هذا جارٍ وفق قانون التعويض المشار إليه.

النحو الثاني: تعويض الأفراد، فإنّ الله تعالى قد يعوض الشخص الذي فقد حاسة أو طاقة بما يستطيع معه التغلب على النقص المترتب على فقد تلك الحاسة، ولكنّ هذا النحو من التعويض ليس على نحو الاستغراق، بحيث إنّ كل فرد من بني الإنسان أصابه نقص أو ألم فإنّ الله تعالى يعوضه عن ذلك، فكثيرون يموتون دون تعويض. ويمكن القول: إن التعويض على الأفراد في دار الدنيا لا يمكن أن يكون عامًا، وإلا لو كان كذلك للغا معنى التعويض الأخروي، نعم، هو متحقق بشكل جزئي، ولا يمكن إنكار ذلك، سواء التفت الإنسان إلى أن ذلك هو نوع تعويض أم لم يلتفت إليه، ألا ترى أنّ بعض الأشخاص يموت ابنه الذكر فيرى ذلك شرًا، مع أنه قد يعوض بأنثى وتكون خيرًا له من الذكر في الدنيا والآخرة، كما هو الحال في نسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ابنته السيدة فاطمة عليها السلام، فقد كان نسلًا مباركًا وفيه الخير

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص١٩.

الكثير، طبقًا لما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وسيأتي في قضيّة قتل العبد الصالح للغلام، أنّ الله تعالى قد عوّض أبويه ببنت خرج من نسلها سبعون نبيًا.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المدارس تعتبر أن تناسخ الأرواح هو نوع من التعويض الذي يناله الإنسان في الدنيا، فإنْ أحسن في مرحلته الأولى، فسوف تنتقل روحه إلى جسد جديد يعيش فيه حياة أفضل، وإن أساء في مرحلته الأولى فإنّ روحه سوف تنتقل إلى جسد يعيش فيه حياة النكد[١].

بيد أنّ هذه العقيدة باطلة بنظرنا كما أوضحنا ذلك في مجال آخر.

ب ـ التعويض الأخروي

ما تقدم كان تعويضَ عالم الدنيا، وهو ـ كما ألمحنا ـ قد لا يكون عامًا وشاملًا، وذلك طبقًا لما تقتضيه الحكمة وقوانين هذا العالم، الأمر الذي يجعله تعويضًا ناقصًا وغير كاف في حلّ المعضلة بشكل جذري، ومن هنا يبقى التعويض الأوفى هو التعويض الأخروي في يوم العطاء الأوفى، ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]، حيث ينال كل إنسان هناك ما يستحق، ويعوض أصحاب العاهات والابتلاءات والمصائب أجرًا جزيلًا على معاناتهم وصبرهم وتحملهم، ويُعطى كل امرئ على قدر المشقة في عمله، فمن ضحى ليس كمن لم يضحِّ، ومن لم يتسن له الحجّ إلّا ماشيًا ففعل، ليس كمن حج وهو يركب الطائرة، ومن قدم خدمات للإنسانية ليس كمن كان عالة على البشرية، فالثواب على قدر العطاء والمشقة، كما في الحديث عن علي عليه السلام «**أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه**»[٢]. إنّ التعويض الإلهي هو مما تقتضيه عدالة الله جلَّ جلاله، قال تعالى: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

ويرى بعضهم أن التعويض الإلهي يوم القيامة لا يقتصر على الإنسان،

---

(١) لدينا بحث حول التقمّص، سيُنشر قريبًا بعون الله في كتابنا: «التشيّع والغلوّ».

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص٥٤.

بل يشمل الحيوانات أيضًا، فالحيوانات التي تتعرض للذبح أو الاعتداء يتم تعويضها من قِبَلِ الله تعالى عما تعرضت له من ألم، يقول الشيخ الطوسي: «فكل ألم يفعله الله تعالى أو يُفْعَلُ بأمره كالهدايا والأضاحي وغير ذلك أو فعل بإباحته كإباحة ذبح البهائم فإنّ عوض ذلك أجمع على الله تعالى، لأنه لو لم يكن فيه عوض لكان ظلمًا وذلك لا يجوز عليه تعالى، ولو كان المُؤْلِمُ منا[١] لما حَسُنَ الألم، لأن ما في مقابلته من الانتصاف لا يُحَسِّنُ الألم وإنما تحسنه المنافع العظيمة الموفية عليه، وفي علمنا بحسن ذلك أجمع دليل على أن عوضه عليه، وما يفعله الله تعالى من الآلام ويأمر به وجوبا أو ندبا فلا بد فيه من العوض، والاعتبار على ما بيناه»[٢]. وبذلك يفسرون حشر الوحوش يوم القيامة[٣]. فهي لا تحشر للحساب لأنّ من لا يملك عقلًا لا يحاسب، وإنما تبعث لأجل التعويض عليها، لكن قد سجلنا بعض الملاحظات على فكرة حشر الحيوانات يوم القيامة في كتابنا «الشيعة والغلو»، فليراجع.

ويمتد التعويض الأخروي إلى الجوانب الجمالية فضلًا عن النقص الحسي في الأعضاء الأساسية، فيبعث الله القبيح جميلًا[٤]، كما يبعث

---

(١) أي من الناس.

(٢) الاقتصاد، للطوسي، ص٨٩.

(٣) يقول الشيخ الطوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]: «أن الله تعالى يحشر الوحوش ليوصل إليها ما تستحقه من الاعواض على الآلام التي دخلت عليها، وينتصف لبعضها من بعض، فإذا عوضها الله تعالى، فمن قال: العوض دائم قال تبقى منعمة على الأبد. ومن قال: العوض يستحق منقطعًا اختلفوا فمنهم من قال: يديمها الله تفضلًا لئلا يدخل على العوض غمٌّ بانقطاعه. ومنهم من قال: إذا فعل بها ما تستحقه من الأعواض جعلها ترابًا»، التبيان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٢٨١.

(٤) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجل يقال له: ذو النمرة، وكان من أقبح الناس، وإنما سمي ذا النمرة من قبحه، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أخبرني ما فرض الله عزو جل عليّ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فرض الله عليك سبعة عشر ركعة في اليوم والليلة، وصوم شهر رمضان إذا أدركته، والحج إذا استطعت إليه سبيلًا، والزكاة=

المعاق سليمًا والمريض صحيحًا معافى، ويبعث الشيخ شابًا، لأنه «لا يدخل الجنة عجوز»[(١)]. ولعلّ بعض الأصحاء يتمنون حين يرون الثواب المعد لأولئك المستضعفين والمعوقين والمعذبين لو كانوا منهم! قال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

أجل، لا بدّ أن يعلم أنّ التعويض الأخروي، مع كونه عامًا ولا استثناء فيه، بيد أنّ له شرطًا وثيقًا، وهو الصبر على بلاء الله تعالى، فمن جزع واعترض على فعل الله تعالى وعلى حكمته فلا ثواب له عنده، إلّا أن تناله رحمته، قال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧]. دلت الآية أنّ التعويض والثواب الأخروي منوط بالصبر والتسليم لله تعالى.

=وفسرها له، فقال: والذي بعثك بالحق نبيًّا ما أزيد ربي على ما فرض علي شيئًا، فقال له النبي ﷺ: ولم يا ذا النمرة؟ فقال: كما خلقني قبيحًا، قال: فهبط جبرئيل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ إن ربك يأمرك أن تبلغ ذا النمرة عنه السلام وتقول له: يقول لك ربك تبارك وتعالى: أما ترضى أن أحشرك على جمال جبرئيل عليه السلام يوم القيامة؟ فقال له رسول الله ﷺ: يا ذا النمرة هذا جبرئيل يأمرني أن أبلغك السلام، ويقول لك ربك: أما ترضى أن أحشرك على جمال جبرئيل؟ فقال ذو النمرة: فإني قد رضيت يا رب، فوعزتك لأزيدنك حتى ترضى»، الكافي، ج٨، ص٣٣٦.

(١) في السيرة الحلبية، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كانت في النبي صلى الله عليه وسلم دعابة، وعن بعض السلف كان للنبي صلى الله عليه وسلم مهابة فكان يبسط الناس بالدعابة قال صلى الله عليه وسلم لعمته صفية لا تدخل الجنة عجوز فبكت فقال لها وهو يضحك الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۞ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]، السيرة الحلبية، ج٣، ص٤٤٠، وروى الشيخ الصدوق أن شخصًا قال في محضر المأمون، إن النبي ﷺ قال: أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة قال المأمون: هذا الحديث محال، لأنه لا يكون في الجنة كهل. ويروى أنّ أشجعيّةً كانت عند النبي ﷺ فقال: لا يدخل الجنة عجوز، فبكت، فقال لها النبي ﷺ: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۞ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۞ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٢٠٢.

وقد تتساءل: إنّ بعض الناس لا يتمالكون أنفسهم عند المصيبة فيجزعون ولا يستطيعون الصبر، وربما تتملكهم شبهة فتدفعهم إلى تصور أنّ ما فعله الله بهم هو خلاف العدل، ولا يستطيعون رفع الشبهة عن أنفسهم، فهل إنّ هؤلاء يفوتهم التعويض الإلهي يوم القيامة؟

والجواب: إنّ الله عالم بضعف عباده، وما لهم قدرة على تحمله وما لا قدرة لهم على تحمله، وما يستطيعون دفعه والتغلب عليه من الإشكالات وما لا يستطيعون، وهو عز وجل أعدل وأرحم من أن يعاقب العباد على ما ليس لهم صنع فيه، أجل، هو وإن لم يعاقبهم، لكن لا يلزمه إثابة أحد منهم، لو كانت الإثابة حقًا لأحد.

هل نحن مؤمنون بالآخرة؟

ومما يؤسف له أننا ـ في حكمنا على ما يواجهنا من مآسي بأنها ظلم أو لا حكمة فيها ـ نقصر النظر على عالم الدنيا ولا ندخل تعويض الآخرة في الحسبان، وكأن الدنيا هي نهاية المطاف، ومن هنا تتوالى الإشكالات في أذهاننا، وقد لا نجد لها جوابًا، والحال أنه لو أخذنا الرؤية الدينية القرآنية بعين الاعتبار لتغيّر الحكم، وهذه الرؤية كما هو معلوم تقول: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وتقول: إنّ الدنيا «**دار مجاز والآخرة دار قرار**»(١)، وإذا نظرنا من هذا المنظار ووفق هذا المعيار، سوف تتغير الموازين والأحكام.

إن حال الشخص الذي يحكم على الألم الذي يعاني منه في هذه الدنيا، بأنه شر، ويعترض على حكمة الله أو عدالته، كحال الوليد أثناء المخاض فإنه ينزعج من ضغط الولادة وما تسببه له من كدمات وآلام، فيبكي بكاء من لا يعي السبب فيما يُفعل به، وكأنه في قرارة نفسه ساخط على أمه أو على القابلة التي أولدته.

---

(١) كما قال أمير المؤمني علي عليه السلام، انظر: نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٣.

أيها المؤمن بالله تعالى مهلًا مهلًا ولا تتعجل في الحكم على ربك.. بل كيف يسوغ لك أن تحكم على الله أو تدين أفعاله وأنت غير عالم بمآلك وما سيكون عليه حالك في شتى العوالم وفي كل الأزمان! فمن يملك علمًا بحجم اللحظة الراهنة لا يمكنه أن يصدر تقييمًا شاملًا وعامًّا وعابرًا للزمان والمكان، وإنما غاية الأمر أنّ له أن يقول: أنا لا أرى الآن وبحدود اطلاعي وجهَ حكمة في هذا الفعل الذي حصل لي، لكن لربما كان له تفسير يتبدى ويظهر في المستقبل، أما أن يصدر حكمًا كليًا وشاملًا فهو من القول بغير علم ولا دراية ولا حجة.

وربما يقول البعض: معترضًا على جواب التعويض: لماذا لم يخلق الله تعالى عالمًا كاملًا لا نقص فيه ولا عيب، ومعه فلا نحتاج إلى تدارك وتعويض؟

والجواب: إنّ هذه طبيعة عالم الحياة، وفق المخطط الإلهي المتصل بدور الإنسان فيها، فالإنسان هنا في مسيرة تكامل وفي رحلة كدٍّ وكدح إلى الله تعالى، وهذا ما يتطلّب المعاناة، كما يتطلب وجود الغريزة إلى جانب العقل والفطرة، ليتسنى للإنسان أن يسير في رحلة التكامل الروحي ويسمو نحو الأعلى. إن من يطلب حياة لا ابتلاءات فيها هو كمن يريد تجريد الدنيا من أشدِّ خصائصها التصاقًا بها، أو كمن يطلب العيش في جنة النعيم، والحال أن الإنسان قد خرج من الجنة وهو لن يعود إليها إلّا بعد أن ينجح في التجربة والامتحان، عندها يعود إلى الجنة بصفتها دار الثواب وجزاء العاملين. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: **٢١٤**]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: **١٤٢**].

ت ـ التعويض التشريعي/ تناسب التكليف مع الطاقات

وإذا كان الوعد الإلهي ينصّ على أنّ النقص لا يمر دون تعويض أخروي، فإنّ القانون الشرعي ينصّ على أنّ التكليف هو على قدر الطاقة، بما يعبّر عن التخفيف على المبتلى، وإنْ شئت سمِّ ذلك تعويضًا تشريعيًا، وبيان ذلك: إنّ عدالة الله تعالى جرت على أن يكلّف الإنسان حسب استعداده وطاقاته، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فعندما يصاب الشخص بالعمى ويُسلب نعمة البصر، فإنّه يُكلَّف بما يكلف به البصير، وعندما يسلب نعمة الصحة فيغدو مريضًا فإنه لا يُكلَّف بما يكلف به السليم، قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ﴾ [الفتح: ١٧] ومن كان فقيرًا لن يكلف بما يكلف به الغني ولن يحاسب يوم القيامة كما يحاسب الغني حيث إنّه سوف يُسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه؟ كما جاء في الخبر(١)، ومَن حُرِمَ نعمة الأولاد لن يحاسب ولن يكلف بما يحاسب أو يكلف به من رُزق الولد، وإننا نلاحظ أنّ القرآن الكريم عبّر عن الأموال والأولاد بأنهم فتنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥] وقال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

والقاعدة الشرعية والعقلية في هذا المجال تقول: إنّ كل ما ليس للعباد فيه صنع فلن يحاسبوا عليه. مثلا: إنّ لون الإنسان وطوله وعرضه وجنسه وكثيرًا من خصائصه ليست من صنعه فلا يحاسب عليها، وكذلك حالات العجز والإكراه والنسيان والغفلة التي تطرأ عليه.

وثمة لون آخر من التعويض التشريعي، وهو ما سيأتي الحديث عنه في المحور الخامس، من مسؤوليتنا الشرعيّة بالتعويض عن أصحاب المعاناة كالأيتام وذوي العاهات، والوقوف إلى جانبهم ومساندتهم معنويًا وماديًا.

---

(١) الخصال للصدوق، ص٢٥٣.

٤ ـ قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ودلالاتها(١)

وإنّ من أروع ما جاء في القرآن الكريم ملامسًا المقاربة الإيمانية حول إشكالية الشرور بإجاباتها الثلاث المتقدمة هو قصّة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فهي خير مثال قرآني يعلّم الإنسان المؤمن درسًا في الركون إلى حكمة الله تعالى، وفي ترك الاعتراض على ما يأمر به، وعدم التسرع في إصدار الأحكام دون تمهل أو رويّة، كما أنّها لا تخلو من إشارات إلى قضية التعويض الدنيوي على العبد المبتلى.

والقصة المذكورة قد تضمنت ثلاث محطات مهمة أقدم العبد الصالح على تصرف معين في كل محطة منها، ولمّا لم يلتفت موسى عليه السلام إلى حكمة الفعل اندفع إلى تسجيل اعتراضه على أفعال العبد الصالح، قبل أن يكشف له لاحقًا سر تلك الأفعال وحكمتها وأنّ هذه الأفعال التي نظر إليها نظرة مستعجلة ومن زاوية معينة فحكم فيها بتخطئة العبد الصالح لها وجه آخر، وهو لم ير ذلك الوجه ولم يلتفت إلى ذلك المغزى، وإنما نظر إلى جانب سطحي من الصورة، ولو تأملّ مليًا لربما اهتدى إلى تلك الأسرار ولحكم أنها أفعال خيرٍ وليست شرًا.

أ ـ بداية القصة

شاءت الحكمة الإلهية أن يعرف نبي الله موسى عليه السلام أنّ ثمّة عبدًا صالحًا من عباد الله لديه حظ وافر من العلم المفيد والنافع مما لا يمتلكه موسى عليه السلام، فما كان منه إلّا أن شدّ الرحال إليه، وتقدم إليه بكل تواضع، وهو تواضع لا بدّ منه في رحلة طلب العلم، وطلب منه بصراحة ووضوح أن يأذن له باتباعه في رحلة تعليميّة خاصة، وذلك في تعبير عن ثقة تامة وعظيمة بهذا الأستاذ والمعلم، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾

---

(١) إنّ قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ليست عنوانًا مغايرًا أو قسيمًا للعناوين الثلاثة المتقدمة، وإنما هي تأكيد واستشهاد قرآني من خلال هذه القصة الرائعة لكل ما جاء في العناوين الثلاثة المذكورة، ولأهميّة القصة وكون البحث فيها مسهبًا جعلناها عنوانًا مستقلًا.

[الكهف: ٦٦]، فأجابه العبد المذكور بالصراحة عينها: أنّ مثل هذه الرحلة تحتاج إلى صبر وأناة، لأنك سترى أمورًا غير مألوفة ولعلك لن تستطيع تحمل ما تراه عيناك، ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧ ـ ٦٨]، فليكن في بالنا أنّ العبد الصالح منذ البداية قد أوضح لموسى عليه السلام أن طريقي يحتاج إلى صبر، وأنه مكلّف بأمر لا يطيقه، لأنه لا يحيط به خبرًا.

فما كان من موسى إلّا أن أعطاه التزامًا ووعدًا بالصبر، لكنّ اللافت أنّه التزامٌ معلّق على المشيئة الإلهية، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، وهذا التعليق على المشيئة ربما يعبّر عن شدة ارتباطه بالله تعالى، وأنه محور أفعالنا، ولا يسعنا القيام بشيء إلّا بإذنه وتقديره، وربما أراد موسى عليه السلام بتعليق صبره على المشيئة التلميح إلى أنّ صبره قد ينفذ فهو لا يرغب بإعطاء التزام مطلق.

ثمّ لمّا أبدى موسى استعداده للصبر في هذه الرحلة، شرط عليه العبد الصالح شرطًا، وهو أن لا يسأل عن شيء أو فعل مما تراه عيناه قبل أوانه وقبل أن يكون الأستاذ هو من يبيّن له حكمته ويشرح له أسراره، ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]، ووافق موسى على هذا الشرط، وبدأت رحلة تعليمية هي بحق من أغرب الرحلات على الإطلاق، وسنرى لاحقًا فيما إذا استطاع موسى عليه السلام الوفاء والالتزام بشرط الصبر وعدم طرح السؤال أو توجيه الاعتراض قبل أوانه.

ب ـ محطات الرحلة

لقد مرت هذه الرحلة التعليمية بمحطات عسيرة وتخللتها مواقف صعبة وغريبة هذا تفصيلها:

الموقف الأول: خرق السفينة

الموقف الأول في هذه الرحلة كان عبارة عن ركوب موسى عليه السلام برفقة العبد الصالح في السفينة، وبينما كانت السفينة تسير فيهما مع أناس آخرين

إذا بالعبد الصالح يقدم على عمل استغرب منه موسى كثيرًا، وهو خرق السفينة وإحداث عيب فيها، قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا﴾ [الكهف: ٧١]، وبشكل تلقائي اندفع موسى عليه السلام للاعتراض على ما رأته عيناه من خرق السفينة، لأنّ حسّه الفطري وتعاليم شريعته السماوية فرضا عليه أن لا يسكت عما رأته عيناه، ولعلّ غرابة ما رأته عيناه أنسته الوعد الذي قطعه على نفسه، وقد ألمح بصيغة السؤال إلى اتهام العبد الصالح بتهمة خطيرة وهي أنّه خرق السفينة ليغرق أهلها! وربما تكون اللام في قوله «لتغرق أهلها» لام العاقبة(١) وليست لام التعليل، فنظر إليه العبد الصالح وذكّره بالالتزام الذي قطعه على نفسه، ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٢]، فاعتذر موسى عليه السلام على استعجاله في الحكم، معللًا ما بدر منه بالنسيان، ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٣]، وواصلا رحلتهما.

الموقف الثاني: قتل الغلام

ثم يأتي الموقف الثاني وهو الأصعب والأخطر والذي حصل بعد خروج موسى والعبد الصالح من البحر، وهذا الموقف تمثَّل بإقدام العبد الصالح على قتل الغلام، الأمر الذي أغضب موسى عليه السلام كثيرًا، فثارت ثائرته وهو يرى غلامًا بريئًا يُسفك دمه أمام ناظريه دون مبرر، ومؤكدٌ أنّ ما رأته عيناه أصابه بالصدمة وأنساه الوعد والالتزام، فاندفع في الاعتراض بشكل سريع وبتعبير فيه الكثير من القسوة اتجاه معلمه، حيث اتهمه بفعل المنكر! ولم يطرح الأمر بطريقة الاحتمال والسؤال، كما في الموقف الأول، أعني قضية خرق السفينة، قال تعالى وهو يصف ما جرى في هذا الموقف: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٤]،

---

(١) لام التعليل معناه اتهام العبد الصالح بأنه خرق السفينة بهدف إغراق أهلها، وأما لام العاقبة فتعني أنه خرقها لتكون النتيجة بعد خرقها هي تعرض أهلها للغرق ولو لم يقصد ذلك.

وعاود العبد الصالح للمرة الثانية تذكير موسى عليه السلام بأنه لا يستطيع معه صبرًا ولا يتمكن من الوفاء بالتزامه ووعده، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٥]، والتفت موسى عليه السلام إلى نفسه كمن أفاق من هول صدمة أخذت عليه بسمعه وبصره، فأعاد الاعتذار مجددًا والتأكيد على عدم تكرار ما حصل، وأنه في حال تكرر منه الاعتراض مجددًا فمن حق المعلم إنهاء الرحلة التعليمية، لأنه يكون قد أعذر إليه وأعطاه أكثر من فرصة، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، وسنرى إن كان موسى عليه السلام استطاع الوفاء بالتزامه أم لا؟

الموقف الثالث: إصلاح الجدار مجانًا

وجاء الموقف الثالث الأخير، عقيب ما يبدو أنه كان سفرًا ومسيرًا مضنيًا للأستاذ وتلميذه، وقد نفذ خلاله طعامهما، وأخذ الجوع مأخذه منهما، ما اضطرهما لاستطعام أهل قرية معينة، وأبى أصحاب القرية إطعامهما! وفي هذه الأثناء وجدا جدارًا متصدعًا يكاد أن يسقط، فأقدم العبد الصالح على إصلاحه قربة إلى الله تعالى، ويبدو أنّ لؤم أهل القرية التي أبى أهلها استضافتهما وإطعامهما جعل موسى عليه السلام يمتلئ حَنَقًا وغضبًا، وزاد من توتره أنَّ معلمه قد أقام الجدار مجانًا مع أن بإمكانه طلب الأجر على ذلك، ليعينهما الأجر على شراء طعام يسدان به رمقهما ولا يضطران لتسوّل أهل القرية مرة أخرى، فاندفع ـ أي موسى ـ للاعتراض عليه بسبب تبرعه بإقامة الجدار، قال تعالى مسجلًا ما جرى في هذا الموقف: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، وكان اعتراض موسى هذا مؤذنًا بانتهاء رحلة التعليم، وبالفراق النهائي بين الاثنين، وهكذا كان، فقد أعلن العبد الصالح نهاية الرحلة، ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ﴾ [الكهف: ٧٨] وطبيعي أن موسى تفهم الموقف ولم يبد اعتراضًا، كيف وهو من طلب منه ذلك في حال عاد للاعتراض مجددًا.

ت ـ شرح أسرار المواقف الثلاثة

ولم تنته فصول الرحلة المليئة بالمواقف والأحداث الغريبة إلّا بإقدام العبد الصالح والمعلم الإلهي بشرح وبيان خلفيات وأسرار أفعاله وتصرفاته التي أغضبت تلميذه ورفيق دربه موسى عليه السلام، قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨] وبدأ بشرح تلك المواقف التي لم يستطع موسى فهمها عليه السلام:

قضية خرق السفينة: في هذه القضية أوضح العبد الصالح لموسى بأنّ هذه السفينة مع جودتها قد كان أهلها مساكين، فأردنا بخرقها حمايتها لهم من شر سلطان ظلوم يعمل على مصادرة كل سفينة تعجبه، فإذا رأى هذه السفينة معيبة فلن يطمع بها، لأنها لا تليق بشأنه كسلطان، قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

قضية الغلام: أما الموقف الثاني وهو قتل الغلام فبماذا برره العبد الصالح؟ وهل يمكن تبرير فعل القتل، ولا سيما إذا كان لنفس زكية؟ لقد أوضح العبد الصالح لموسى أن الغلام ليس نفسًا زكية كما توهمت، وإنما هو غلام سوف يتسبب بإرهاق والديه بالعقوق والطغيان ويكون سببًا لكفرهما، قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]، والخشية هنا تختزن معنى العلم بالشيء، ولا يراد بها مجرد الخوف القائم على الاحتمال، كلا، فالمتكلم هو العبد الصالح الذي أتاه الله من لدنه علمًا خاصًا ما جعل نبيًا من أنبياء أولي العزم يتبعه، وقد روي عن ابن عباس أنّ قوله: «فخشينا» بمعنى علمنا، ثم إنّ العبد الصالح يتكلم بصفة من هو مسؤول عن العباد، فلاحظ قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ [الكهف: ٨١]. ومن ذلك كله يُعلم أنّ العبد الصالح كان عالمًا بأنّ الغلام سيرهق والديه كفرًا، أي يتسبب بكفرهما، وهذا ليس مستغربًا، فكم من الناس الذين ينحرفون عن الصراط بسبب تأثير أولادهم، وكم من الأشخاص الذين يغيرون قناعاتهم ومواقعهم بعد أن يشب أولادهم، كما حصل مع الزبير، حتى ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما زال الزبير منّا أهل**

البيت حتى نشأ ابنه عبد الله»[(١)]. وما خشي منه العبد الصالح هو كفر الوالدين، وكفر الإنسان هو موت حقيقي له وعاقبته هي شقاء الأبد، ولهذا وازن العبد الصالح قبل قتل الغلام بين أمرين: بين موت الغلام المادي وهو موت سوف ينجيه من عذاب الأبد لأنه يحول بينه وبين إرهاق والديه وتسببه بكفرهما، وبين موت أبويه المعنوي المتمثِّل بكفرهما الذي سوف يتسبب به الغلام لو بقي حيًّا، فرأى ـ فيما أوحى الله إليه ـ تقديم الحياة المعنوية لأبويه مع نجاة الولد من الشقاء الأخروي، على حياته المادية، والتي يعقبه الشقاء الأبدي، بتسببه بكفر والديه وإرهاقهما، فموته الآن هو رحمة لأبويه وله أيضًا. صحيح أنّ قتل الغلام فيه إيذاء له وإيذاء لأبويه، لكنه إيذاء وألم معوَّض، أما إيذاؤه هو فيعوض عنه بالخلود في رحمة الله، وما قيمة الألم المؤقت أمام الراحة والسعادة الدائمة؟ وأما تأذي الوالدين بموته، بسبب حبّهما له ورغبتهما بالذرية، فهذا له عوض عظيم، وهو نجاتهما من الكفر. بالإضافة إلى رزقهما بولد آخر صالح وبار بهما قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] وفي بعض الأخبار عن أبي عبدالله عليه السلام «**أَبْدَلَهُمَا الله بِهِ جَارِيَةً وَلَدَتْ سَبْعِينَ نَبِيًّا**»[(٢)].

وقبل أن نتطرق إلى بعض النقاط والإشكالات المتصلة بمقتل الغلام نشير إلى الحكمة من مسألة إقامة الجدار دون طلب الأجر عليه:

قضية الجدار: وأما في قضية الجدار، فقد أوضح العبد الصالح لموسى أنه إنما بناه لأجل هادف سام، قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فرأفة بهذين اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحًا، أردنا ترميم الجدار لحين بلوغهما وقدرتهما على الإفادة من الكنز المدفون تحته، بينما لو انكشف الآن، فسوف يضيع الكنز وربما يسرقه الآخرون، ويبدو أن يُتْمَ الغلامين هو السبب وراء عدم طلب الأجر على إقامة الجدار.

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر، ج٣، ص٤٠.

(٢) الكافي، ج٦، ص٧.

ويختتم العبد الصالح، بتوضيح أمر مهم جدًا لموسى عليه السلام، وهو أني مأمور من الله تعالى بما فعلت، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

ث ـ وقفات من وحي القصة

إنّ هذه القضية فيها مجال موسع للحديث عن الكثير من النقاط المهمة، ولكنّ التوسع في درسها لا يناسب غايتنا في هذا البحث، لذا سوف نشير إلى بعض النقاط التي هي على صلة وثيقة بقضية الإجابة الإيمانية على إشكالية الشرور:

الوقفة الأولى: هل أخطأ موسى عليه السلام بالاعتراض؟

إنّ ما أقدم عليه موسى عليه السلام من اعتراضات وتساؤلات، هي في نفسها تساؤلات طبيعية واعتراضات محقة وفي محلها، وكلُّ إنسان كان سيندفع إلى طرحها لو واجهته، بسبب منافاتها ظاهرًا مع نداء الفطرة ومع ظواهر الشريعة، بل إنه لولا العهد الذي أعطاه موسى للعبد الصالح لكان يجب (وليس يجوز فحسب) عليه أن يطرحها وأن يكون له موقف منها، لكنه قد ألزم نفسه عندما أعطاه وعدًا بالصبر على ما يرى وعدم السؤال والاعتراض على شيء ما لم ينبئه العبد الصالح بحقيقة الأمر، ناهيك أن موسى عليه السلام على معرفة بهوية العبد الصالح، هذه المعرفة التي دفعته لطلب التلمّذ على يديه، وفي بعض الأخبار عن الإمام الرضا عليه السلام أن العبد الصلح قال له منذ البداية: «**إنك لن تستطيع معي صبرًا، لأني وُكِّلت بعلم لا تطيقه، ووكلت أنت بعلم لا أطيقه**»[(١)]، ومع ذلك فإنّ خطأ موسى عليه السلام لا يخدش بعصمته، لأنّ ما رأته عيناه أنساه ما قطعه على نفسه من التزام، ولذا قال له: ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣]، وهذا المقدار من النسيان لا يخدش بالعصمة كما يرى جمع من المفسرين، وثمّة من يطرح وجهًا آخر في رفع الاعتراض على عصمة موسى عليه السلام، فليطلب ذلك من كتب التفسير الموسَّعة.

---

(١) علل الشرائع، ج١، ص٦٠.

وربما كان حال الكثيرين منا عندما يسارعون في إصدار الأحكام إزاء بعض الابتلاءات التي تواجههم أو تواجه غيرهم كحال موسى عليه السلام، وكما كان موسى معذورًا فيما طرحه من أسئلة على العبد الصالح، فربما كان الكثيرون منا معذورين في أسئلتهم التي يطرحونها إزاء ما يواجهونه من أعمال ظاهرها مستفز ومخالف للشرع، مع أنّ قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح ترمي إلى تعليمنا درس الصبر والتأني وعدم التسرع في إصدار الأحكام.

الوقفة الثانية: مدى انسجام أفعال العبد الصالح مع ظواهر الشريعة

هل أفعال العبد الصالح جارية على أساس ظواهر الشريعة؟

ثمة اتجاه في التفسير ذهب إلى محاولة توجيه أفعال العبد الصالح بما يجعلها منسجمة مع ظواهر الشريعة، وذلك بالتقريب التالي: وهو أنّ خرق السفينة جارٍ على وفق القاعدة الشرعية، وهي قاعدة «دفع الأفسد بالفاسد»، فإنّه قد كان أمام العبد الصالح خياران: حفظ السفينة لأهلها بإحداث عيب فيها، أو تركها سليمة فيغتصبها الحاكم الظالم، ولا شك أنّ أهون الأمرين هو إعابتها لتحفظ لأهلها. وهكذا فإنّ قتل الغلام جارٍ على طبق القواعد الشرعية أيضًا، لأنّ الغلام كان كافرًا مرتدًا ويعمل على إرهاق أبويه والتسبب بكفرهما، فكان مستحقًا للقتل، وأمّا الحادثة الثالثة، (ترميم الجدار دون طلب الأجر عليه) فمن الواضح أنها لا تنافي الشريعة أبدًا، لكونها تمثل نوعًا من الإيثار الرفيع، الذي يدفع الكريم إلى عمل الخير دون أن يطلب عليه أجرًا، مع حاجته للأجر، وذلك على طريقة ما فعله أهل البيت عليهم السلام، في إطعام المسكين واليتيم والأسير، ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

هذا ولكنّ توجيه قضية قتل الغلام بما ذكر غير مقنع، لأنه منافٍ لظاهر الآيات المباركة، فإنّها تدلّ على أنّ قتله ليس بسبب كفره أو ارتداده، وإنما بسبب ما سيفعله بأبويه من طغيان وكفر في المستقبل، ومعلوم أنّ هذا ليس

من مبررات القتل في الشريعة، فالإنسان إنما يعاقب بعد ارتكابه الجريمة وليس قبلها.

كما أنّ تبرير خرق السفينة بما ذكر لا يخلو من إشكال، لأنه من الناحية الفقهيّة لا يحقّ لك أن تعيب أو تتلف مال شخص لأجل حمايته من السرقة.

على أنّ القصة برمتها ليست قصة أحكام شرعيّة أريد لموسى عليه السلام أن يتعلمها في رحلته مع العبد الصالح، فموسى عليه السلام هو صاحب شريعة وليس بحاجة للعلم الشرعي، وهو إنما اتبع العبد الصالح لهدف آخر، وهو معرفة الحقائق والخفايا أو ما يصطلح عليه بالعلم اللدني، والذي لا يضرّ الجهل فيه بنبوة موسى أو غيره من الأنبياء عليهم السلام، لأنّه ليس من شرط النبي عليه السلام أن يطّلع على مثل ذلك العلم الذي يملكه العبد الصالح، أو أن يطّلع مثلًا على علم الفيزياء والكيمياء، وذلك طبقًا لاتجاه كلامي قوي يتبناه غير واحد من الأعلام ومنهم الشيخ المفيد[1]، وإنما من شرط النبوّة أن يطلعه الله تعالى

---

(١) وُجِّه إلى المفيد السؤال التالي: «الأنبياء عندنا معصومون كاملون، فما بال موسى عليه السلام (كان) تلميذًا للخضر وهو أعلى منه، ثم أنكر على الخضر فعله والحق فيه؟ فكان جوابه: إنّ موسى عليه السلام اتبع الخضر قبل أن ينبأ ويبعث، وهو إذ ذاك يطلب العلم ويلتمس الفضل فيه. فلما كلمه الله وانتهى من الفضل في العبادة والعلم إلى الغاية التي بلغها، بعثه الله تعالى رسولا واختاره كليما نبيا. وليس [في] اتباع الأنبياء العلماء قبل نبوتهم قدح فيهم ولا منفر عنهم، ولا شين لهم ولا مانع من بعثتهم واصطفائهم. ولو كان موسى عليه السلام اتبع الخضر بعد بعثته لم يكن ذلك أيضًا قادحا في نبوته، لأنه لم يتبعه لاستفادته منه علم شريعته، وإنما اتبعه ليعرف باطن أحكامه التي لا يخل فقد علمه بها لكماله في علم ديانته. وليس من شرط الأنبياء عليهم السلام أن يحيطوا بكل علم، ولا أن يقفوا على باطن كل ظاهر. وقد كان نبينا محمد صلى الله عليه وآله أفضل النبيين وأعلم المرسلين، ولم يكن محيطا بعلم النجوم، ولا متعرضا لذلك ولا يتأتى منه قول الشعر ولا ينبغي له. وكان أميا بنص التنزيل ولم يتعاط معرفة الصنائع ولما أراد المدينة. استأجر دليلا على سنن الطريق. وكان يسأل عن الأخبار ويخفى عليه منها ما لم يأت به إليه صادق من الناس، فكيف ينكر أن يتبع موسى عليه السلام الخضر بعد نبوته ليعرف بواطن الأمور، فيما كان يعلمه مما أورده. الله سبحانه بعلمه، من كون ملك يغصب السفن، وكنز في موضع من الأرض، وطفل إن بلغ كفر وأفسد، وليس عدم العلم بذلك نقصًا ولا شيئًا ولا موجبًا لانخفاض عن رتبة نبوة وإرسال. وأما=

على ما يتصل بمسؤوليات العباد وتكاليفهم وحقائق دينهم، وما يقربهم من الله تعالى، وما فيه نظم أمور معاشهم، وضمان السلامة لهم في معادهم.

فالأقرب أنّ ما فعله العبد الصالح ليس تطبيقًا حرفيًا لأحكام الشريعة السماوية، وإنما كان تجسيدًا لإرادة الله التكوينية والتي قد تكون مفارقة في بعض الأحيان مع الإرادة التشريعية. صحيح أن النظام التشريعي غالبًا ما يكون متسقًا ومنسجمًا مع نظام التكوين، وهذه من أهم سمات التشريع الإلهي، لكن في بعض الأحيان قد تقتضي المصلحة أن يفارقه، فعلى سبيل المثال: إن إرادة الله تعالى التكوينية قد تقتضي ابتلاء العبد ببعض المصائب والآلام والأمراض، وواضح أنّ هذه الإرادة لا مصلحة عامة في تحويلها إلى إرادة تشريعية أيضًا، بحيث يكون مطلوبًا من العبد أن يتسبب بإيقاع نفسه أو غيره في الأمراض والمصائب، كما ذكرنا ذلك سابقًا. وفي مبحث اللعن من كتابنا فقه العلاقة مع الآخر المذهبي، ذكرنا أنّ لعنه تعالى لشخص معين، هو عبارة عن فعله التكويني، الذي يعني طرد الملعون من رحمته، وهذا ليس بالضرورة أن يترشح عنه إرادة تشريعية تسمح بلعن هؤلاء، ولا سيما بلحاظ ما يترتب على لعن العبد لأخيه العبد من تداعيات وردات فعل.

وثمّة شاهد آخر على أنّ المصلحة قد تقتضي أن يفارق التشريع النظام الواقعي التكويني، وهو أنّ الأخير يقتضي الحكم على الأشخاص على أساس الواقعيات، وهذا ما لا يتحمله الناس لو أريد التعامل معهم على هذا الأساس، وربما استلزم أخذهم بحقائق الواقع الإخلال بنظام الحياة الاجتماعية، ولذا جرت إرادة المشرع الحكيم على الأخذ بالظاهر، كما

=إنكاره عليه السلام خرق السفينة وقتل الطفل فلم ينكره. على كل حال، وإنما أنكر الظاهر منه ليعلم باطن الحال منه. وقد كان منكرا في ظاهر الحال وذلك جار مجرى قبول الأنبياء عليهم السلام شهادات العدول في الظاهر وإن كانوا كذبة في الباطن وعند الله، وإقامة الحدود بالشهادات وإن كان المحدودون براء في الباطن وعند الله. وهذا أيضًا مما لا يلتبس الأمر فيه على متأمل له من العقلاء»، المسائل العكبرية، ص٣٤ ـ ٣٥.

نلاحظ في قاعدة السوق أو قاعدة الفراش، وغيرهما، وقد لاحظنا أن النبي ﷺ نفسه ما كان يحكم ويقضي على أساس العلم الخاص الذي قد يمده به الله تعالى، وإنما كان يحكم على أساس الظواهر، وذلك امتثالًا لما أمره به الله تعالى، وقد ورد في الحديث عن هشام بن الحكم عَنْ أَبِي عَبْدِ الله عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ والأَيْمَانِ، وبَعْضُكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِه مِنْ بَعْض فَأَيُّمَا رَجُلٍ قَطَعْتُ لَه مِنْ مَالِ أَخِيه شَيْئًا فَإِنَّمَا قَطَعْتُ لَه بِه قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**»[(١)].

الوقفة الثالثة: كيف نفهم قتل الغلام؟

وبناء على ذلك، فإنّ قضية قتل الغلام، لم تجر على أساس أحكام الشريعة، ومع ذلك فإنّ لها ما يبررها وينفي كونها عملًا مستقيمًا، وبيان ذلك:

أولًا: إنّ قتل الغلام لم يكن لمجرد التخوّف الاحتمالي مما سيتسبب به من انحراف والديه وإرهاقهما طغيانًا وكفرًا، كما قد توحي به كلمة «فخشينا» لأول وهلة، وإنّما هي خشية من وقوع أمر مؤكد الحصول، كما نقل عن ابن عباس، والعبد الصالح يستخدم ضمير الجمع، فيقول «فخشينا» ولم يقل فخشيت، فهو يمثل الجهة التي أمرته بذلك، وهي جهة مسؤولة عن أمر الناس ومستقبلهم الإيماني، ويشهد لذلك أنه قال بعد ذلك: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ [الكهف: ٨١]حيث تكلم بلغة جازمة لا تردد فيها بحصول الاستبدال، وهذا أمر لا يعلمه إلّا الله تعالى أو من أعلمه الله بذلك.

ثانيًا: إنّ الآية تؤكد أنّ هذا الغلام سيرهق والديه طغيانًا وكفرًا، فشاء

---

(١) الكافي، ج٧، ص٤١٤، وتهذيب الأحكام، ج٦، ص٢٢٩، وعنه وسائل الشيعة، الباب ٢، من أبواب كيفية الحكم، الأحاديث رقم: ١ ـ ٢ ـ ٣. وهو مروي في مصادر السنة، راجع: صحيح البخاري، ج٣، ص١٦٢، وراجع صحيح مسلم، ج٥، ص١٢٩.

الله أن يقبض روحه، وذلك لما أسلفناه من أنّه بين موت الغلام المادي (بالقتل) وموت أبويه المعنوي (بكفرهما)، تمّ تقديم الحياة المعنوية لأبويه، على حياته المادية، والتي ستمثل شقاءً أبديًا بالنسبة إليهما أيضًا، بتسببه بكفر والديه وإرهاقهما، فموته الآن هو رحمة لأبويه وله أيضًا، مع تعويضهما عنه بولد صالح بار بهما، قال تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١].

ثالثا: إنّ العبد الصالح هنا هو يد الله ويجسد أمره تعالى، ولذا نراه يقول بعد ذلك لموسى عليه السلام: هذا تأويل ما فعلته، وإني لم أفعل ذلك من تلقاء نفسي، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: **٨٢**] وإنما فعلته عن أمر ربي، فهو بمثابة أداة تنفيذية لإرادة الله التكوينيّة، فيكون أشبه بالمَلَك الذي ينفذ إرادة الله تعالى، ولقد كان من الممكن أن يجسّد الله تعالى إرادته ومقصده (حفظ إيمان الأبوين وسلامة مصير ابنهما) من خلال مرض أو زلزال أو حادث يتسبب بموت الولد، ولكن ذلك يُظهر الموت كأمر عادي لا يفهم الناس سره، لأنه مألوف لهم، فأراد تعالى بتكليف العبد الصالح بهذه المهمة أن يظهر لنا حكمته الغائبة عنا في كثير من الأحيان، والتي لن نلتفت إليها لو حصل الموت بطريق اعتيادي. فكما أننا لا نستغرب كثيرًا بالموت الجاري وفق السنن المألوفة لنا فإنّ علينا أن لا نستغرب بالموت عن هذا الطريق، فهو أيضًا تطبيق لإرادة الله تعالى.

وبناءً على ما تقدم، يتضح أنّ هذا العمل هو إذن خاص للعبد الصالح، وليس منطلقًا من قاعدة تشريعية لتحتذى، فلا معنى ليقولنّ قائل: إنّ بإمكاننا أن نقتل من نعلم بأنه سوف يتسبب بكفر أبويه مثلًا، وكذا لا مجال للاعتراض بأنّ ما فعله العبد الصالح هو من العقاب قبل الجريمة، وهو غير جائز، إنّ هذا وذاك لا وجه له، لأنّها اعتراضات تأخذ ظواهر الشريعة في الحكم على الأشياء، مع أنّ ما فعله العبد الصالح لم ينطلق من قاعدة تشريعية وإنما هو جارٍ وفق إذن إلهي خاص.

ج ـ الهدف من القصة

وإن سألت: ما هو الهدف من وراء هذا الإذن الإلهي للعبد الصالح بتجاوز الشريعة؟ وإذا لم تكن أفعاله للاقتداء، فلماذا ذكر لنا الله تعالى قصته في القرآن الكريم؟

كان الجواب: إنّ في ذلك أكثر من هدف وغرض وحكمة:

منها: بيان أهمية وجود المعلم الإلهي في حياة الشخص وضرورة البحث عن هذا المعلم، كما بحث موسى عليه السلام عن العبد الصالح.

ومنها: أهمية التواضع في طلب العلم، فموسى عليه السلام على عظيم قدره لم يستنكف عن اتباع شخص كان لديه علم يستفيد منه، ولذا تقدم بكل تواضع طالبًا من العبد الصالح أن يأذن له باتباعه، والإفادة منه، فيقول: ﴿أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ [الكهف: ٦٦]، وعلى طالب العلم أن يتواضع في رحلة طلب العلم.

ومنها: درس الصبر والتحمل في رحلة طلب العلم.

ومنها: درس التأني وعدم الاستعجال في الحكم، فقد أراد الله تعالى لموسى عليه السلام وكذلك لجميع عباده أن ينظروا إلى أعماق الأمور، ولا تأخذهم الظواهر، لأنه إذا كان ثمّة فعلٌ قد صدر من ولي من أولياء الله لم يستطع موسى عليه السلام الالتفات إلى أعماقه وأسراره، فما بالك بالأفعال الصادرة عن الله تعالى، فليس من الصحيح التسرع في الحكم عليها.

باختصار: إنّ الدرس الأساس في هذه القصة هو أن التمهُّل وعدم التسرّع في إصدار الأحكام الاعتراضية على الأفعال الصادرة من الله تعالى، أو من المعصوم المأمور بهذه الأفعال من قبل الله تعالى، فلربما كان خلف هذا الظاهر سرّ عميق نجهله وستبديه لنا الأيام.

والغريب أن العبد الصالح قد أوضح لموسى منذ البداية أنه لا يستطيع أن يصبر على ما ستراه عيناه، وذلك بسبب أنه لم يحط خبرًا بما سيواجهه، ومع ذلك عندما واجه الأحداث لم يستطع موسى عليه السلام الصبر ولا تنبّه إلى أنّ

وراء هذه الأفعال أسرارًا خاصة، ولما بيّن له معلمه حقائق ما أقدم عليه، كان من الطبيعي أن يعي هذه الأمور جيدًا، ما يعطينا درسًا بليغًا في أنّ علينا أن نعي أن كل ما يتصل بأفعال الله تعالى هو مما ينبغي التدبر فيه مليًا قبل إصدار الأحكام.

ونظير هذا الدرس هو ما حصل لداوود عليه السلام في قضية الخصمين اللذين تسوّرا عليه المحراب، بناءً على كونهما من الملائكة، فإن الله تعالى أراد أن يوصل رسالة إلى داوود في ضرورة التأني قبل إصدار الحكم وضرورة الاستماع إلى كل أطراف الدعوى.

خ ـ مواقف مشابهة في حياة موسى عليه السلام

والمتأمل في قصة موسى عليه السلام يثير انتباهه أنّ هذه الأفعال التي كانت محلّ اعتراض كليم الله موسى عليه السلام على العبد الصالح، قد وقع موسى شخصيًا في نظائرها، إما قبيل تلك الرحلة أو بعدها، وكأن الله تعالى أراد من خلال العبد الصالح أن يقول لموسى عليه السلام إنك واجهت أو ستواجه نظير هذه الأفعال في حياتك فتنبّه لذلك، وتوضيحًا لهذا الأمر نقول:

أولًا: إنّ قصة السفينة التي خرقها العبد الصالح مما خاله موسى عليه السلام ـ بحسب الظاهر ـ فعلًا غير حكيم، مع أنّ الغاية من خرقها أن تسلم لأهلها من الملك الظالم، قد حدث نظيرها مع موسى، فقد وضعته أمه ذات يوم في سفينة صغيرة وألقته في اليم، وقد كان الناظر إليها وهي تقذف ولدها في اليمّ يخال أنّها تقوم بعمل سفهي ولا إنساني، فأيُّ أمٍّ تلقي ولدها في اليم؟! مع أنّ التدبر في الأمور وعواقبها يفضي إلى نتيجة مفادها أنّ ما فعلته كان عين الصواب، ففيه إنقاذٌ لموسى عليه السلام، فقد أوصله التابوت إلى بيت فرعون، لتُعجب به زوجته ويكون ذلك سبب حمايته من بطش فرعون الذي كان يقتل الذكور من بني إسرائيل، كما نص القرآن الكريم على ذلك.

ثانيًا: إنّ قضية قتل الغلام، الذي أقدم عليه العبد الصالح لينقذ أهله من

جوره وطغيانه، قد فعل موسى عليه السلام نظيرها، فقد قتل ذات يوم قبطيًا ظالمًا ليخلص إسرائيليًا مظلومًا من شرّه، والحال أن الناظر إلى ظواهر الأمور قد يجد موسى عليه السلام ظالمًا.

ثالثًا: وأما قضيّة إقدام العبد الصالح على إقامة الجدار دون أن يطلب على ذلك أجرًا رغم حاجته وحاجة موسى عليه السلام الماسة إلى شراء الطعام، فهي أيضًا قضية جرى مع موسى عليه السلام نظيرها، وهو ما فعله موسى مع ابنتي شعيب النبي عليه السلام، فكأن العبد الصالح يقول له: أنا ساعدت اليتيمين لضعفهما، وأنت ساعدت الامرأتين في موقف مشابه، لضعفهما وعدم قدرتهما على مزاحمة الرجال، وذلك عندما رآهما موسى تذودان الغنم عن ماء مدين ولما سألهما عن سر ذودهما للغنم عن الماء فأوضحتا له أنّهما مضطرتان للرعي، لأن أبوهما رجل كبير وأنّ تربيتهما لا تسمح لهما بمزاحمة الرجال على الماء، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] فاندفع موسى عليه السلام بغيرته الدينية وحسّه الإنساني المرهف إلى مساعدتهما دون أن يطلب لقاء ذلك أجرًا، مع أنه محتاج إلى ما يقيت به نفسه، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وهكذا انطلق العبد الصالح بإيحاء من الله تعالى وفطرته السليمة إلى إقامة الجدار دون أن يطلب على ذلك أجرًا. وإذا كان جدار اليتيمين يخفي تحته كنزًا عظيمًا لهما وهو كنز مادي، فإنّ موقف موسى عليه السلام مع الفتاتين وما أعقبه من الزواج بإحداهما قد تكلل - بعد أداء الأجل الذي قطعه لشعيب كمهر للزواج بابنته - بعثوره على كنز هو من أعظم ما يكون، وهو كنز معنوي لا يوازيه شيء، وهو النبوة وتكليم الله له، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

المحور الرابع
القرآنُ والمقاربة التربويّة
لإشكاليّة الشرور

١ ـ المصائب وامتحان الإرادة

٢ ـ المصائب وإيقاظ الضمير

إنّ من أهمّ ما دعا إليه القرآن الكريم قبل التسرع بإصدار الحكم على المصائب والشرور هو ضرورة عدم جعل المعيار في الحكم عليها مقتصرًا على النظر إلى الآثار والنتائج والفوائد المادية فحسب، وإنما علينا ـ كما أشرنا سابقًا ـ أن ننظر إلى آثارها المعنوية والنفسية والتربوية، وبهذا اللحاظ قد يتغيّر الحكم، فتغدو خيرًا وليس شرًا. وإنّ قوله تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] يعبر عن إرشاد قرآني رائع إلى عدم التسرع في الحكم بالشرية على ما يواجهنا من تحديات، فإنّ ما نخاله شرًا قد يكون في عمقه خيرًا كبيرًا لنا، بسبب ما له من دور في صقل إرادتنا وتهذيب أنفسنا. وهذا الأمر نوضحه من خلال النقطتين التاليتين:

١ ـ المصائب وامتحان الإرادة

إنّ المصائب في رؤية القرآن الكريم، تمثّل ابتلاءً للإنسان، والابتلاءات التي تواجه الإنسان في رحلته في هذه الحياة ـ كما أوضحنا في محور سابق من الباب الأول ـ لها فلسفة خاصة: بحيث إننا لا نجافي الحقيقة إذا قلنا إنّ

الابتلاءات هي خير مدرسة لتربية الإنسان وتهذيبه، ففيها يُختبر إيمان العبد وصبره وإرادته، وهي تسهم في إخراج طاقاته وإبراز مكنوناته، وبها يميّز الله الصادق من الكاذب، والناجح من الفاشل، ويقيم الحجة على عباده، حتى إذا حاكم الله تعالى العبدَ يوم الحساب يكون قد أقام الحجة عليه من خلال التجربة العمليّة التي عايشها في الدنيا، فرسب، أو نجح. وهي تصقل شخصيته، وتعزز تجاربه، وتمدّه بالقدرة على الصمود في مواقع التحدي، وهي تؤهّله ليكون أقسى عودًا وأكثر نضجًا وخبرة، وأقوى شكيمة وعزيمة، وأقدر على مواجهة صعوبات الحياة وتحدياتها، فلا يسقط أمام أدنى هزة يتعرض لها، أو ينهار عند تعرضه للمصاعب. ناهيك عن أنّ المصاعب والمصائب ـ كما قلنا في محور سابق ـ هي جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة، وكأنها لازمٌ لا ينفك عنها، فلن تخلو حياة أي فرد من مآسٍ أو أمراض أو أوجاع، فإذا أحسنّا التعامل معها سنخرج أكثر تماسكًا وقدرة وسيمكننا ذلك من الانتصار على الأعداء، وعدم الخضوع لهوى النفس.

أ ـ دروس الأنبياء عليهم السلام

وهذه دروس التاريخ تعلمنا أن كل الشخصيات الاستثنائية والمؤثرة على المستوى الروحي والمعنوي وعلى رأسهم الأنبياء عليهم السلام والأئمة عليهم السلام هم من خريجي مدرسة الابتلاءات والمكابدات، وقد حكى لنا القرآن الكريم قصص معاناتهم وآلامهم وما تعرضوا له من تكذيب وإيذاء وتشريد:

فهذا نبي الله نوح عليه السلام ابتُلي بقوم فجرة كفرة فكذبوه وجحدوه، قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٢].

وذاك شيخ الأنبياء إبراهيم عليه السلام ابتُلي بقوم عتاة واجهوا دعوته لهم بالتكذيب وعزموا على إلقائه في النار، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠]. بل ابتلي بما هو أشدّ وأمرّ من ذلك،

عنيت بذلك أَمْرَ الله له بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام فاستجاب لربِّه طائعًا في تحدٍ عظيم لعاطفة الأبوة لديه، كما صبر ابنه إسماعيل على هذا الابتلاء العظيم وقدم رقبته للذبح مسلمًا لأمر الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٧]. إنّ نجاح إبراهيم عليه السلام في هذه الابتلاءات هو الذي جعله مهيأً لارتقاء أسمى المراتب المعنوية عند الله تعالى، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وذاك موسى كليم الله عليه السلام بدوره لقي من قوم فرعون إيذاءً وتشريدًا، فخرج من المدينة خائفًا يترقب بعد أن قرروا قتله(١)، وفي هجرته هذه المليئة بالمعاناة تعرف على شعيب النبي عليه السلام وتزوج إحدى ابنتيه، فكان جزاء صبره وتحمله واستقامته هو الوصول إلى مقام عظيم وهو تكليم الله تعالى له وجعله نبيًا(٢)، وبعد النبوة بدأت رحلة جديدة من المعاناة ليس مع فرعون وملئه فحسب، بل مع قومه من بني إسرائيل، فلقي تكذيبًا وعنتًا ولجاجة قلّ نظيرها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وأما نبينا وسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقد عاش حياته من المهد وإلى اللحد في خضم الابتلاءات والمصاعب، حتى قال فيما روي عنه: «ما أوذي نبي مثل

---

(١) قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠ ـ ٢١].

(٢) ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٩ ـ ٣٠].

ما أوذيت»[١]، وقد بدأت رحلته مع المصاعب منذ نعومة أظفاره، فعانى مرارة اليتم بكل قساوتها، ثم واجه مرارة الفقر بكل ضراوتها، فصبر وتجلّد، وهذا ما صقل شخصيته وأغنى تجربته، ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨] فكان ذلك أحد مظاهر النعمة العظيمة التي شملته بها العناية الإلهية: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] ولم تتوقف رحلته ﷺ مع المعاناة بل لازمته بعد النبوة، تكذيبًا وإيذاءً من عتاة قريش، حتى خرج من مكة المكرمة وهي موطنه ومسقط رأسه، بعد أن اجتمعوا على قتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، واستمرت المعاناة بشكلٍ أو بآخر في دار هجرته، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

ب ـ حقيقة نبّه عليها الأئمة عليهم السلام وألفت إليها الشعراء

وعن دور المصاعب في صقل شخصية الإنسان ليكون أقوى شكيمة وأصلب عودًا، تحدثت الكثير من النصوص المروية عن المعصومين عليهم السلام، وقد تقدمت بعض تلك النصوص، ومن أروعها في هذا المجال ما روي عن سيدنا أمير المؤمنين عليه السلام، فيقول: «**أَأَقْنَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ: هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، ولَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ الدَّهْرِ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ، فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ، كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا، أَوْ أُتْرَكَ سُدًى أَوْ أُهْمَلَ عَابِثًا، أَوْ أَجُرَّ حَبْلَ الضَّلَالَةِ أَوْ أَعْتَسِفَ طَرِيقَ الْمَتَاهَةِ وكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ هَذَا قُوتُ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَدْ قَعَدَ بِه الضَّعْفُ عَنْ**

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص٤٢، وفي نقل آخر: «ما أوذي أحد»، راجع: سنن ابن ماجة، ج١، ص٥٤، وكنز العمال، ج٣، ص١٣٠.

قِتَالِ الأَقْرَانِ، ومُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ، أَلَا وإِنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أَصْلَبُ عُودًا والرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرَقُّ جُلُودًا، والنَّابِتَاتِ الْعِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا وأَبْطَأُ خُمُودًا»(١).

وقد أبدع الشاعر أبو القاسم الشابي في التعبير عن هذا المعنى، معتبرًا أن بلوغ الأمنيات والوصول إلى الأعالي والمعالي، لا يكون بالمجان، بل يحتاج إلى معاناة وجرأة وعمل دؤوب، ورأى أنّ هذه الحكمة تنطق بها كل إيحاءات الكون الصامت، فكل ما في الحياة ينادي بأنّ الاسترخاء لا يصنع التغيير، وأنّ النصر والعزة والكرامة تأتي عن طريق التضحيات، وامتطاء الصعاب:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة   فلا بدّ أن يستجيب القدرْ
ولا بدَّ لليل أن ينجلي   ولا بدّ للقيد أن ينكسرْ
ومن لم يعانقْه شوْقُ الحياة   تبخَّرَ في جوِّها واندثرْ
فويل لمن لم تَشُقهُ الحيا   ة من صفْعة العدَم المنتصرْ
كذلك قالت ليَ الكائناتُ   وحدثني روحُها المستترْ
ودمدمتِ الرِّيحُ بين الفِجاج   وفوق الجبال وتحت الشجرْ:
إذا ما طمحتُ إلى غايةٍ   ركبتُ المُنى، ونسِيت الحذرْ
ولم أتجنَّب وعورَ الشِّعاب   ولا كُبَّةَ اللّهَب المستعرْ
ومن يتهيب صعود الجبال   يعش أبَدَ الدهر بين الحفرْ
فعجَّتْ بقلبي دماءُ الشباب   وضجَّت بصدري رياحٌ أخَرْ...
وأطرقتُ، أصغي لقصف الرعودِ   وعزفِ الرياحِ ووقعِ المطرْ
وقالت لي الأرضُ - لما سألت: أيا أمُّ هل تكرهين البشرْ؟-:
أُبارك في الناس أهلَ الطموح   ومن يستلذُّ ركوبَ الخطرْ
وألْعنُ من لا يماشي الزمانَ   ويقنع بالعيْشِ عيشِ الحجَرْ
هو الكونُ حيٌّ، يحبُّ الحياة   ويحتقر المَيْتَ، مهما كبُرْ

---

(١) نهج البلاغة، ج٣، ص٧٢.

فلا الأفْق يحضن ميْتَ الطيورِ ولا النحلُ يلثم ميْتَ الزهرْ
ولولا أمُومةُ قلبِي الرّؤوم لَمَا ضمّتِ الميْتَ تلك الحُفَرْ
فويلٌ لمن لم تشُقه الحيا ة مِن لعنة العدم المنتصِرْ!

باختصار: إنّ الوصول إلى المراتب العليا على المستوى الروحي والمعنوي لن يكون مجانيًا، بل هو يتطلب معاناة وجهود مستمرة، فمن عتمة الليل يشق الفجر طريقه، ومن رحم العسر ينبثق اليسر، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦]. فتأمل في حرف المعية في الآية، ودلالته على أنّ اليسر ليس بعد العسر بل هو مترافق معه وملازم له.

٢ ـ المصائب وإيقاظ الضمير

إنّ تهذيب النفس قضيّة أولاها القرآن الكريم أهميّة استثنائيّة، لأنّ ذلك يشكّل الدعامة الأولى لسعادة الفرد وبناء المجتمع السليم والمعافى والمستقر. وتنبثق أهمية تهذيب النفس من أنّ الإنسان في رحلته في الحياة يتعرض باستمرار لخطر الملوثات الروحية، وقد تتغلب عليه الغرائز والأهواء، وتقتحمه الوساوس، وتساوره الشكوك، ما قد يلوث صفاء النفس ويخرجها عن جادة الفطرة، فيحتاج على الدوام إلى مطهرات ومذكرات، ويتطلب الأمر جهودًا تربوية تهذيبية تعيده إلى سواء السبيل. وهذه المطهرات والمذكرات وكل ما يزكي النفس ويهذبها قد تكون مواعظ قولية من خلال ما يأتي به الوحي الإلهي أو ما يرد على لسان نبي(١) أو وصي أو عارف بالله، وقد تكون مواعظ فعليّة، ومن أعظم المواعظ التي تسهم في تهذيب الإنسان من مصاعب الحياة وشدائدها، وهذه قد تكون أبلغ في التأثير على الإنسان وإيقاظ النفس من كبواتها من المواعظ الكلامية.

(١) ولذا كانت التزكية من أبرز المهام التي أوكلت إلى النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

والحاجة إلى التهذيب هي حاجة مستمرة، لأنه وبدون التهذيب قد ينجرف الإنسان مع الأهواء وينحني أمام الغرائز ويغرق في متاهة الماديات، ويسعى سعيًا حثيثًا وراء الشهوات، وقد تتبلد مشاعره ويفقد حسّه الإنساني فلا يشعر بالآخرين، وهذا أو ذاك قد يوجب في كثير من الحالات غفلته عن الله سبحانه وتعالى، واستهانته بوعيده، وفي الواقع فإن ذلك وفي الدرجة الأولى يوجب غفلته عن نفسه، ومن يغفل عن نفسه فسوف يغفل عن ربه، وربما يصل هذا الإنسان في ذروة تماديه وغفلته إلى درجة تصبح الدنيا أكبر همه وتتبدل عنده الموازين فيقيس كل علاقاته بالميزان المادي، وتراه على سبيل المثال يحدث نفسه قائلًا: إذا زرت فلانًا أو أقمت علاقة معه فماذا أربح وماذا أخسر؟ بل أكثر من هذا قد يتملكه الجشع فيظلم ويأكل حقوق الناس بغير حق، ويعتدي عليهم ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ ـ ٧]، ولهذا كان هذا الإنسان بحاجة مستمرة إلى منبّه وجرس إنذار يوقظه من سبات العقل وطغيان الغريزة. تمامًا كما هو الحال في سائق السيارة الذي يقطع مئات الكيلومترات مسافرًا فلو كان الطريق أمامه مستقيمًا بدون منعطفات عندها سوف يسير على وتيرة واحدة فيغفل ويقع في حادث خطر، لهذا يحتاج إلى جرس إنذار أو شخص إلى جانبه يتكلم معه وينبهه، أو مذياع «راديو» معين يشدّ انتباهه، أو أن يتوقف مكررًا على جانبي الطريق ليغسل وجهه أو يشرب شيئًا من المنبهات، كالقهوة ونحوها، أو غير ذلك، ومن هنا وجدنا أنّ أنظمة السير المتطورة والحديثة تعمد إلى وضع مطبات في وسط الطريق أو فواصل رجراجة على جانبيه، بحيث إذا مستها عجلة السيارة اهتزت بشدة فأيقظت مَنْ بداخلها.

وهكذا هو الإنسان في رحلته في هذه الحياة قد يسير على وتيرة معينة توجب غروره وغفلته، فكان بحاجة مستمرة إلى مذكر ومنبه، والمصائب والآلام هي خير منبه وموقظ له من كبواته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾

[الأعراف: ٩٤] وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم: ٤١].

إنّ معرفة الآثار التربوية للمصائب والأمراض والصعوبات كفيلة بتغيير النظرة إليها، فبدل أن تكون نظرة إلى شر تغدو نظرة إلى خير، وهذا في الحد الأدنى يساعدنا على التغلب عليها والتأقلم معها، بدل أن تسقطنا.

ولنأخذ عبرة من حال الناس في هذه الحياة، فإننا نلاحظ فريقًا منهم ابتعدوا عن الله تعالى وعن خط الاستقامة وعن الإحساس بالآخرين، ثم جاءت المصائب والأمراض لتوقظ حسّ الإيمان والإنسانية لديهم وتعيدهم إلى الصراط السوي، فكان المصاب بمثابة الهزة التي أيقظتهم من السبات، وكان الألم أعظم واعظ أزال الرين والصدأ عن القلوب التي اجتاحها الفراغ الروحي، وكان التحدي خير عامل أسهم في إزاحة العتمة عن العيون، وأعاد الإنسان إلى رشده وإنسانيته.

وفي المقابل، ثمة فريق آخر لم ينتفعوا بشيء من المصاعب والتحديات والابتلاءات بل تراهم يصرّون على الكفر والجحود رغم وضوح الحجة أمام أعينهم، ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: ١٤]، وهؤلاء هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة. إنّ الإنسان الغافل المتكبّر الغارق في شهواته والسادر في غيه، قد لا يدرك ولا يلتفت أنه يعيش موتًا روحيًا هو موت الضمير والأخلاق، وذلك لأنّه أنس الحالة التي هو عليها وألفها، فلم يعد يرى مرضه، وهذا الإنسان يحتاج إلى صدمة توقظه، وقد يكون الابتلاء بالنسبة إليه هو الصدمة والرحمة، ويكون قيامه بزيارة مريض متألم أو مشاركته في تشييع جنازة سببًا ليقظته من كبوته وعودته إلى ربه، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَلَكِنَّ الله يَخْتَبِرُ عِبَادَه بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ، وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ، وَيَبْتَلِيهِمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِه، إِخْرَاجًا لِلتَّكَبُّرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، وَإِسْكَانًا لِلتَّذَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ، وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَابًا فُتُحًا إِلَى فَضْلِه، وَأَسْبَابًا ذُلُلًا**

لِعَفْوِهِ»[1]. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات»**[2].

وهنا تكمن أهمية المواعظ المأثورة، والمزهدة في الدنيا، كتلك التي تؤثر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام[3]، فهي لا تهدف إلى أن تنغص على الإنسان حياته وتمنعه من أن يعيش بسعادة وهناء، ولا ترمي إلى إرساء حالة من العداوة بينه وبين الدنيا، فيترك لذاتها وشهواتها، وإنما تهدف إلى تذكيره بأمر مهم وعظيم وفيه مفتاح سعادته، ألا وهو أن يبقى هو المسيطر على الدنيا، لا أن تسيطر عليه الدنيا وتصبح أكبر همه، فيتيه في غمراتها لاهيًا عابثًا لا يعرف حدودًا ولا ضوابط.

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص١٤٤.

(٢) مسند الشهاب، ج١، ص٣٩١، المجازات النبوية، ص٤٠٣، وعيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٧٥.

(٣) من أروع وأبلغ ما روي عنه في هذا المجال قوله: «نَحْمَدُه عَلَى مَا كَانَ ونَسْتَعِينُه مِنْ أَمْرِنَا عَلَى مَا يَكُونُ ونَسْأَلُه الْمُعَافَاةَ فِي الأَدْيَانِ ـ كَمَا نَسْأَلُه الْمُعَافَاةَ فِي الأَبْدَانِ. عِبَادَ الله أُوصِيكُمْ بِالرَّفْضِ لِهَذِه الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، والْمُبْلِيَةِ لأَجْسَامِكُمْ وإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ ومَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوه، وأَمُّوا عَلَمًا فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوه، وكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا، ومَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَه يَوْمٌ لَا يَعْدُوه، وطَالِبٌ حَثِيثٌ مِنَ الْمَوْتِ يَحْدُوه، ومُزْعِجٌ فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رَغْمًا، فَلَا تَنَافَسُوا فِي عِزِّ الدُّنْيَا وفَخْرِهَا، ولَا تَعْجَبُوا بِزِينَتِهَا ونَعِيمِهَا، ولَا تَجْزَعُوا مِنْ ضَرَّائِهَا وبُؤْسِهَا، فَإِنَّ عِزَّهَا وفَخْرَهَا إِلَى انْقِطَاعٍ، وإِنَّ زِينَتَهَا ونَعِيمَهَا إِلَى زَوَالٍ، وضَرَّاءَهَا وبُؤْسَهَا إِلَى نَفَادٍ، وكُلُّ مُدَّةٍ فِيهَا إِلَى انْتِهَاءٍ، وكُلُّ حَيٍّ فِيهَا إِلَى فَنَاءٍ، أَولَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الأَوَّلِينَ مُزْدَجَرٌ وفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِرَةٌ ومُعْتَبَرٌ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ؟! أَولَمْ تَرَوْا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وإِلَى الْخَلَفِ الْبَاقِينَ لَا يَبْقَوْنَ؟! أَولَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا، يُصْبِحُونَ ويُمْسُونَ عَلَى أَحْوَالٍ شَتَّى، فَمَيِّتٌ يُبْكَى وآخَرُ يُعَزَّى، وصَرِيعٌ مُبْتَلًى وعَائِدٌ يَعُودُ، وآخَرُ بِنَفْسِه يَجُودُ، وطَالِبٌ لِلدُّنْيَا والْمَوْتُ يَطْلُبُه، وغَافِلٌ ولَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْه، وعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي، أَلَا فَاذْكُرُوا هَاذِمَ اللَّذَّاتِ، ومُنَغِّصَ الشَّهَوَاتِ، وقَاطِعَ الأُمْنِيَاتِ، عِنْدَ الْمُسَاوَرَةِ لِلأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ، واسْتَعِينُوا الله عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ حَقِّه، ومَا لَا يُحْصَى مِنْ أَعْدَادِ نِعَمِه وإِحْسَانِه»، نهج البلاغة، ج١، ص١٩٢.

فهل ترانا نستلهم هذا الدرس العظيم فنتعظ بهذه المصائب وتلك المصاعب والتحديات؟ أم أننا نستيقظ آنًا ما عندما نواجه المصيبة، ثم سرعان ما ننساها ونعود إلى سيرتنا الأولى الموغلة في الغي والعدوان والتمرد على الله تعالى؟ فيكون حالنا كأولئك المسرفين الذين وصفهم ربنا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

ولا يتوهمن أحدٌ أننا نرمي مما ذكرناه ولو إيحاءً إلى الترغيب في أنْ يوقع الإنسان نفسه في الأمراض أو المصائب، حتى يشعر بقيمة الصحة ويعرف قيمة النعمة، كلا، فليس هذا قصدنا، وهو لا يجوز، ولا حاجة إليه، لأنّ الابتلاء بالآلام والأمراض أمر طبيعي وهو حاصل لا محالة، فهو من لوازم هذه الحياة وعوارضها، وما على الإنسان إلّا أن يفتح عينيه جيدًا، ليتعلم من مدرسة الحياة.

لا تقل: كان بإمكان الله تعالى أن يخلقنا مهذبين أتقياء لا سلطة للنفس الأمارة ولا للشيطان علينا ولو على مستوى التزيين.

لأن جوابك: إنّ الله تعالى كان قادرًا على ذلك، وكان بإمكانه أن يخلقنا مجردين من نوازع الشر وأن يمنع بقدرته الشيطان من الوسوسة لنا، ولو شاء لفعل، لكنّه لو أراد ذلك وفعله لكنّا في نشأة أخرى، لا تعرف التدافع والتنافس والإبداع، ولعل الأنسب بتلك الصورة هو بقاؤنا في الجنة، والحال أنّ تجربة البشر في هذه الدنيا تقوم على مبدأ الاختبار والتحدي، ومبدأ ﴿وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وهو مبدأ يقتضي التدافع، وهو تدافع وصراع دائم ومستمر بين نداء الفطرة والضمير من جهة، وبين انزلاقات النفس الأمارة من جهة أخرى، وأيضًا بين صوت الرسول الداخلي (العقل) أو العقل الخارجي (الرسل) من جهة، وصوت الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة أو الناس من جهة أخرى.

المحور الخامس
القرآن والمقاربة الاجتماعية
لإشكالية الشرور

١ ـ الحلول الاجتماعية لمشكلة الشرور:

أ ـ العدالة الاجتماعية والعدالة الإلهية

ب ـ الرعاية العاطفية

٢ ـ الآثار الإيجابية للمصائب على الصعيد الاجتماعي:

أ ـ قانون التدافع

ب ـ المصائب والتكاتف الاجتماعي

ت ـ المصائب والإبداع

إنّ الجانب الاجتماعي في قضيّة الشرور هو من أهم الجوانب على الإطلاق، وطريقة تعاملنا مع المصيبة سوف تنعكس بشكل حتمي على حياتنا الفردية والاجتماعية، وغير خافٍ أنّ التأثير السلبي للمصاعب والآلام والضغط النفسي الذي تخلِّفه يقع في الدرجة الأولى على الفرد، وهو ضغط ثقيل جدًا، ولو لم يجد المرء تفسيرًا مقنعًا لذلك فهذا قد يجعله يسيء الظن بالله تعالى ويوقعه في مهاوي اليأس والإحباط والخوف أو ينزوي في عزلة منطويًا على نفسه، ولن يقف الأثر السلبي لهذه الإشكالية عند حدود الفرد، بل سيطال المجتمع برمته، فما يعانيه الفرد من آلام ومشكلات جسدية أو

نفسية أو ما يصيبه من فقْدِ عزيز أو حبيب أو غير ذلك سينعكس حكمًا على علاقاته بمحيطه، وإذا لم نحسن التعامل مع الموضوع فسيكون للأمر نتائج كارثيّة، وقد يتسبب بتقطيع أوصال العلاقات الاجتماعية، من خلال الطلاق والخصام والتدابر والتنازع وغير ذلك، وربما انجرّ الأمر إلى ارتكاب الجرائم، فما يرتكبه المجرمون من أعمال قتل وعدوان هو في كثير من الأحيان، ناتج عن عقدة نقصٍ معينة لديهم، أو ظلم تعرضوا له، أو حرمان عاطفي أو غير ذلك، ما جعلهم يعيشون في شرنقة الأحقاد التي يفجرونها في المجتمع. وهذا الأمر بطبيعة الحال له فاتورة اقتصادية عالية الكلفة، كما له ثمن اجتماعي باهظ.

وفيما يلي نشير إلى أهم المعالجات والحلول القرآنية لمشكلة الشرور على الصعيد الاجتماعي، ومن ثمّ نتطرق إلى بعض الآثار الإيجابية التي تتضمنها المصائب.

أولًا: الحلول الاجتماعية لمشكلة الشرور

وانطلاقًا مما تقدم، فإننا نعتقد أنّ بذل الجهود العقلية / الفلسفية لرفع الشبهات المطروحة حول عدالة الخالق عزّ وجل ـ على أهميتها ـ ليست السبيل الوحيد لمحاصرة تداعيات الإشكالية، بل لا بدّ أن يواكب ذلك جهود أخرى، وعلى رأسها: العمل الجاد في سبيل إرساء نظام يحقق العدالة الاجتماعية، فنظام كهذا يعدّ في الواقع من أمثل الأساليب وأنفع السبل ليس في بناء المجتمع الفاعل والمعافى وفي تصحيح علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فحسب، بل وفي تصحيح علاقة الإنسان بربه أيضًا، من خلال رفع التشكيكات التي تطوف في خياله إزاء العدالة الإلهية، ولا يقل عن ذلك أهميّة بذل الجهود التربوية لاستيعاب أصحاب الابتلاءات وذوي العاهات والأمراض وغيرهم والعمل على احتضانهم. وبذلك تنتفي أو ترتفع معظم أسباب التشكيك التي تجتاح نفوس الضعفاء.

١ ـ العدالة الاجتماعية والعدالة الإلهية

قال تعالى مخاطبًا الإنسان بصفته خليفته على الأرض: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، إنّ هذه الآية وغيرها من الآيات المباركة تحدد وظيفة الإنسان في هذا العالم بإقامة العدل واجتناب الظلم.

ويُحكى عن بعض الأدباء أنّه قال: رأيت في الطريق طفلًا عاريًا جائعًا مرتجفًا يكاد يقتله البرد! فقلت لله: ألا فعلت شيئًا! للوهلة الأولى، لم يفه الله بشيء، لكنه في تلك الليلة أجابني على حين غرة: لقد فعلت، لقد خلقتك.

إنّ الأساس الذي تبتني عليه المعالجات والأجوبة الاجتماعية على إشكالية الشرور، هو أن العدالة الإلهية على الأرض قد أنيط تطبيقها بيد الإنسان بصفته خليفة الله على الأرض، فهو يد الله التي تجسد العدالة الاجتماعية، وتمنع العدوان، وقد أوكلت إليه هذه المهمة وحُمِّل الأمانة وقَبِلَ حملها وأداءها، ومن الطبيعي أن يتحمل المسؤولية في هذا المجال كما يتّضح فيما يلي.

أ ـ فشل الخليفة وليس المستخلف

ويمكننا تصعيد الموقف إلى القول: إنّ رفع الغبن الاجتماعي هو من مسؤولية الإنسان نفسه، وليس من مسؤولية الإله، فالله تعالى قد جهز الكوكب الذي نعيش عليه بالطاقات الكافية والوافية باحتياجات القاطنين عليه من كافة المخلوقات، وعلى رأسهم الإنسان، وأعطى الأخير كل ما يلزم للقيام بمهمة بناء الحياة الصالحة، فزوده بكفاءة عقليّة ومهارة جسدية تمكنه من القيام بمهمة الخلافة، وأعطاه البرنامج والميزان الذي يكفل له ـ في حال تطبيقه ـ الوصول إلى سعادته، لكنّ الإنسان إلى الآن لا يزال يتعثر، فينجح في بعض الحالات ويخفق في أكثر الأحيان، قال تعالى وهو يشير إلى إعطائه الإنسان البرنامج المشار إليه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ * ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ

ٱلۡمِيزَانَ * وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ * وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١ ـ ١٣]، إنّ هذه الآيات تقرر بشكل واضح لا لبس فيه أنّ الإنسان هو محور الخلق الإلهي، وأنّه تعالى خلقه وعلّمه البيان وأعطاه كل ما يلزم للمهمة المناطة به وهي إقامة القسط، ووضع له الميزان الذي يضمن له الاستقامة، وأعدّ وهيّأ له هذه الأرض وزودها بكل ما يحتاجه من طاقات وثمرات، وعليه، فإذا فشل في مهمته فهو المسؤول، وعندما يُلقي المسؤولية على عاتق غيره، فإنه يحاول التهرب من مسؤوليته، ويعدّ كاذبًا كما تقرر الآية الأخيرة من هذا المقطع القرآني، وهي الآية التي تتكرر في سورة الرحمان.

ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات أخرى، فيقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤]. حيث دلّت هذه الآيات على أنه لا بخل في الطبيعة ولا نقص، وأنّ النعم والطاقات المستودعة فيها وافية كافية بتلبية حاجات كل من عليها، وكلّ هذه النعم العصيّة على الإحصاء مسخرة للإنسان، وتنحصر مهمته في إدارة توزيع الثروة بعدالة وإنصاف، فالنجاح هو طوع أيدينا، والفشل مسبب عن ظلمنا وتعسفنا، والظلم هنا هو على حد الكفر، كما نطقت بذلك الفقرة الأخيرة من الآيات المتقدمة، والتي أعلنت بوضوح أنّ ظلم الإنسان في توزيع الثروة، وكفرانه للنعمة من خلال الإسراف في صرفها وعدم سعيها في استثمار جميع المصادر التي تفضل الله بها عليه، هي من أهم الأسباب للمشكلة الاقتصادية الاجتماعية التي يعيشها.

والغريب في هذا الإنسان أنه في حال نجاحه ينسب النجاح إلى نفسه وذكائه، وينسى أو يتناسى ما خوّله الله تعالى وزوده من طاقات، وأما إذا فشل فإنّه يفتش عن أسباب الفشل بعيدًا عن نفسه، وفي غالب الأحيان يلقي

باللائمة على الخالق، ويتهمه بالعبثية! مع أنّ هذا الخالق الحكيم قد أراد لهذا الإنسان أن يبني تجربة العدالة الاجتماعية ويجسد نموذجًا مصغرًا للجنة على الأرض، وعليه فالنجاح هو نجاح الخليفة والفشل هو فشله، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

ب ـ مسؤولية الإنسان

إنّ الكثيرين من الناس أكانوا من ذوي الابتلاءات أو غيرهم، يسارعون ويستسهلون ـ عند مواجهة المصائب ـ توجيه أصابع الاتهام إلى الله تعالى، ولا يجرؤون على توجيه الاتهام إلى الفاعل المباشر، لأنّ ذلك ربما يطالهم شخصيًا أو لأنّ المسؤول عن ذلك هو طاغوت مستبد يهابون جانبه.

وإننا لدى التأمل والتدقيق في أسباب المصائب والآلام و«الشرور» التي تواجهنا نجد أنها ـ في الأعم الأغلب ـ من صنع الإنسان نفسه وليست من صنع الله، فلا يحق للإنسان أن يعترض على الله قائلًا: لماذا فعلت بي هذا؟ وذلك لأنّ مشيئة الله تعالى قد قضت أن لا تتحرك هذه الحياة على أساس تدخله المباشر في مجرياتها وإنّما أجراها وفق السنن، وجعلنا خلفاءه على الأرض، وأراد لنا أن نقيم حكم العدل في ربوعها، فنحن المسؤولون.

ولهذا عندما نجد الطفولة المعذبة والبطون الخاوية الجائعة والنفوس المتألمة والخائفة، فلا يحق لنا أن نقول: يا رب ألم تسمع استغاثتهم وصراخهم! ألم تر معاناتهم وفقرهم! ألم تعلم بأوجاعهم ومعاناتهم؟! لا يحق لنا ذلك، لأنّه تساؤل خاطئ، فالله تعالى قطعًا يعلم بآلامهم ويرأف لأوجاعهم أكثر منا وربما ادخر لهم من الثواب ما يغنيهم ويرضيهم ويزيد على الرضا كما مر، بل إنّه تعالى هو مَن سيتوجه لكل واحد منّا بالسؤال: يا خليفتي على الأرض أين دورك؟! فهذه مسؤوليتك التي حملتك إياها وأنت لا شك قادر على حمل الأمانة، فمتى تقوم بواجبك في عمارة الأرض وبسط العدل في ربوعها؟!

أترى لو أنّ سلطانًا جعل الإدارة المباشرة لأمور المملكة في مدة محددة

إلى وزيره أو ولي عهده، ومهّد له الأسباب وزوّده بكل الإمكانات ومكنّه من مقاليد الأمور، ووضع حوله المستشارين وأمرهم بإطاعته، وأوصاه بكل ما يلزم، فإذا مضت المدة المعلومة وعاد السلطان إلى مزاولة أمور المملكة، فاكتشف أنّ مملكته قد خربت وانتشر فيها الفساد، أليس من حقه أن يحمل الوزير مسؤولية ذلك وأن يحاسبه على تقصيره؟! ولا يحق لأحد أن يحمّل الملك نفسه مسؤولية ما اقترفته يدا الوزير بعد أن هيأ الأمور له.

وإذا رأيت مشوهًا نتيجة الحروب فلا تقل: يا رب ما ذنب هذا الفقير حتى تتركه مشوّهًا، ولكن قلْ: ما هي مسؤوليتي أنا وأمثالي من الناس عن هذا الألم لذي يعانيه هذا المشوّه؟! ألسنا نحن بدعمنا أو برضانا أو بسكوتنا مسؤولين عمّا جرى له عندما تركنا الظلمة يتربعون على عرش الملك ومن ثمّ يخوضون الحروب المدمرة!

ولو أننا دققنا في أسباب ارتفاع درجة حرارة الكوكب في الصيف في العقود الأخيرة وما تتسب به من كوارث بيئية وصحية، فبأي وجه نتوجه بالاعتراض على الله تعالى كما يفعل البعض ممن يقول: يا الله لماذا هذه الحرارة!! لا يحق لنا ذلك، لأنه تعالى سيقول لنا: إنّ هذه الحرارة المرتفعة هي من صنع أيديكم، فهي ناتجة عن ثقب الأوزون الذي تسببه الأبخرة والغازات التي تخرج من مصانعكم الكيمائية أو غيرها مما جنته أيديكم.

وعندما يولد لي ولد مشوه فقبل أن أعترض على الله هلا راجعت نفسي، فلعل نطفته قد انعقدت في ظروف نفسية أو شروط صحية غير ملائمة مع قدرتي على تلافيها، وقد ورد في بعض الروايات النهي عن العلاقة الجنسية في بعض الظروف معللة أنّ الولد قد يأتي مشوهًا، وقد اتخذت الكثير من الدول تدابير تفرض على الراغب بالزواج إجراء فحوصات طبية قبل العقد، ومع ذلك فإنّ بعض الناس لا يزال يهمل هذه الإجراءات ولا يستجيب، وقد يرزق بولد مشوه أو ذي إعاقة، فهنا يكون هو المقصّر والملام، وليس من حقه أن يلقي باللائمة على الله تعالى، وإلى هذا المعنى يشير سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

وإذا ابتليتُ بالفقر أو وجدتُ إنسانًا لا يملك لقمة العيش فلماذا أسارع إلى إلقاء اللائمة على الله سبحانه وأقول: يا رب أنا جائع! وفلان متخم متنعم بالملذات فأين عدلك يا ترى؟ لا يحق لي أن أقول ذلك، لأنّ السبب ليس هو الله تعالى، بل السبب هم الظالمون والمترفون الذين يعملون على سرقة الثروات والاستئثار بالمال العام، وقد أكون أنا الجائع شريكًا في الظلم الواقع عليّ، من خلال سكوتي ورضاي بهؤلاء الفاسدين، والمتقاعسون عن تطبيق نظام العدالة الاجتماعية يتحملون المسؤولية أيضًا، فهؤلاء كلهم مشتركون في الظلم ولو بدرجات مختلفة، أما الله تعالى فليس هو الظالم، كيف والأرض التي خَلَقَنا عليها وسخّرها لنا ليست بخيلة، وإنما هي معطاءة خيرة، وثرواتها في تجدد دائم، ما يجعلها كفيلة بسد احتياجات الإنسان وغيره على الدوام، لكنّ المشكلة هي ـ من جهة ـ في الإسراف والاستنزاف غير المتوازن لثرواتها، ومن جهة أخرى، في الاحتكار لمواردها، وإلى ذلك يشير ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما جاع فقير إلّا بما متع به غني**»(١)، ولو أنّ الأغنياء أدوا حقوقهم لما بقي فقير على وجه الأرض، لأنّه كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ مَا يَكْتَفُونَ بِه، ولَوْ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَرَضَ لَهُمْ لَا يَكْفِيهِمْ لَزَادَهُمْ، وإِنَّمَا يُؤْتَى الْفُقَرَاءُ فِيمَا أُتُوا مِنْ مَنْعِ مَنْ مَنَعَهُمْ حُقُوقَهُمْ لَا مِنَ الْفَرِيضَةِ**»(٢)، فالسبب في هذا التفاوت الاجتماعي الفاحش والفقر المدقع هو سوء استغلال الثروات، أو توزيعها الظالم والامتناع عن أداء الحقوق المالية.

وفي بعض الأحيان يكون السبب وراء فقر بعض الأشخاص هو تقاعسهم وعدم أخذهم بالأسباب، فتركوا العمل ولم يستغلوا الفرص التي يرتجى فيها الربح، أو عملوا لكنهم بدّدوا أموالهم وأهدروها.

وقصارى القول: إنّ كثيرًا من المصائب تكون نتيجة طبيعيّة لانحراف

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٧٨.

(٢) الكافي، ٣، ص٤٨٩، والحديث صحيح السند.

الإنسان وظلمه وخروجه عن خط الاستقامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وعلى ضوء ما ورد في هذه الآية المباركة نفهم ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وايْمُ الله مَا كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ، فَزَالَ عَنْهُمْ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوهَا، لِأَنَّ ﴿ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢]، ولَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ وتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَوَلَه مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شَارِدٍ وأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ»(١)، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

لماذا تنتصر إرادة الشر لدى الإنسان؟

وقد تسأل: ولماذا تنتصر إرادة الشر لدى الإنسان؟ وهل الجواب بأنّ الإنسان مختار وأنه يقدم على ذلك بإرادته هو جواب مقنع بما فيه الكفاية؟ أليس هذا كله واقعًا وفق تخطيط الله وقضائه وقدره؟ إنّ فشل الخليفة في إقامة العدل على الأرض لا يمكن فصله عن مشيئة الله تعالى، والقرآن الكريم نفسه يعلن أنّ أكثر الناس فاسقون(٢) وظالمون، ولا يشكرون(٣) ولا يؤمنون(٤)!! أليس الله تعالى هو من شاء أن يكونوا كذلك؟!

لكننا نجيب: نعم، إنّ الجواب مقنع إلّا لمن يريد اللجاج والعناد، وما ذكرناه هو ما يحكم به الوجدان والبرهان والقرآن، فعندما تكون مختارًا في الفعل أو الترك، في الطاعة والعصيان، في الكفر والإيمان، فهذا يعني أنك المسؤول عن عواقب أفعالك، وحكم الله تعالى بأن أكثر الناس فاسقون أو ظالمون، ليس إخبارًا عن قانون إلزامي لا بدّ أن يسلكه العباد قهرًا، وإنما

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٩٩.
(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].
(٣) راجع: سورة البقرة الآية: ٢٤٣، وسورة يوسف الآية: ٣٨.
(٤) راجع: سورة الرعد الآية: ١، وسورة غافر الآية: ٦١.

هو إخبار عما سيفعله العباد اختيارًا. على أنّ الصورة القاتمة عن الممارسات البشرية إلى يومنا هذا يجب أن لا نعتبرها القدر المحتوم، بحيث تثير فينا الإحباط واليأس، كيف وقد وعدنا الله تعالى بانتصار إرادة الخير لدى الإنسان في نهاية المطاف، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

٢ ـ الرعاية العاطفية كواجب أخلاقي

بالإضافة إلى مسؤولية السعي في تحقيق العدالة الاجتماعية الملقاة على عاتق الخليفة، فإنّ ثمة مسؤولية أخرى تقع على عاتقه، وهي العمل على تخفيف وطأة المصاعب التي تصيب إخوانه من بني الإنسان، وهذا واجب أخلاقي أكدت عليه رسالات السماء، في تعاليمها ووصاياها على لسان الأنبياء عليهم السلام كافة. ولا يخفى أنّ التعاليم الأخلاقية، لها فعل كبير في النفوس، فالإنسان كتلة عواطف وتؤثر فيه المواقف الصادقة المتعاطفة معه، فعندما يفقد الطفل أباه ويغدو يتيمًا، فإنّ من واجب المجتمع أن يعوّضه عن فقد الأب، ويعمل على رعايته وحمايته ومخالطته قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. إن مخالطة الأيتام هي تعبير آخر عن السعي في سبيل دمجهم في المجتمع، حتى لا يعيشوا عزلة قاتلة.

والأمر لا يقتصر على اليتيم، فعندما يقسو الزمن على إنسان ويصبح مبتلى بعاهة معينة فمن وظيفتنا أيضًا أن نعمل بجدٍ على إحاطته بالمشاعر الصادقة، واحتضانه ودمجه في الحياة الاجتماعية، وهذا ما كان الإمام زين العابدين عليه السلام يحرص على فعله، فقد ورد أنّه عليه السلام: «**كان يعجبه أن يحضر طعامه اليتامى والأضراء والزمنى والمساكين الذين لا حيلة لهم، وكان يناولهم بيده**»[(١)]، وهذا الأمر يستدعي خلق ثقافة عامة تحترم إنسانية هذه

---

(١) الخصال، ص٥١٨.

الشريحة ولا تنظر إليها بريبة أو بتقزز أو استعلاء واحتقار، لأنّ ذلك غير مبرر من الناحيتين الأخلاقية والشرعية، وتجدر الإشارة إلى أنّ الإسلام يحرص حرصًا بالغًا على احترام مشاعر المريض المبتلى بعاهة معينة، وعدم خدش مشاعره ولو بنظرة غير طبيعية، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام عن أبيه عليه السلام: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا تديموا النظر إلى أهل البلاء والمجذومين فإنّ ذلك يحزنهم**»(١).

وعندما يمرض الإنسان ويصاب بالسقم، فإنّ عيادته مطلوبة وهي فعل إنساني عظيم، لأنها تخفف عنه وطأة المرض، وتدخل على قلبه السرور، وفي هذا الصدد يوصي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عُوّاد المريض وزواره أن لا يضعوا الموت نصب عينيه، بل ينبغي أن يؤملوه بالصحّة والسلامة، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا دخلتم على المريض فنفسوا (أي وسعوا) له في الأجل، فإنّ ذلك لا يرد شيئًا، وهو يطيّب النفس**»(٢)، وهذا الإرشاد النبوي الهادف إلى تطييب خاطر المريض والتوسعة له في الأجل، يرمي إلى مساعدته للتغلب على مرضه، لأنّ المريض الذي ينهزم نفسيًا أمام المرض ويتملّكه اليأس من الشفاء سوف يحاصره المرض ويفتك به، وتقلّ فرص تماثله للشفاء.

إن هذه التصرفات والآداب الأخلاقية هي ذات أهميّة خاصة، لا تقل عن أهمية العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية، وتكمن أهمية هذه السلوكيات المفعمة بالمشاعر في أنها تسهم في التخفيف من وطأة المعاناة وضغط المشكلات الاجتماعية والاقتصادية على النفس الإنسانية، وفي رفع أسباب الشبهات التي ترد على العقيدة.

---

(١) طب الأئمة، ص١٠٦، والمقطع الأول من الحديث، أعني قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تديموا النظر إلى المجذومين»، انظر: سنن ابن ماجة، ج٢، ص١١٧٢، والسنن الكبرى للبيهقي، ج٧، ص٢١٩.

(٢) سنن ابن ماجه، ج١، ص٤٦٢، وكنز الفوائد، ص١٧٨.

ثانيًا: الآثار الإيجابية للمصائب على الصعيد الاجتماعي

هذا كله بالنسبة للمقاربة الاجتماعية العلاجية لمشكلة الشرور على ضوء القرآن الكريم، وأما الآثار الاجتماعية الجيدة والطيبة للمصاعب والتحديات التي تواجه الإنسان، فهي عديدة نشير إلى أهمها:

١ ـ قانون التدافع

إنّ الكثير من المصاعب التي تواجهنا في هذه الحياة تندرج تحت قانون التدافع الذي هو من أعظم القوانين الإلهية التي تدين لها الحياة في تطورها واستمرارها، قال تعالى في سياق الحديث عن المعركة التي دارت بين داوود وجالوت والتي انتصر فيها الأول وقُتل الثاني: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. إنّ التدافع بحسب هذه النصوص القرآنية وغيرها هو قانون عظيم من قوانين الله في خلقه، وهو منشأ خير كبير للإنسان، ولولاه لفسدت الحياة وفقدت حيويتها وتجددها.

٢ ـ المصائب والتكاتف الاجتماعي

وفي المنظار الاجتماعي عينه، فإنّ في المصائب والآلام والتحديات والصعوبات ثمرات إيجابية عديدة، فهي تساهم في بناء شخصيتنا الاجتماعية وتوطيد العلاقات فيما بين الناس، لأنّ الإنسان وإن كان مدنيًا بالطبع، بيد أنّ المصائب والصعاب تزيده قربًا من الآخرين لحاجته إليهم وحاجتهم إليه، وتجارب الحياة على هذا الصعيد تعلمنا درسًا بليغًا وهو أنّ المرء مهما كان قويًا ومقتدرًا، فهو بحاجة إلى مساعدة الآخرين، وأكثر ما يلجأ الإنسان إلى الآخرين عند حالات الضعف والإحساس بالخوف، وهذه خصوصية تشاركنا

بها كل المخلوقات الحية، فإنها تعيش حياة اجتماعية تمكنها من بلوغ أهدافها ودفع الأخطار عنها.

وهذا ما يجعلنا نفهم سرّ التفاوت بين الناس في الطاقات والمواهب والصفات والحالات، فإنّ لهذا التفاوت دورًا في تكامل دورة الحياة الاجتماعية، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢] إنّ اختلاف البشر وتفاوتهم على مستوى الطاقات والإمكانات والصفات، فواحد ذكي والأخر بليد، وواحد عالم والآخر جاهل، وواحد فقير والآخر غني، إنّ ذلك هو أمر تمليه طبيعة الحياة الإنسانية في بعدها الاجتماعي، فنحن ـ من جهة ـ في عالم ليس هو عالم الكمال، وإنّما الكمال هو في يوم القيامة، وعلى الناس أن يحسنوا توظيف هذه الطاقات المختلفة، ليتكاملوا ويتعاونوا، ومن جهة أخرى، فإنّ حياة البشر قائمة على التعاون وحاجة بعضهم للآخر، فلو كان كلُّ الناس أطباء لشُلّت الحياة، إذ من يصنع الخبز؟ ومن يعمّر البيوت؟ ومن يكنس الطرقات؟ ولو كان كل الناس مهندسين لورد الإشكال نفسه فمن يعالج المرضى؟ ومن يزرع ويحصد؟! إنّ الله سبحانه وتعالى بحكمته البالغة أبدع هذه الفسيفساء الإنسانية مسخرًا بعض الناس لخدمة البعض الآخر، ما جعل الحياة أشبه بدورة متكاملة، فالخباز بحاجة للطبيب ليصف له الدواء، وهو ـ أعني الطبيب ـ بحاجة للخباز ليهيئ له طعامه، وهما معًا بحاجة إلى المهندس ليصمم لهما المنزل، وهكذا.

٣ ـ المصائب والإبداع

والثمرة الثالثة للمصائب والصعوبات التي تواجه الإنسان هي أنها تعدّ أهم محفز له على الإبداع والاكتشاف والتطور، فهي تفجّر طاقات الإنسان، وتصقل مواهبه، فالحاجة ـ كما قيل ـ أم الاختراع، ولولا صرخة الألم التي يتأوه بها المريض لما سعى الأطباء في اكتشاف الدواء، ولولا الجوع لما

سعى الإنسان في العمل وصبر على الكد والتعب لتأمين وتوفير لقمة العيش الكريم، ولولا الخوف من الأعداء والمفترسات لما بنى البيوت المتينة والحصينة..

ونستطيع القول: إنّ هذا الإرث الحضاري العظيم الذي أوجدته أيدي البشر مدينٌ لتلك الإرادة الصلبة التي صنعتها الصعوبات وصقلتها التحديات والآلام. وهكذا الحال في الحضارة البشريّة المعاصرة بكل تطورها.. إنها دون أدنى شك حصيلة مكابدة طويلة ومعاناة كبيرة مرّت بها الإنسانية خلال قرون مديدة.

وغير خفي أنّ الابداع ليس وليد الأشخاص الذين يعيشون في البيوت المخملية والقصور العاجية، وإنما هو ثمرة طيبة للأفراد الذي يعايشون المكابدة والمعاناة، وقد قيل: الإبداع يخرج من رحم المعاناة. ادرسوا سيرة المبدعين والنوابغ في العالم تجدوا أنّ أكثرهم ترعرعوا في أجواء الفقر والمعاناة.

بيد أنّ بعض الناس بسبب استرخائهم وخلودهم إلى الراحة، يخالون كل تعب هو شر لهم، وكأنهم يريدون الخير بالمجان ويرومون السعادة دون أدنى تعب أو جهد، وهذا يعبّر عن اعوجاج في الفهم، يقول تعالى وهو يشير إلى ذلك: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، فلاحظ إيحاء فعل مسّ، حيث يدلّ على أنّ هذا الإنسان ولمجرد أن يمسه الخوف أو الألم فإذا به ييأس ويقنط من رحمة الله تعالى، فكيف إذا أحاط به البلاء والمرض!

إنّ الخير الكامن في المصاعب والمتاعب هو ـ بالإضافة إلى أسباب أخرى ـ ما يدفعنا إلى رفض ما يعرف بـ «القتل الرحيم»، لأنّ أوجاع المريض وصرخاته وإن كانت مؤلمة له لكنها قد تُحَفِّزُ الأطباء على اكتشاف الدواء الملائم.

ودعوني أتوجه إلى الإنسان المتألم والمصاب بإعاقة منذ الصغر لأقول

له: عزيزي بدل أن تعيش حياتك وأنت تندب حظك وتعتب على ربك وتعيش عالة على غيرك في حياة ملؤها العقد النفسية، تقبلْ هذا الواقع الذي أنت فيه، وارض بقدرك، وكنْ طموحًا وصاحب إرادة، فالإرادة القوية تصنع المعجزات، اسعَ لتحويل الإعاقة إلى طاقة، وتأمل وخذ العبرة، فكم من المكفوفين والمعوقين قدموا للبشرية ما لم يقدمه البصراء والأصحاء، وكمْ من سليم الجسد ولكنه يعطل طاقاته ويعيش عالة على غيره، وكم من معوّق يحول إعاقته إلى طاقة مبدعة. إن البلوى قد تكون نعمة وإن النعمة قد تغدو نقمة، كما قال أبو تمام الشاعر العربي الشهير:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم[(١)]

ويروى أنّ الشاعر الكفيف بشّار بن برد أتاه رجل فسأله عن منزل شخص، «فجعل يفهّمه ولا يفهم، فأخذ [بشار] بيده وقام يقوده إلى منزل الرجل وهو يقول:

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكم ... قد ضلّ من كانت العميان تهديه

حتى صار به إلى منزل الرجل، ثم قال له: هذا هو منزله يا أعمى!»[(٢)].

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج٢، ص٢٥.

(٢) الأغاني، ج٣، ص١٥٧.

الباب الثالث

الموت والمرض والشذوذ الجنسي

- المحور الأول: كيف نفهم الموت ونتعامل معه؟
- المحور الثاني: كيف نفهم المرض ونتعامل معه؟
- المحور الثالث: المثليّة أو الشذوذ الجنسي: الإشكالية والمعالجة

نتطرّق في هذا الباب إلى بعض الابتلاءات الخاصة التي يُنظر إليها بصفتها شرورًا وهي الموت والمرض والشذوذ الجنسي.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مبحثي «المرض والشذوذ الجنسي» منشوران في بعض كتبنا، لكننا ارتأينا إعادة نشرهما في هذا الكتاب وذلك لصلتهما الوثيقة بموضوع البحث وتسهيلًا على القارئ الكريم.

المحور الأول
كيف نفهم الموت ونتعامل معه؟[1]

١ ـ الموت: الحقيقة التي لا مفر منها

٢ ـ الموت والولادة الثانية

٣ ـ لماذا نكره الموت؟

٤ ـ أهذه ثقافة حياة أم موت؟

هذا المحور ليس بعيدًا في مضمونه العام عن المحاور المتقدمة في هذا الباب، والتي كانت تحمل عنوانًا عريضًا وهو الإجابات القرآنية على مشكلة الشرور، والوجه في عدم غرابته أنّ الموت هو أحد المصائب والابتلاءات التي تواجهنا، وفي ثنايا الإجابات المتقدمة قد تطرقنا إلى قضية الموت، وأنه بوابة الإنسان إلى عالم الآخرة، وقد بنينا بعض تلك الإجابات على رؤيتنا حول الحياة بعد الموت، لكن مع ذلك، فإننا نخصص لقضيّة الموت محورًا على حدة، وذلك لأهميّة قضية الموت، وما تلعبه من دور في تعميق إشكالية العبثية في الخلق لدى بعض الناس.

ومن هنا فإننا في مستهل الكلام نتساءل: لماذا الموت؟ ولماذا نخاف من الموت؟ لماذا يموت الصغار والأطفال والرضع الذين لم يعرفوا من

---

(١) هذا الموضوع حول الموت هو في الأصل من كلمة في مناسبة وفاة بعض المؤمنين، بتاريخ ١٣ /١٠/ ٢٠١٣.

طعم الحياة شيئًا؟ وقد يكون من الضروري أن نتعرف قبل كل شيء على رؤيتنا تجاه الموت؟ ما هو سرّه؟ وما علاقة الموت بالحياة؟

١ ـ الموت الحقيقة التي لا مفر منها

أما السؤال الأم: ما هو الموت؟ وكيف نفهمه؟ فجوابه: أنّ الموت هو الحقيقة التي لا يدانيها في بداهتها حقيقة، وهو السنة الإلهية الماضية التي لا تستثني أحدًا، فهو يطال كل المخلوقات الحيّة، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآيِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، إنه قضاء إلهي مبرم ولا راد له، وسواء أطال عمر الإنسان أم قصر، فإنّ الموت لا محال آتيه، وهو الزائر الثقيل الذي يأتي دون استئذان وبدون مناسبة أو سبب ظاهر في كثير من الأحيان، الموت يزحف إلينا زحفًا، بل قل: إننا نحن الزاحفون إلى الموت شئنا أم أبينا، فأنفاسنا هي خطواتنا التي تسير بنا إلى الموت، يقول الإمام علي عليه السلام فيما روي عنه: «**نفس المرء خطاه إلى أجله**»[1]، ودقات قلوبنا هي التي تسوقنا إلى الأجل المحتوم، يقول الشاعر:

دقات قلب المرء قائلة له إنّ الحياة دقائق وثوان

أ ـ الموت سنة ماضية

إنّ الموت ـ بصرف النظر عن إيماننا بحياة تتعقبه أو عدم إيماننا بذلك ـ هو سنة الحياة في كل الكائنات الحيّة، من الإنسان والحيوان والنبات، فالغصن يبدأ برعمًا صغيرًا ثم يخضوضر ثم يزهر ويتفتح بالورود النديّة، ثم شيئًا فشيئًا يميل إلى الاصفرار، فالذبول فالتلاشي، والإنسان كذلك، يبدأ طفلًا فيافعًا فشابًا فكهلًا فشيخًا فانيًا. إنّها الدنيا وقوانينها، هي عالم محفوفٌ ـ بطبيعته ـ بالمكاره والصعاب ومسار يقضم أعمارنا قضمًا، إلى أن ينتهي بنا إلى الشيخوخة والهرم، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [النمل: ٧٠] ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]. وأخيرًا يأتيه الموت الذي لا مفر له منه.

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص١٦.

قال الشاعر:

راحل أنت والليالي نُزُول ومُضِرٌّ بك البقاء الطويل
غاية الناس في الزمان فناء وكذا غاية الغصون الذبول

ومن أغرب ما في الموت أنّه وفي الوقت الذي يمكن القول إنه الحقيقة الناصعة التي لا يشوبها شك ولم يتنكر لها أحد، لكنْه مع ذلك يبدو من خلال تعامل أكثر الناس معه وكأنه شك لا يشوبه يقين، فلا تراهم يحسبون حسابًا للموت في شيء من تصرفاهم، ورد في الحديث عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «**لم يخلق الله عز وجل يقينًا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت**»[١].

ب ـ الموت ليس عدمًا ولا شرًا

هل الموت عدم؟ وهل هو شر؟

والجواب: إنّ الموت في منطق رسالات السماء، ومنها الإسلام ليس عدمًا، والتعبير عن القصاص بالإعدام تعبير خاطئ، الموت هو انتقال من عالم إلى آخر، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، فالموت مخلوق لله تعالى تمامًا كما الحياة، فلو كان عدمًا لما كان مخلوقًا، لأنّ العدم ليس خلقًا.

ويعبّر القرآن الكريم عن الموت بتعبير ثانٍ، وهو تعبير التوفي، وهو تعبير شائع في الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]، والتوفي هو أخذ

---

(١) الخصال، ص١٤، ومن لا يحضره الفقيه، ج١، ص١٩٤. ونسبه بعضهم إلى الحسن البصري بصيغة: «ما رأيت يقينًا..»، انظر: زهر الآداب للقيرواني، ج٤، ص٩٣٤.

الشيء وافيًا[١]، والتعبير عن الموت بالوفاة، يسلط الضوء على حقيقة الموت وأنه ليس سوى قبضٍ وأخذٍ للنفس وليس إعدامًا لها.

وكما أنّ الموت ليس عدمًا فإنّه ليس شرًا، والله تعالى لم يجعل ولم يخلق شيئًا يمكن وصفه بكونه شرًا مطلقًا، كما أسلفنا في محاور سابقة.

٢ ـ الموت والولادة الثانية

وقد تقول: وكيف لا يكون الموت شرًا وهو الذي يسلب منا أغلى نعمة نملكها وهي نعمة الحياة؟ وهو الذي يفجعنا بفقيد هنا أو فقيدة هناك، وبكهل هنا أو شاب هناك؟

ولكننا نجيب على ذلك من خلال النقاط التالية:

أ ـ الموت بداية حياة

إنّ الموت طبقًا للرؤية القرآنية هو نافذة نطلّ من خلالها على عالم الحياة الأبدية، أو جسر نعبر من خلاله إلى تلك الحياة، قد يكون عبور هذا الجسر صعبًا وعسيرًا لكنه على كل حال سوف يوصلك إلى المقصد، أرأيت إلى الطفل في بطن أمه قد لا يكون راغبًا في الخروج إلى عالم الدنيا، لأنّه عالم مجهول بالنسبة له، وهو يكره مفارقة الرحم، لأنه وطنه، وفراق الأوطان صعب على الإنسان، ولذا عندما يُطِلّ على هذا العالم فإنّه يستهل حياته بصرخة باكية، إنّها صرخة فراق الوطن والانتقال إلى وطن جديد، لكنه بعد دقائق سوف يتأقلم مع العالم الجديد، ومع الوقت سيكتشف عالم الدنيا ويجد نفسه أمام آفاق رحبة وواسعة وميادين شتى للنشاط لا نظير لها في عالم الرحم المحدود والضيق، وعندما يفارق الإنسان وطنه هذا وهو عالم الدنيا الذي ألفه وارتبط به ويرتحل إلى عالم الآخرة فإنه لا يفارقه باختياره بل يفارقه بحسرة وغمٍّ وقلقٍ وخوفٍ لا نظير له، ولكنه سيكتشف

---

(١) راجع: المفردات في غريب القرآن، ص٥٢٩.

لاحقًا أنّ الفارق بين عالمي الدنيا والآخرة هو أكثر بكثير من الفارق بين عالمي الرحم والدنيا.

بكلمة أخرى: إنّ الموت هو بدايةٌ لحياةٍ الأبد، وليس نهاية المطاف، فالكلام عن سلبنا نعمة الحياة نشأ من تخيّل أن الموت هو العدم والنهاية، وهذا باطل وفق منطق الدين، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وعن الإمام علي عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارُ مَجَازٍ والآخِرَةُ دَارُ قَرَارٍ فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ ولَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَسْرَارَكُمْ وأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ـ فَفِيهَا اخْتُبِرْتُمْ ولِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ**»[1]. وعنه عليه السلام: «**أيها الناس، إنّا خلقنا وإياكم للبقاء لا للفناء، لكنكم من دار إلى دار تنقلون، فتزودوا لما أنتم صائرون إليه وخالدون فيه**»[2].

ب ـ عندما يغدو الموت نعمة!

ثم ومع غض النظر عما تقدم من كون الموت بداية الحياة الحقيقية، والتماشي مع فكرة الدهريين الذين لا يؤمنون بالمعاد، فإنّ ما لا يمكننا إنكاره هو أنّ الموت يبقى حاجة لاستمرار الحياة، لأنّه وفي ظل هذا النظام الحاكم بصيرورة الإنسان القهرية من الصبا إلى الكهولة ومن ثم الشيخوخة فإذا لم يكن الموت هو الخاتمة لأصبح العجزة والشيوخ أكثر عددًا من الشباب، وشكلوا مشكلة حقيقية ربما تؤدي إلى شلل الحياة، وهذا ما نبّه عليه الخبر الصحيح عن هِشَام بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «إِنَّ قَوْمًا فِيمَا مَضَى قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمْ: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يَرْفَعُ عَنَّا الْمَوْتَ فَدَعَا لَهُمْ فَرَفَعَ الله عَنْهُمُ الْمَوْتَ فَكَثُرُوا حَتَّى ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْمَنَازِلُ وكَثُرَ النَّسْلُ ويُصْبِحُ الرَّجُلُ

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص١٨٣.
(٢) الإرشاد للمفيد، ج١، ص٢٣٨.

يُطْعِمُ أَبَاه وجَدَّه وأُمَّه وجَدَّ جَدِّه ويُوَضِّيهِمْ (ينظفهم) ويَتَعَاهَدُهُم، فَشَغَلُوا عَنْ طَلَبِ الْمَعَاشِ! فَقَالُوا: سَلْ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَرُدَّنَا إِلَى حَالِنَا الَّتِي كُنَّا عَلَيْهَا، فَسَأَلَ نَبِيُّهُمْ رَبَّه فَرَدَّهُمْ إِلَى حَالِهِمْ»[١]. ولذا فإنّ موت الإنسان في نهاية المطاف سيكون سترة ورحمة له وللآخرين أيضًا.

ت ـ كفى بالموت واعظًا

ومن مظاهر الرحمة الإلهية في الموت أنّه يشكل واعظًا للإنسان، في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**كفى بالموت واعظًا**»[٢]، لكن ما أقلّ المتعظين والمعتبرين، إنّ موت أي إنسان فقيرًا كان أو غنيًّا، مؤمنًا كان أو غير مؤمن، عالمًا أم جاهلًا، ذكرًا أم أنثى، هو هاتف يصرخ بنا قائلًا: أيها النائمون أفيقوا من كبوتكم، فإنكم ميتون فانظروا ماذا أنتم عاملون؟ هو هاتف يهتف بنا قائلًا: إنّ الدنيا ليست دار بقاء بل دار فناء، الدنيا دار ممر والآخرة هي المقر، ويهتف بنا قائلًا: مهما استكبرتم وظلمتم، فإنّ هناك من ينتظركم وسوف يقهركم جميعًا ألا وهو الموت، «سبحان من قهر عباده بالموت والفناء»، ويهتف بنا قائلًا: مهما كنتم شجعانًا وأقوياء فأنتم ضعفاء أمام الموت، فهو طالبكم أينما كنتم، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وخلاصة القول: إنّ الموتَ أفضلُ واعظ للإنسان، ويفترض أن يخفف من غروره وكبريائه، فإذا رأيت ميتًا أو محتضرًا يلفظ أنفاسه ويصارع الموت فاعلم إنّك ميت مثله، وإذا رأيت جنازة تُحمَل على الأكف فاعلم إنّك محمول مثلها ذات يوم، فهل نتعظ بالموت؟ أو أنه على غيرنا كتب[٣]! إن من لم يتعظ بالموت ليس له من واعظ.

---

(١) الكافي، ج٣، ص٢٦٠، والأمالي للصدوق، ص٦٠٠، والتوحيد له، ص٤٠١.

(٢) الكافي، ج٢، ص٥٨.

(٣) قال الشريف الرضي في نهج البلاغة: «وتَبعَ جِنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلًا يَضْحَكُ فَقَالَ: كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ! وكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ، وكَأَنَّ الَّذِي نَرَى مِنَ الأَمْوَاتِ=

هذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول في كلام له قبيل موته: «وإِنَّمَا كُنْتُ جَارًا جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّامًا، وسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاءً، سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ وصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ، لِيَعِظْكُمْ هُدُوِّي وخُفُوتُ إِطْرَاقِي وسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّه أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ، والْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي. غَدًا تَرَوْنَ أَيَّامِي ويُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي»(١).

ولكن المؤسف حقًا أننا حتى في ذكريات الموت ومناسباته الاجتماعية نلاحظ أنّ حديث الموت هو الغائب الأكبر عنها، هذا مع أنّ الموت هو الأمر الأكثر حضورًا في حياتنا، وهو غير تاركنا وإن تركناه ولا ينسانا وإن نسيناه، وكل دقيقة بل ثانية تمر علينا فإنّها تخطف بعضنا وتجره إلى عالم الموت.

من كلام الإمام علي عليه السلام لابنه الإمام الحسن عليه السلام: **«يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْه، وتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْه، حَتَّى يَأْتِيَكَ وقَدْ أَخَذْتَ مِنْه حِذْرَكَ، وشَدَدْتَ لَه أَزْرَكَ، ولَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ»**(٢).

٣ ـ لماذا نكره الموت؟

قد تقول: ولكننا لا نحب الموت، إننا نحب الحياة ونكره الموت، نحب البقاء ونبغض الفناء، وهذا أمر مفطورون عليه وليس باختيارنا؟

وأقول: نعم إنّ حبنا للحياة يعبّر عن ميل فطري مزروع فينا، فنحن بالفطرة نحب البقاء، ولكننا نخطأ بافتراض أن الحياة لا تتحقق إلّا في هذا العالم، إنّ هذه الفطرة هي دليل أو مؤشر إلى أنّ هذا العالم ليس هو نهاية

=سَفْرٌ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَاثَهُمْ ونَأْكُلُ تُرَاثَهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، ثُمَّ قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ ووَاعِظَةٍ ورُمِينَا بِكُلِّ فَادِحٍ وجَائِحَةٍ»، نهج البلاغة، ج٤، ص٢٨.

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٤٩.

المطاف وأنّ ثمّة حياة مستمرة أو متجددة بعده، فالله تعالى لم يغرس فينا ميولًا فطرية إلّا وكان لها ما يطابقها، على أنه لولا الحياة بعد الموت لكانت هذه الدنيا عبثية.

ولكن من موقع حرصنا على أنفسنا وحبنا لها، فاللازم أن نطرح عليها سؤالًا آخر: وهو لماذا نكره الموت؟ ولماذا نهرب منه، ونطرد فكرته من أذهاننا؟

ويمكننا أن نجيب على ذلك بإجابتين: إحداهما إجابة من وحي العقل والأخرى من وحي الدِّين.

أ ـ هل لنا بصداقة الموت؟

أما الإجابة الأولى: وهي إجابة نقدمها لكل الناس سواء ممن يؤمن بالحياة بعد الموت أو ممن لا يؤمن بها، وخلاصة هذه الإجابة: إننا نكره الموت لأننا خاصمناه وأبغضناه وعاديناه ونعمل دائمًا على طرد فكرة الموت من أذهاننا، ولهذا يبقى الموت هاجسًا مخيفًا وعالمًا مجهولًا، فنخافه ونصاب بالذعر إزاءه، «والناس أعداء ما جهلوا»[1]، كما قال علي عليه السلام، أما لو تعاملنا مع المسألة بواقعية ونظرنا إلى القضية من زاوية أنّ الموت آتينا لا محالة رضينا أم كرهنا، جزعنا أم صبرنا، فهذا ينبغي أن يقودنا إلى أن نتعرف على الموت ومن ثم نصادقه وإذا كانت مصادقته صعبة على نفوسنا فلا أقل من أن نتفهمه، لأنه القدر الذي لا مفر منه، ولهذا كلما فكرّت بالموت وتعايشت معه أكثر كلما هان عليك لقاؤه أكثر، وكلما طردت فكرة الموت من رأسك كلما أقلقك أكثر، أنا أتحدث عن مسألة نفسيّة مهمة، وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِذَا هِبْتَ أَمْرًا فَقَعْ فِيه، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقِّيه أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْه**»[2]، فالموت آتيك، والمرض

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٤٢.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والشيخوخة على الأبواب فهل تنهزم وتضعف أمام ذلك؟ إنّك إذا انهزمت أمام المرض أو تملكك هاجس الموت فقد قضيت على حياتك وعشت بقية عمرك محزونًا مهمومًا.

لا أريد بهذا الكلام إلّا أن نتعايش مع الموت ونتفهمه، ولا أقصد تشجيع أحد على أن يرمي نفسه في لهوات الموت، كلا فهذا انتحار وإلقاء للنفس في التهلكة وهو مرفوض شرعًا وعقلًا، إذ إنّ الله خلقنا في هذه الحياة وأراد لنا أن نعيشها ونتنعم بخيراتها ونتحسس جمالها، وعلينا أن نحرص على أن نعيشها بصحة وهدوء مهما تقدم بنا العمر، فاليأس مرفوض، فلنبقِ أبواب الأمل مشرعة إلى آخر نفس في حياتنا، وإذا رزقنا الله العمر الطويل فلنحرص على أن يكون في رضا الله.

ب ـ الموت يعلمنا كيف نعيش الحياة

أما الإجابة الثانية، فهي أن السبب في كرهنا للموت، يكمن في أننا لم نعمل لما بعد الموت، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: جاء رجل إلى أبي ذر فقال:

«يا أبا ذر ما لنا نكره الموت؟

فقال: لأنكم عمرتم الدنيا وأخربتم الآخرة فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب!

فقال له: فكيف ترى قدومنا على الله؟

قال: أما المحسن منكم فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء منكم فكالآبق يرد على مولاه.

قال: فكيف ترى حالنا عند الله؟

قال: اعرضوا أعمالكم على كتاب الله إنّ الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

قال: فقال الرجل: فأين رحمة الله؟

قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]»(١).

إذا أردت أن تهوّن على نفسك من لقاء الموت ومن ذكرى الموت المزعجة، فعليك أن تعرف أنّ ذلك متَّصلٌ برؤيتك لما بعد الموت، فعندما تطل على الموت وتنظر إليه من زاوية من يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، سيبقى الموت هو الهاجس الذي يؤرقك والكابوس الذي يزعجك، وينغص عليك حياتك، وأمّا إذا نظرت إليه من زاوية أنّه نافذة على الحياة الأخرى، فإنّك حينئذ مهما تهيبت الموت وخفته ستجد أنّ وطأته عليك أخف.

٤ ـ أثقافة حياة هذه أم ثقافة موت؟

إنّ هذه الرؤية أو العقيدة (الإيمان بالحياة الأبدية بعد الموت) لها أكثر من ثمرة وفائدة في حياتنا:

أ ـ عبثية الحياة المنتهية بالموت

وأول ثمرة في هذا المجال هي أنّ الإيمان بالآخرة هو الذي يجعل لحياتك معنى، وهو الذي يعطي الحياة الدنيا هدفيتها ومغزاها الأسمى، وهو الذي ينفي عن الله سبحانه وتعالى صفة العبث واللعب، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدّخان: ٣٨ ـ ٣٩]، ومن هنا فكلما ازداد إيمانك بالحياة الآخرة أكثر أصبح لحياتك الدنيا معنى أكثر، وخرجت الحياة عن كونها عبثًا ولا جدوى منها، لأنّك إذا فارقت الحياة الدنيا فلديك حياة أخرى قد تكون أجمل وأفضل، ومهما أخافك الموت فإنّه ليس نهاية المطاف. وإيمانك هذا بالحياة بعد الموت من المفترض أن يمنحك ـ كفرد ـ الاطمئنان ويدفعك لتعيش حياة هانئة مطمئنة.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٥٨.

ب ـ الإيمان بالحياة بعد الموت وتهذيب الإنسان

من جهة أخرى فإنّ الاعتقاد بالحياة بعد الموت ينبغي أن يمنح المجتمع برمته الاستقرار، لأنّه يدفع الفرد المؤمن لكي يعيش إنسانيته في احترام إنسانية الآخر، فلا يعتدي ولا يظلم ولا يسرق، لأنّ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨]. إن الاعتقاد بالحياة الأخرى يشكّل أهم ضامن لانتظام الحياة الدنيا، لأنّ هذه العقيدة تتحول إلى رقيب داخلي يجعل ضمير الإنسان صاحيًا يقظًا على الدوام، ويُعَلِّمه أنّ عيون الخلق إذا أخطأته ونامت عنه، فإنّ عين الله الخالق لا يمكن أن تنام، في الحديث عن علي عليه السلام: «**اتقوا معاصي الله في الخلوات فإنّ الشاهد هو الحاكم**»(١).

ت ـ هل صحيح أن ذكر الموت يفسد حياتنا؟

وربما يقول بعض الناس: لم تفسدون علينا حياتنا بحديث الموت؟

ونقول لهؤلاء: لسنا نحن من يفسد عليكم حياتكم بل عدم تفهمكم للموت هو الذي يفسد عليكم حياتكم، أما نحن فلا نريد إلّا مصلحتكم وراحتكم، ولا شك أن الإيمان بالحياة الأخرى بعد الموت والعمل لتلك الحياة هو الذي يصلح حياتكم ويمنحكم الاستقرار والاطمئنان النفسي والاجتماعي، ورد في الخبر أنّه لما أخذ بعض الزنادقة أو الملاحدة يجادل الإمام الصادق عليه السلام في أمر المعاد والحياة بعد الموت مع أنّ آيات الله لا تعد ولا تحصى، قال له الإمام عليه السلام: «**إن كان الأمر كما تقول وهو ليس كما تقول فقد نجونا ونجوت وإن كان الأمر كما نقول وهو كما نقول، فقد نجونا وهلكت**»(٢). فنحن عشنا حياتنا وتنعمنا كما تنعمت، ولكن مع ميزة لنا عليك، وهي أننا عشنا حياتنا ونعيشها مرتاحي البال، لأننا مطمئنون بلقاء الله، أما أنت فإنك تعيشها وهاجس الموت يلاحقك ويؤرقك.

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٧٧.

(٢) الكافي، ج١، ص٧٨.

ث ـ القناعة واليقين

وهذا لا يعني أن كل من هو مقتنع بالحياة بعد الموت فإنه يعيش آمنا مستقرًا على المستوى الفردي والاجتماعي، فالمؤمنون يتفاوتون على هذا الصعيد تبعًا لتفاوت إيمانهم وتفاوت عملهم.

فالكثيرون مقتنعون بالحياة بعد الموت، ولكنّ الأقلية هم من يوقنون بذلك، والفارق بين القناعة واليقين كبير، فالقناعة أمر نظري فكري بحت، بينما اليقين هو حالة اطمئنان قلبي، وثمة مسافة بين القناعة واليقين تبقى موجودة لدى كثيرين، وهذا نظير ما حدّثنا عنه الله تعالى في شأن نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ألا ترى أن معظمنا مقتنع بأن الإنسان بعد موته هو جسد لا يضر ولا ينفع، ولكنك لو طلبتَ من معظم الناس أن يناموا ليلة واحدة إلى جانب الميت فإنهم يرفضون ذلك، لماذا؟ لأن القناعة الفكرية شيء والقناعة الوجدانية شيء آخر، وفي ضوء هذا فإن المؤمن حتى لو ترسخ الإيمان بالآخرة في وجدانه فسيبقى يخاف الموت.

ولا يكفي رسوخ الإيمان بالحياة الآخرة ليمنح الإنسان الأمن والسلام الروحيين، بل لا بد أن يتبعه العمل والاستعداد لذاك اليوم، فعلى قدر استعدادك لذلك اليوم يهون عليك استقباله، وكلما عملت ليوم المعاد أكثر كلما سهل وهان عليك مواجهة الموت أكثر، وابتعد عنك هاجس لقائه أكثر، والعمل لليوم الآخر هو في الحقيقة ثمرة طبيعية لرسوخ الإيمان، فمن حسن إيمانه باليوم الآخر فإنه لا محالة سوف يستعد له ويتجهز.

ومن هنا تعرف السر في أنّ بعض أولياء الله تعالى يصل الأمر بأحدهم إلى حد الاستئناس بالموت، كما قال إمام المتقين علي عليه السلام عندما ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه: «**فزت ورب الكعبة**»[(١)]، أو كما قال ابنه

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٣٨٥.

الحسين عليه السلام: «**إني لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برمًا**»(١)، وما ذلك إلاّ لأنّ الإيمان بلقاء الله تعالى كان مسيطرًا على عقل علي والحسين عليهما السلام، وعلى وجدانهما، ولأنهما استعدا لذاك اليوم.

والاستعداد لذاك اليوم يكون بالعمل الصالح والتقوى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وفي بعض المأثورات: «**يا ابن آدم أكثر من الزاد، فإنّ الطريق بعيد بعيد، وخفف الحمل فإن الصراط دقيق**».

هذا لا يعني أننا دعاة موت ومشاريع موت، فنحن نحبّ الحياة ونعمل على إعمارها، ولكننا في الوقت عينه نريد أن نفكر في حياتنا المستقبلية كما نفكر في حياتنا الحاضرة، والآخرة هي مستقبلنا الأهم.

ج ـ احترز من دعوتين على إطلاقهما

إننا عندما نذكر الموت ونستحضره فليس ذلك لأننا نريد أن نهرب من الحياة، أو لأننا نكرهها، وإنما لأننا نريد أن نعرف كيف نعيش هذه الحياة. إنّ تذكّر الموت يعلمنا العيش في هذه الحياة بمسؤولية وأمانة وكرامة، وأن نبني الحياة، وقد أعطانا رسولنا درسًا بليغًا في هذا الشأن بعد موت ابنه إبراهيم، فقد جاء في الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: «**رَأَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم فِي قَبْرِهِ خَلَلًا فَسَوَّاه بِيَدِه، ثُمَّ قَالَ: إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا فَلْيُتْقِنْ**»(٢).

ولهذا لا يصح للإنسان أن يستدعي الموت ويطلبه عملًا وفعلًا أو قولًا ودعاءً، وفي المقابل لا ينبغي للإنسان أن يدعو بطول العمر دون قيد أو شرط، فكلا الدعاءين خاطئان:

---

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٠٥.

(٢) الكافي، ج٣، ص٢٦٣، والخبر مروي في مصادر السنة، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم أمر بسدّ فرجة رآها في قبر ابنه إبراهيم، ثم قال: «أما إنّها لا تضر ولا تنفع، ولكن تقر عين الحي، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه»، الاستيعاب لابن عبد البر، ج٤، ص١٨٦٨.

أمّا الدعاء بتمني الموت واستدعاؤه، فلا يلهج به إلّا اليائسون والفاشلون والمحبطون وضعيفو الإرادة والعزيمة، وأما المؤمنون حقًا فهم يرغبون في الحياة، لأنها ميدان للعمل والجهاد في سبيل الله والتزود من الخير، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ نهي واضح عن تمني الموت، ما دام الإنسان غير واثقٍ بعمله، قال ﷺ ـ فيما روي عنه ـ : «لا يدعونَّ أحدكم بالموت لضرٍّ نزل به ولكن ليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»[(١)].

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال للحارث الهمداني: «أكثر ذكر الموت وما بعد الموت ولا تتمنى الموت إلّا بشرط وثيق»[(٢)].

عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه سمع رجلًا يتمنى الموت، فقال له: «هل بينك وبين الله قرابة يحابيك لها؟ قال: لا، قال: فهل لك حسنات قدمتها تزيد على سيئاتك؟ قال: لا. قال: فأنت إذًا تتمنى هلاك الأبد»[(٣)].

وأمّا الدعاء بتمني الحياة والعمر الطويل فلا يصحّ على إطلاقه، لأنّه إلى متى نرغب بطول أعمارنا؟ هل نرغب بذلك حتى نردّ إلى أرذل العمر وكي لا نعلم بعد علم شيئًا؟! ولهذا إذا كنت داعيًا لنفسك بطول العمر فقيّد دعاءك بأن يكون طول العمر في خير وعافية وحسن العاقبة، تمامًا كما كان الإمام زين العابدين عليه السلام يدعو ربه قائلًا: «**وعمّرني ما كان عمري بذلة في طاعتك فإذا كان عمري مرتعًا للشيطان فاقبضني إليك قبل أن يسبق مقتك إليّ أو يستحكم غضبك عليّ**»[(٤)].

وفي دعاءٍ آخر عن رسول الله ﷺ: «**اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»[(٥)].

---

(١) صحيح البخاري، ج٧، ص١٠، وصحيح مسلم، ج٨، ص٦٤. والمزار للمشهدي، ص١٤١.
(٢) نهج البلاغة، ج٣، ص١٢٩.
(٣) كشف الغمة في معرفة الأئمة عليهم السلام، ج٣، ص٤٦، وعنه بحار الأنوار، ج٧٥، ص٣٢٧.
(٤) الصحيفة السجادية، من دعائه في مكارم الأخلاق.
(٥) صحيح البخاري، ج٧، ص١٠، وصحيح مسلم، ج٨، ص٦٤. والمزار للمشهدي، ص١٤١.

المحور الثاني
كيف نفهم المرض ونتعامل معه؟

١ ـ التفسير العلمي للمرض

٢ ـ المرض عقوبة أم ابتلاء؟

٣ ـ المرض كفّارة للذنوب

٤ ـ هل يُثاب المريض على مرضه؟

٥ ـ الشريعة والتخفيف عن المريض

ما هو التفسير العلمي للمرض؟ وكيف هي نظرة الدين إزاء التفسير العلمي للمرض؟ وما هي رؤية الدين اتجاه الأمراض؟ وما علاقة الأمراض بالذنوب؟ وهل يثاب المريض على مرضه؟

١ ـ التفسير العلمي للمرض

للمرض ـ أي مرضٍ ـ في المنطق العلمي الطبي تفسيره وتوجيهه، فهو يمثّل حالة اعتلال أو سقم بيولوجي أو سيكيولوجي يصاب بها الكائن الحيّ، نتيجة بعض العوامل والأسباب والحوادث، الأمر الذي يحدث لديه خللًا في بعض الوظائف أو إعاقة أو إرهاقًا، وقد تظهر ـ في كثير من الأحيان ـ أعراض هذا المرض. والعلم الذي يدرس أسباب المرض وعوارضه وتشخيصه وتمييز مرض عن آخر هو علم الطب بفروعه المختلفة، وبحمد الله فقد وصلت العقول البشرية في مجال الطب إلى مستوى متقدم جدًا وكشفت عن أسباب الكثير من الأمراض التي بقيت مجهولة لقرون

متمادية، كما وتغلّبت على الكثير من الأمراض التي كانت مستعصية على العلاج، وهذا التطور هو تطور رائع وجميل ومن أعظم المنجزات التي حققتها حركة التطور البشري.

وليس للدين الإسلامي مقابل التفسير المذكور أي موقف سلبي على الإطلاق، لأنّه لا يتدخل في حركة البحوث العلميّة ما دامت جهودًا هادفة وليست عابثة، وإنّما يترك ذلك لأهل الخبرة والاختصاص، ولا يقف حجر عثرة في وجوههم، بل إنّه شجع ـ كما يشهد التاريخ ـ ويشجع كل الجهود العلميّة الهادفة لما فيه مصلحة الإنسان، وعلى رأسها الجهود الطبية الباحثة عن أسباب الأمراض وأعراضها، واكتشاف الدواء الملائم لها، لأنّ الذي خلق الداء خلق الدواء كما جاء في الحديث النبوي الشريف(١).

ومن هنا فإننا ننظر إلى رسالة الطب والأطباء بكل تقدير واحترام، ونثمن كل جهودهم الرامية إلى إنقاذ أو مساعدة النفوس المعذبة، والتخفيف من آلامها ومعاناتها، ولا نغالي إذا قلنا: إنّ رسالة الطبّ في هذا الهدف تلتقي مع رسالة الدين، وأنّ عمل الطبيب الإنساني يعتبر عبادة، بل ربما كان من أفضل الطاعات والعبادات، لأنّ إحياء النفس وإنقاذها لا يعادله شيء عند الله تعالى، كما جاء في الذكر الحكيم، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ﴾ [المائدة: ٣٢].

وفي ضوء ما تقدم، من أنّ الإسلام ليس له رأي غيبي في موضوع المرض والداء، وإنّما يضع الداء والدواء في دائرة القضايا التي يحكمها قانون العلية وأن وراء كل ظاهرة سبباً وأن لكل داءٍ دواءً، فإننا نسجل رفضًا للرأي القائل إنّ الدواء هو أمر غيبي أو أن العلاج يكون بمجرد الدعاء، كما أنّ لنا رؤية حول الأخبار الواردة في المجال الطبي(٢).

---

(١) سيأتي مصدره لاحقًا.

(٢) راجع كتاب: أبعاد الشخصية النبوية، ص٤٢٦.

٢ ـ المرض عقوبة أم ابتلاء؟

هذا ولكن للإسلام نظرته وفلسفته الخاصة فيما يتعلق بالمرض، فهو ينظر إليه ويشخّصه باعتباره ابتلاءً، وفق المصطلح القرآني، ﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. وقال سبحانه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والابتلاء الإلهي هنا لا يعني ـ فيما يبدو ـ أنّ الله تعالى يرمي عباده بالأمراض بشكل مباشر انتقامًا منهم وعقوبة لهم، كما قد يفهم البعض، وإنّما الأمراض جارية وفق منطق الأسباب والسنن، ولم يتضح بدليل أنّ المعصية وتجاوز حقوق الله تعالى هي من جملة أسباب وموجبات المرض. والأمر الأكيد أنّ الابتلاء هو بمعنى الاختبار، فالمرض مختبرٌ لإرادة الإنسان وصبره وإيمانه، والابتلاءات والمصائب التي تواجه الإنسان تصقل شخصيّته وتجعله أكثر تمرّسًا على تحمّل المصاعب والتحديات.

إنّ التعامل مع المرض من موقع الابتلاء أمر بالغ الأهميّة، لأنّ ذلك يخرجه عن كونه قدرًا قاهرًا لا بدّ من الاستسلام له، أو عيبًا لا بدّ من التستر عليه، أو انتقامًا إلهيًا من العباد، فالمرض لا يعني هذا ولا ذاك، وإنّما هو ابتلاء وامتحان ينبغي تجاوزه والنجاح فيه أو التكيف معه، دون التوهم بأنّه انتقام إلهي، لأنّ الابتلاء ينطلق في كثير من الأحيان من تقصير العباد أنفسهم ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الرّوم: ٤١]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ النظرة إلى المرض من زاوية الابتلاء أمر مهم بالنسبة للمريض نفسه، لأنّه يساعده في التغلب على المرض وتقبله، فإنّ المبتلى والممتحن يلزمه بذل كافّة الجهود للنجاح في الامتحان والاختبار.

وربما يعترض على ما تقدّم:

الاعتراض الأول: إنّ العذاب كان ينزل على الأمم الماضية من الكوارث كالذي جرى على قوم نوح من الغرق بالطوفان وما جرى مع قوم

لوط من تدمير قريتهم عليهم حتى جعل عاليها سافلها وما جرى مع قوم صالح بعد أن عقروا الناقة فأصابتهم الرجفة وأصبحوا جاثمين، إلى غيرهم من الأمم السابقة الذين سجل القرآن الكريم ما جرى عليهم وما أصابهم من كوراث.

والجواب: إنّ هذه ليست من سنخ الأمراض وإنما كانت إجراءات عقابية أصابتهم في عرض ما كان يواجههم من أمراض، وذلك بسبب جحودهم وكفرهم وعتوّهم، وتكذيبهم للأنبياء ﷺ، وفيما يبدو فإنّ هذا الأسلوب المسمى بعذاب الاستئصال قد يمثّل مرحلة معينة ومؤقتة في التاريخ البشري، وقد سجل لنا القرآن أنّ الله تعالى قدّر بإرادته ولطفه رفع هذا النوع من العذاب عن الأمم اللاحقة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: **٣٢ ـ ٣٣**].

الاعتراض الثاني: أنّه قد ورد في طائفة من الأخبار ما ينافي ذلك، ويدل على ربط الأمراض بالمعاصي والذنوب بشكل مباشر، وأنّ المرض هو عقوبة على المعاصي، وذلك من قبيل ما جاء في صحيحة هِشَام بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه ﷺ قَالَ: «**أَمَا إِنَّه لَيْسَ مِنْ عِرْقٍ يَضْرِبُ ولَا نَكْبَةٍ ولَا صُدَاعٍ ولَا مَرَضٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وذَلِكَ قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ فِي كِتَابِه**: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: **٣٠**]، **قَالَ: ثُمَّ قَالَ: ومَا يَعْفُو الله أَكْثَرُ مِمَّا يُؤَاخِذُ بِه**»(١).

وفي صحيحة الْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ نَكْبَةٍ تُصِيبُ الْعَبْدَ إِلَّا بِذَنْبٍ ومَا يَعْفُو الله عَنْه أَكْثَرُ**»(٢).

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

ولكنْ يمكن التأمل في ذلك لعدة ملاحظات:

أولًا: إنّ هذه الروايات تدلّ بشكلٍ واضح على أنّ كل المصائب مسببة عن الذنوب والمعاصي، والحال أنّ من المعلوم أنّ المصائب والآلام كما يبتلي بها المذنبون فقد يبتلي بها من لا ذنب لهم، من الأطفال والمجانين، أو من المعصومين عليهم السلام، فكيف نفهم أنّه ما من مصيبةٍ أو نكبة أو غمّ إلّا بذنب؟! ولسان هذه الروايات ليس لسان القواعد التشريعيّة القابلة للاستثناء، وإنما لسان القوانين التكوينية التي لا تستثني أحدًا.

ودعوى أنّ مرض الصغير أو المجنون ليس عقوبة لهما على ذنوبهما، وإنما هي مصيبة يبتلي بها الله تعالى الآباء بسبب ذنبهم لا بسبب ذنوب من لا تكليف له، لا تصح، لمنافاة ذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فإذا أذنب الكبار فما ذنب الصغار؟!

إلا أنْ يقال: إنّ الروايات وإن استفيد منها قاعدة عامة، لكنّها تقبل الاستثناء بإخراج الأطفال أو المجانين أو المعصومين، أو يقال: إنّ هؤلاء خارجون تخصصًا.

ثانيًا: إنّ الآية عامة للمسلم والكافر، الأمر الذي يفترض تماشيًا مع الحديث أن تكون الأمراض التي يتعرض لها المجتمع غير المؤمن أكثر من المجتمع المؤمن بالله تعالى، مع أننا نرى رأي العين أنّ المرض ينتشر ويفتك في المجتمعات التي لا تؤمن بالله تعالى أو التي لا تلتزم شريعته، أقل من انتشاره في المجتمعات المتدينة والمؤمنة بالله تعالى!

وإذا قيل: إن الكافرين وغير المؤمنين بالله تعالى إنما يؤجل عذابهم ليوم القيامة، بينما المؤمن يبتلى في الدنيا تطهيرًا له ليصل إلى الحساب الأخروي طاهرًا مطهرًا من درن المعاصي وتبعات الذنوب.

قلنا: لو سلمنا بهذا التوجيه، لكن ما بال الفسقة والظلمة والمترفين من المسلمين أنفسهم، هم أقل ابتلاء بالأمراض والأوبئة والنكبات من المؤمنين الفقراء! والحال أن هؤلاء أقل ارتكابًا للذنوب من أولئك!

إنّ ذلك يدل على أنّ قضية المرض والصحة جارية وفق السنن الإلهية والقوانين التي أودعها الله في الكون، فمن أخذ بأسباب الرعاية الصحيّة في نظامه الغذائي والحياتي بشكل عام، فإنّه سيكون أقل عرضة للأمراض ولو كان فاسقًا أو كافرًا، ومن لم يأخذ بها ولم يحترز عن المخاطر كان أقرب إلى الإصابة بالأمراض والابتلاءات، ولو كان مؤمنًا تقيًا.

ثالثًا: ويطرح السيد الطباطبائي ملاحظة أخرى في المقام، وهي أنّ هذه الطائفة من الأخبار مخالفة لظاهر القرآن الكريم من جهة أخرى، وهي «مخالفة الرواية لظواهر ما دلّ من الآيات على أنّ موطن جزاء الأعمال هي الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وغيره من الآيات الدالة على أنّ كل مظلمة ومعصية مأخوذ بها وأن موطن الأخذ هو ما بعد الموت وفي القيامة إلّا ما غفرت بالتوبة أو تذهب بحسنة أو بشفاعة في الآخرة أو نحو ذلك»(١).

أجل، ثمة نوع من الابتلاءات التأديبية كانت تنزل على الأمم السابقة بسبب جحودهم وعنادهم، كما حصل مع بني إسرائيل، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] إلى أن قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

رابعًا: وملاحظة أخرى يسجلها السيد الطباطبائي في المقام، وهي أنّ «قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ غير ظاهر في كون إصابة المصيبة جزاء للعمل، ولا في كون العفو بمعنى إبطال الجزاء، وإنما هو الأثر الدنيوي للسيئة يصيب مرة ويمحى أخرى»(٢). إنّ الآية المباركة إذ

(١) الميزان، ج١٨، ص٧١.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

تُحمِّل الإنسان مسؤولية ما يتعرض له من مصائب، فهي تريد الإشارة إلى مسؤوليته عن هذه المصائب بسبب ابتعاده عن الأخذ بالمنهج السوي وانحرافه عن خطّ العدالة والاستقامة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والأخلاقي، أو إفساده في الأرض وسعيه في إهلاك الحرث والنسل، وما يتولد عن ذلك كله من مآسي ومصائب تلحق به أو بالآخرين.

أجل، إنّ في المقام ـ وبإزاء الطائفة المتقدمة من الأخبار والتي فرضت أنّ الأمراض والمصائب هي نوع جزاء وعقوبة على المعاصي ـ طائفة أخرى تتحدث عن أنّ بعض المصائب هي نوع ابتلاء من الله تعالى لبعض عباده المؤمنين ممن اقترفوا المعاصي ومسهم طائف من الشيطان، وذلك رحمة من الله تعالى بهم ليكفر عنهم من سياءتهم ويخفف عنهم من ذنوب ومن تبعاتها الأخروية، وهذه الطائفة مقبولة ولا تثير مشكلة حتى لو فرض أنّ بعض هذه الابتلاءات التي تصيب المؤمن كانت جارية خارج قاعدة السنن المألوفة والأسباب الطبيعية، كما يستفاد من بعض تلك الأخبار، والتي لسانها واضح الدلالة على أنّ هذه ابتلاءات تصيب المؤمن دون غيره، تكفيرًا لذنبه، ففي الخبر عن أَبي عَبْدِ الله الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُه ولَمْ يَكُنْ عِنْدَه مِنَ الْعَمَلِ مَا يُكَفِّرُهَا ابْتَلَاه بِالْحُزْنِ لِيُكَفِّرَهَا»[1]، وعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ الباقر عليه السلام قَالَ: «إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِه أَنْ يُكْرِمَ عَبْدًا ولَه ذَنْبٌ ابْتَلَاه بِالسُّقْمِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَه ابْتَلَاه بِالْحَاجَةِ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِه ذَلِكَ شَدَّدَ عَلَيْه الْمَوْتَ لِيُكَافِيَه بِذَلِكَ الذَّنْبِ..»[2].

باختصار: إن الابتلاءات والأوجاع والنكبات التي تصيب الإنسان المؤمن هي ـ وفق طائفة من الأخبار ـ كفّارة لذنوبه التي اقترفها، وهذا في الحقيقية باب من أبواب الرحمة الإلهية بالعباد، حيث إنّ الله تعالى يريد أن

(١) الكافي، ج٢، ص٤٤٤.
(٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

يطهّر عباده من تبعات الذنوب في دار الدنيا ليصلوا إلى دار الآخرة والخلود مطهرين من الرجس.

ولا يبعد أنّ يكون نظر الطائفة الأولى من الأخبار إلى بيان المضمون عينه الذي نصت عليه الآية المباركة، وأشارت له هذه الطائفة الأخيرة من الأخبار.

٣ ـ المرض كفّارة للذنوب

وفي هذا السياق تندرج الروايات التي تتحدث عن دور المرض في غفران الذنوب وتكفيرها، وأنّ الله تعالى يحطّ الذنوب والمعاصي عن المريض الصابر والمحتسب، كما جاء في أخبار كثيرة، منها ما روي عن رسول الله ﷺ: «**المريض تحاتّ** (تتساقط) **خطاياه كما يتحات ورق الشجر**»(١).

وفي حديث آخر أنّ رسول الله ﷺ عاد امرأة مريضة تدعى أم العلاء، فقال لها: «**يا أم العلاء! أبشري، فإنّ مرض المسلم يُذهب الله به خطاياه كما تُذهب النار خبث الحديد والفضة**»(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يشاكّها إلّا كفر الله بها من خطاياه»(٣).

ولا تقف رحمة الله بالمريض عند هذا الحد، بل إنّها تتجاوزه إلى ما هو أوسع وأبعد مدى، حيث إنّ الله تعالى ـ وطبقًا لما نصت عليه الأخبار ـ يدوّن له في سجل الحسنات ثواب كل عمل عبادي أو خيري أعجزه المرض عن مداومة إتيانه، ففي الخبر الصحيح عَنْ أَبِي عَبْدِ الله ع قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ**

(١) مسند أحمد، ج٤، ص٤٧٠.

(٢) سنن أبي داوود، ج٢، ص٥٦.

(٣) صحيح البخاري، ج٧، ص٢.

اللَّه ﷺ: يَقُولُ الله عَزَّ وجَلَّ لِلْمَلَكِ الْمُوَكَّلِ بِالْمُؤْمِنِ إِذَا مَرِضَ: اكْتُبْ لَه مَا كُنْتَ تَكْتُبُ لَه فِي صِحَّتِه، فَإِنِّي أَنَا الَّذِي صَيَّرْتُه فِي حِبَالِي»[١].

٤ ـ هل يُثاب المريض على مرضه؟

ولكنْ هل يثاب المريض على تحمّل المرض؟ أم أنّ الأمر يقتصر على كون المرض كفارة للذنوب فقط؟

ربما يستفاد من بعض الروايات أنّ المريض المحتسب الصابر هو في عبادة من عبادات الله تعالى، وأنّه يؤجر ويثاب على مرضه، فعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**سهر ليلة من مرض أفضل من عبادة سنه**»[٢]، وعن ابن مسعود: «عن رسول الله ﷺ أنّه تبسم، فقلت له: ما لك يا رسول الله تبسمت؟ فقال: عجبت من المؤمن وجزعه من السقم، ولو يعلم ما له في السقم من الثواب لأحبّ أن لا يزال سقيمًا حتى يلقى ربه عز وجل»[٣]، إلى غير ذلك من الروايات.

في المقابل، ورد في الحديث عن الإمام علي عليه السلام أنّه قَالَ عليه السلام لِبَعْضِ أَصْحَابِه فِي عِلَّةٍ اعْتَلَّهَا: «جَعَلَ الله مَا كَانَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجْرَ فِيه، ولَكِنَّه يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ ويَحُتُّهَا حَتَّ الأَوْرَاقِ، وإِنَّمَا الأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ والْعَمَلِ بِالأَيْدِي والأَقْدَام، وإِنَّ الله سُبْحَانَه يُدْخِلُ بِصِدْقِ النِّيَّةِ والسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِه الْجَنَّةَ»[٤].

وهذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام يعطي قاعدة عامة وهامة، وخلاصتها أنّ الثواب هو على الفعل الاختياري الذي يفعله الإنسان والذي يندرج في عبادة الله أو خدمة عياله، وأمّا ما يفعله الله بالعبد ولو من خلال السنن كما

---

(١) الكافي، ج٣، ص١١٣، ونحوه ما رواه أحمد في مسنده، ج٢، ص٢٠٣.
(٢) وسائل الشيعة، ج٢، ص٣٩٨، الحديث ٣ الباب ١ من أبواب الاحتضار.
(٣) الأمالي، ص٥٩٠، وعنه وسائل الشيعة، ج٢، ص٤٠٢، الباب ١ من أبواب الاحتضار، الحديث ١٩.
(٤) نهج البلاغة، ج٤ ص١٢.

في المرض فلا ثواب عليه، ولكنّ الله بلطفه يجعله سببًا لحط السيئات وحت الذنوب.

ويمكن القول: إنّه لا تنافي بين الروايات، فما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام ناظر إلى نفي الأجر على مجرد المرض والوجع في نفسه، دون ملاحظة أي عنصر آخر، يرتبط بتعاطي المريض بشكل إيجابي مع المرض لجهة الصبر أو الشكر، بينما الروايات التي أثبتت الأجر، ناظرة إلى حالة الصبر على المرض، والتسليم لأمر الله واحتساب الأمر عنده، والجمع بين الروايات بهذا النحو هو ما تشهد به الفقرة الأخيرة الواردة في كلام علي عليه السلام، أعني قوله: «**وإنّ الله سبحانه يُدخل بصدق النية والسريرة الصالحة من يشاء من عباده الجنة**»، ويشهد لذلك أيضًا ما ورد في خبر آخر عن علي عليه السلام أيضًا في جوابه عن استفسار وُجّه إليه، من قبل سلمان، بشأن الأجر على المرض، قال عليه السلام: «**يا سلمان لكم الأجر بالصبر عليه والتضرع إليه ـ** أي الله ـ **والدعاء له، بهما تكتب لكم الحسنات، وترفع لكم الدرجات، فأما الوجع خاصة فهو تطهير وكفارة**»(١).

وقد قدّم الشريف الرضي تفسيرًا وتوجيهًا لعدم إعطاء الثواب على مجرد المرض، فقال: «صدق عليه السلام، إنّ المرض لا أجر فيه، لأنّه من قبيل ما يستحقّ عليه العوض، لأن العوض يستحق على ما كان في مقابلة فعل الله تعالى بالعبد من الآلام والأمراض وما يجري مجرى ذلك. والأجر والثواب يستحقان على ما كان في مقابلة فعل العبد، فبينهما فرق قد بينه عليه السلام، كما يقتضيه علمه الثاقب ورأيه الصائب»(٢).

ولكن قد تبيّن، أنّه في حال تعامل المريض مع المرض بشكل إيجابي، فصبر وتضرع إلى الله تعالى، كان له أجرٌ عند الله، أما الوجع خاصة فهو مما لا أجر عليه، وإنما هو تطهير وكفارة.

---

(١) وسائل الشيعة ج٢ ص٤٠٣، الحديث ٢٠ الباب ١ من أبواب الاحتضار.

(٢) نهج البلاغة، ج٤، ص١٢.

٥ ـ الشريعة والتخفيف عن المريض

لم تكتف التعاليم الدينيّة بالإشارة إلى الثواب الأخروي أو حطّ السيئات عن المريض، بل إنّ التشريع الإسلامي ـ انسجامًا مع وسطيته وواقعيته ـ قد راعى حال المريض، فلم يكلّفه فوق طاقته وقدرته، ولم يساو بينه وبين السليم، فأسقط عنه التكاليف التي يعجزه المرض عن الإتيان بها أو تكون شاقة عليه، كالجهاد في سبيل الله تعالى وكذلك الصوم والوضوء، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النّور: ٦١].

وفي هذا السياق جاءت التشريعات البديلة عن التكاليف التي يعجز عن امتثالها، فمن يقعده المرض عن صيام شهر رمضان يسقط عنه الصوم ويطالب بالقضاء لاحقًا إن قدر على ذلك، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

والمريض الذي يضرّه استعمال الماء في الطهور (الوضوء أو الغسل) ينتقل فرضه إلى التيمم ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣].

وإذا كان حلق الشعر في الحج مؤذيًا للمريض فيسقط عنه ذلك، ويكلّف بالفدية أو الصيام أو الصدقة، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

المحور الثالث
المثليّة أو الشّذوذ الجنسي:
الإشكاليّة والمعالجة

١ ـ تفاقم المشكلة

٢ ـ وقفة مع التسمية

٣ ـ في الأسباب

٤ ـ في الدليل على الحرمة

٥ ـ فلسفة تحريم الشّذوذ

٦ ـ هل ظَلَم الله الشاذّين؟

٧ ـ سُبل العلاج.. واجبنا وواجبهم

هناك من سأل أو يسأل عن السرّ في تحريم الإسلام للعلاقات الجنسية المثلية وكيف يحرّم الله تعالى أمرًا قد أوجد مقدّماته في الإنسان، باعتبار أنّ الميول الشاذة ليست اختيارية، وإنّما هي مخلوقة مع صاحبها؟

١ ـ تفاقم المشكلة

وبادئ ذي بدء أجد أنّ من الضروريّ الإضاءة على أمر حساس، ويشكّل مدخلًا منهجيًّا لا مفرّ منه في تناول المسألة المبحوث عنها وبيان أهميتها، وهو يتّصل بتوصيف هذه القضية، فهل نحن أمام حالة مَرَضيّة تحتاج إلى معالجة أم أنّنا أمام ظاهرة عادية وطبيعية، وعلينا تفهّم الأمر والتكيّف معه؟

لا يخفى أنّ هناك اتّجاهًا يصرّ على إخراج المسألة من دائرة التساؤل

الإشكالي، ويعتبر أنّ الميل المِثلي هو ميل طبيعي واعتيادي، ولا يُفترض بنا التعامل معه باعتباره مرضًا أو مشكلة، بل لا بدّ من الاعتراف به وإظهاره وعدم كبته. ومن الواضح أنّ هذا الموقف ينطلق من خلفيّة ثقافيّة خاصّة، تقوم على رؤية معينة فيما يتّصل بالإنسان وحريته في التعبير عن ذاته، وحقّه في إشباع غرائزه كما يحلو له، وهي رؤيّة سادت مؤخّرًا في بلاد الغرب، وتمّ تحشيد الكثير من مراكز القوى للدفاع عنها والانتصار لها، ثم وجدت لها أنصارًا في بلاد المشرق.

ولكنّنا نختلف اختلافًا جوهريًّا مع هذه الرؤية الرامية إلى تسويغ ما هو واقع، ولا يسعنا الموافقة عليها. ونرى أنّ ميزان الحقّ والباطل في مثل هذه الأمور لا يتحدّد في ضوء ما هو كائن وواقع، بل في ضوء ما ينبغي أن يكون، وما لا بدّ أن يقع، وذلك بحسب ما يحكم به العقل السليم ويؤيّده المنطق، وتشهد له الفطرة المستقيمة والوجدان غير الملوّث، فما أكثر الأمور الواقعة والمنتشرة بين الناس وهي من أوضح مصاديق الباطل، وأجلى أفراد الرذيلة والانحراف.

في المقابل، فإنّ علينا الاعتراف بوجود المشكلة، وعدم تجاهلها أو انكارها؛ لأنّ ذلك هو المدخل الأساس لمعالجتها. ولا يخفى أنّ ثمّة شريحةً من النّاس قلّ أفرادها أم كثروا، لديهم ميول مثلية، وبالتالي فإنّ علينا أن لا ندفن رؤوسنا في الرمال ونتجاهل وجود هذه الشريحة، وما تتسلح به من خطاب جاذب للبعض.

ويلاحظ أنّ هناك العديد من العوامل المساعدة على رفع الإشكالية عن هذا السلوك، وأهمّها وجود جماعات عالميّة منظّمة، ومعظم أعضائها من الأفراد الشاذين جنسيًا، قد أخذت على عاتقها مهمّة الدفاع عن حقوق الشواذ، وقد باتت هذه الجماعات تشكّل ما يعرف بـ «اللّوبي» الضاغط، وهي تعمل عبر شتّى الوسائل الإعلامية.. وكذا وسائل التواصل الاجتماعيّ ليس على اجتذاب الأشخاص ذوي الميول المثلية، وتشجيعهم على الإعلان عن أنفسهم فحسب، بل وتسعى للضغط على الأحزاب السياسية ومراكز

القرار والتشريع في العديد من الدول، ولا سيّما الغربية منها، للاعتراف بحقّهم في الزواج كغيرهم من الناس. وهكذا تدفع هذه الجماعات ـ مستعينة بكافّة وسائل الإعلام والدعاية ـ باتّجاه الإقرار بواقع قانونيّ جديد، تُلغي فيه تلك الدول المادة القانونية المعروفة لدى كافّة الشرائع السماوية والوضعية، والتي تنصّ على أنّ الزواج الشرعيّ هو الزواج القائم بين الجنسين (زواج الرجل بالمرأة) فقط، وتستبدل بفقرة جديدة تنصّ على مشروعيّة الزّواج داخل الجنس الواحد، لتغدو أصناف الزواج ثلاثة: زواج المختلفَيْن بالجنس، أعني زواج الرجل من المرأة، وزواج المتماثلَين في الجنس، وهذا الأخير ينشطر إلى قسمين: زواج المرأة من المرأة، وزواج الرجل من الرجل، وهذا ما حصل فعلًا حيث أقرّت قوانين بعض الدول الغربية بذلك.

وقد استطاعت هذه الجماعات انتزاع الكثير من الاعترافات بها، حتى من قِبَلِ بعضِ رجال الدين المسيحيين أو اليهود، ويعمل البعض على تسجيل اختراق في الفضاء الإسلاميّ الذي لا يزال رافضًا لهذا الأمر رفضًا قاطعًا.

٢ ـ وقفة مع التسمية

بعد هذه الإضاءة على المشكلة، أجدني ملزمًا بالتنبيه على أمر آخر يتصل بتسمية هذه العلاقة وتوصيفها اللفظي، حيث يسعى البعض إلى استبدال التسمية الشائعة لهذا النوع من العلاقة الجنسية القائمة بين شخصين من جنس واحد، وهي تسمية «الشذوذ»، بتسمية جديدة وهي «العلاقة المثليّة»، على اعتبار أنّ كلمة «الشذوذ» تحمل في ثناياها إدانة لهؤلاء أو توحي بالتحقير لهم وانتقاصهم.

ونحن وإن كنّا لا نمانع من إطلاق أو استخدام التسميات الجديدة، ونعتقد أنّ تغيير المصطلحات لا يغيّر من الواقع شيئًا، ولا سيّما أنّ مصطلح «الشذوذ» ليس هو المصطلح المستخدم في النصّ الإسلاميّ لتوصيف هذه الحالة، ولم يُعتمد أيضًا في الفقه الإسلاميّ، وإنّما المعروف في فقهنا

مصطلحا: اللّواط والسّحاق. كما أنّنا في العمق ليست لدينا مشكلة مع الذي يمارس هذا العمل كإنسان، وإنّما المشكلة هي مع ممارسته للعمل نفسه، لما نرى في هذه الممارسة من مخاطر شتّى ليس على هؤلاء الأشخاص فحسب، بل وعلى غيرهم من أفراد المجتمع أيضًا، وهذا نظير ما نقوله في الكافر، فإنّنا لا نعادي فيه شخصَه بل كفره.

مع ذلك، فإنّي أعتقد أنّ تغيير المصطلحات عندما ينطلق من خلفيّة ثقافية معينة، لها رؤيتها الخاصّة في موضوع القيم والممارسات، فلا بدّ حينها من التوقّف عنده جيدًا؛ لأنّه قد يشكّل مدخلًا يراد من خلاله التبشير بقيم جديدة مبنية على ثقافة أخرى، لها رؤيتها للأمور. وهي وانطلاقًا من هذه الرؤية، تسعى ـ فيما نحن فيه ـ للتخفيف من وطأة العمل نفسه وتصوير أنّه عمل طبيعيّ وغير مستقبح ولا مُدان، وهذا ما لا يمكننا الموافقة عليه مع احترامنا للآخرين. ولهذا فلنسمِّ الأشياء بأسمائها، فالعلاقة المثليّة هي حالة شذوذ؛ لأنّ القاعدة الأساس والحالة السويّة في العلاقات الجنسيّة هي العلاقة بين الذكور والأناث، وهي الحالة التي فطر الله الإنسان عليها وهداهم إليها بشكل تلقائيّ، كما فطرت سائر المخلوقات المتناسلة على ذلك أيضًا، أعني الميل إلى الجنس الآخر.

٣ ـ في الأسباب

وأمّا في الحديث عن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة، فلا يزال الجدل قائمًا حول ذلك، وهل أنّ المشكلة هي تعبير عن انحرافات نفسيّة، أو أنّها تتّصل بخلل هرموني معين؟

وفي حين يرى بعض الأشخاص، ويؤكّد على أنّ التفسير العلميّ لهذه الظاهرة يعيد المسألة إلى خلل جيني وراثي حصل مع الأبوين في فترة انعقاد النطفة، أو حصل مع الطفل في المرحلة الجنينية، ما أدّى إلى أن يُخَلَقَ هذا الطفل ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ وهو يحمل الميل إلى جنسه، تمامًا كما هو الحال في الكثير من الحالات الوراثية مرضية كانت أو غيرها. في المقابل،

فإنّ بعض الآراء العلميّة الموثوقة لا تزال تنفي كون المسألة في العمق ذات صلة بالجانب التكوينيّ والوراثيّ، ولا تقبل ربطها بخللٍ هرموني، وإنّما ترجعها إلى عامل نفسيّ يخضع لاختيار الإنسان وميله الإرادي إلى هذا العمل(١)، ويعزّز هذه الرغبة الاختيارية ويساعد عليها الكثير من الظروف والأجواء التي يعيشها الشخص، سواء كان ذلك في صغره أو كبره.

٤ ـ في الدليل على الحرمة

إنّ بيان الموقف الشرعيّ من هذه الظاهرة مهمّ للغاية، لما له من دور فاعل في محاصرة الظاهرة أو التخفيف من آثارها ونتائجها. كما أنّ بيان الأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنة سوف يساهم في ردّ بعض الوساوس، ودفع بعض التشكيكات التي تثار إزاء هذا الحكم.

أ ـ دليل حرمة اللّواط

لا أعتقد أنّ حرمة اللّواط في الشريعة الإسلامية قابلة للتشكيك، فهذا ما نصّت عليه العديد من الآيات القرآنية، ولا سيّما ما يتّصل بقضيّة قوم لوط الذين عُرف عنهم أنّهم كانوا يمارسون هذا الفعل. وقد نهاهم نبيّ الله لوط عليه السلام عن ذلك، وحذّرهم من أنّه في حال الاستمرار في هذا العمل، فسوف يصيبهم عذاب من الله تعالى على عدوانهم وتجاوزهم لكلّ الحدود الأخلاقية والضوابط الشرعية. قال تعالى منددًا بهم، حاكيًا عن لسان نبيهم لوط عليه السلام: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ ـ ١٦٦].

والملاحظ، أنّ الآيات المباركة إنّما ندّدت بالعمل نفسه واعتبرته عدوانًا. والظاهر منها أنّ العقوبة الإلهية التي طالتهم إنّما هي على الانحراف السلوكيّ نفسه، بصرف النظر عن عقيدتهم في هذا المجال، وما إذا كانوا

---

(١) انظر للتوسع حول الآراء المطروحة في المسألة كتاب: الجنس الطبي، للدكتور رائف رضا، ص٣٥١.

يرونه عملًا مشروعًا أو محرمًا، بل لا يبدو من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن قوم لوط أنّهم كانوا يرون شرعيّة لهذا العمل ويسندون ذلك إلى الله تعالى، لِيرد احتمال أنّ تكون العقوبة التي طالتهم هي على اعتقادهم وتشريعهم وتقوّلهم على الله تعالى، كما توهّم بعض الأشخاص من المبتلين بهذا العمل.

ب ـ دليل حرمة المساحقة

وأمّا الشذوذ الجنسي الحاصل بين النساء أنفسهن (السحاق)، فيمكن أن يستدلّ على حرمته بما يلي:

أولًا: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧]، وذلك بتقريب أنّ الآية المباركة دلّت على أنّ العلاقة الجنسيّة المشروعة تنحصر بأحد طريقين: وهما الزواج وملك اليمين، وأمّا ما عدا ذلك، ومنه العلاقة الجنسيّة داخل الجنس الواحد فهي عدوان ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾، والعدوان هو تجاوز الحدود الشرعية وهو محرم، وينبغي تحصين الفرج عنه. وفي ضوء هذا البيان، فلا يصحّ الاعتراض بأنّ الآية واردة في شأن الرجال، وذلك لأنّ القاعدة المستفادة منها عامّة.

ثانيًا: ورد في الروايات الكثيرة المرويّة من طرق المسلمين سنة وشيعة، ما يؤكّد على حرمة الممارسة المذكورة (السحاق) بشكل لا لبس فيه:

فمن طريق السُّنة روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**السّحاق بين النساء زنا بينهن**»(١).

وأما من طرق الشيعة فالروايات في هذا المجال كثيرة جدًّا(٢):

---

(١) كنز العمال، ج٥، ص٣١٦.

(٢) يراجع وسائل الشيعة للحر العاملي، ج٢٠، ص٣٤٤، فقد أورد ما يزيد على عشر روايات تدلّ على ذلك.

١ ـ فبعضها دلّت على حرمة ذلك بشكل صريح، كما في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام وقد سئل عن «اللّواتي مع اللّواتي» ما حدّه؟ قال: «**حدّ الزنا**»[١].

٢ ـ وبعضها دلت على ذلك بطريق الأولوية، فقد حرّمت بعض الروايات[٢] أن تنام امرأتان في لحاف واحد مجردتين من الثياب، فكيف هو الحال فيما لو تعدّت المسألة حالة النوم! كما أنّ روايات أخرى قد حرّمت نظر المرأة إلى عورة نظيرتها، ففي حديث المناهي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ونهى أن تنظر المرأة إلى عورة المرأة**»[٣]، فإذا كان نظر المرأة إلى عورة المرأة ـ ولا سيّما إذا كان بشهوة وريبة ـ محرّمًا فكيف تباح الممارسة المذكورة؟!

٣ ـ وبعضها دلّت على أنّ هذا العمل حرمّه الله في القرآن الكريم، ففي الرواية الصحيحة أنّه دخل على الإمام الصادق عليه السلام نسوة، فسألته امرأة منهن عن السحاق؟ فقال: **حدّها حدّ الزنا**. فقالت المرأة: ما ذَكَرَ اللهُ عزّ وجلّ ذلك في القرآن؟ فقال: «**بلى هنّ أصحاب الرس**»[٤].

وأصحاب الرسّ هم قوم ورد ذكرهم في القرآن الكريم في عداد الأمم الماضية التي شملها العذاب الإلهيّ، والرواية تقول: إنّ سبب ذلك هو ممارستهن للسحاق.

ثالثًا: وقد تستفاد حرمة هذا العمل من حرمة اللّواط نفسه، إذ إنّ التشريع الإسلامي إنّما حرّم اللّواط باعتباره يمثّل خروجًا بيّنًا عن الطبيعة التي فطر الله الناس عليها، وتغييرًا لخلق الله تعالى، وانحرافًا عن السنة الإلهية في هذا المجال، وهي سنَّة التزاوج بين الذكور والإناث، فكلّ

(١) الكافي، ج٥، ص٥٥٢.
(٢) انظر: وسائل الشيعة، ج٢٠، ص٣٤٢، الباب ٢٥ من أبواب النكاح المحرم.
(٣) انظر: من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٩.
(٤) الكافي، ج٧، ص٢٠٢.

انحراف عن هذه الفطرة يكون مبغوضًا للمولى تعالى، سواء كان بين الذكران أنفسهم أو بين الإناث أنفسهن.

ومن هنا كانت حرمة العمل المذكور (السّحاق) مورد تسالُم عند علماء المسلمين وعامتهم، بحيث يمكن القول: إنّها من الضرورات الدينية.

٥ ـ فلسفة تحريم الشّذوذ

ومع أنّ الدليل على الحرمة تامٌ ولا غبار عليه، بيد أنّني أعتقد أنّه لا ينبغي أن نكتفيَ في مواجهة هذه الظاهرة بذكر دليل الحرمة، وإنّما علينا أن نبيّن فلسفة هذا الحكم الشرعيّ الرافض لهذه العلاقة، ليجتنبها الإنسان المسلم أو يرفضها عن وعي وقناعة، ولا سيما أنّه قد كثرت في زماننا الشُّبهات التي تثار في وجه هذا الحكم.

وغير خافٍ أنّ الإسلام ما اتّخذ هذا الموقف المتشدد والصارم من هذه الممارسة الشاذة ببعديها (اللّواط والسّحاق)، وما كان حازمًا في رفضها، إلّا لاعتبارات منطقية وعقلائيّة، ولم ينطلق في تشدّده هذا من منطلق الانتقام من هذه الشريحة، ولا من منطلقات مزاجيّة أو عشوائية أو عبثية. فالمشرّع حكيم وعاقل بل هو سيّد العقلاء، وأحكامه التشريعية ـ كما هو معلوم ـ تابعة للمصالح والمفاسد الكامنة في متعلقات الأحكام، ولا تُبنى على أساس الأهواء والأغراض الخاصة؛ ولذا فإنّنا على يقين أنّه قد راعى مصلحة النوع الإنساني عندما حرّم هذا العمل ومنع منه، ويمكننا أن نشير إلى اعتبارين أساسيين في هذا المجال في بيان فلسفة الحكم بالحرمة:

أولًا: أنّ في هذا الفعل الشاذ ـ ببُعديه المذكورين ـ الكثير من المضار والمفاسد الاجتماعيّة والنفسيّة والأخلاقيّة والروحيّة وربما الصحيّة، وقد كُتب في هذا المجال، ـ أعني في بيان مضار هذا العمل ـ العديد من الكتب، ونشرت الكثير من الدراسات من قبل أهل التخصّص، ما كفانا مؤنة الإسهاب في الحديث عنه. مع الإشارة هنا إلى ضرورة أن تُطرح المضار المذكورة على نحو الحكمة لا العلّة، بمعنى أن يُطرح الأمر كوجهٍ محتمل

للتحريم ولا يُبتُّ في الأمر، بل تبقى القضيّة موضع متابعة ورصد لكلّ جديد، لأنّ العلم في حالة تطوّر مستمرّ ويأتينا كلّ يوم بجديد.

ثانيًا: لا يخفى أنّ ثمّة قانونًا إلهيًا (أو سُنة إلهية) يحكم جميع المخلوقات الحيّة المتناسلة، وهو قانون الزوجيّة، فتزاوج الذّكور من الإناث هو الذي يضمن استمرار النسل البشريّ، وهو المبدأ الذي ينسجم مع الفطرة الإنسانية، التي تقوم على أساس أنّ الذكر يميل إلى الأنثى وبالعكس. ومن أهمّ مزايا الإسلام، أنّ أحكامه التشريعية تنسجم وتتماهى مع السُّنن التكوينيّة، فهو ينسجم مع الفطرة ولا يلغيها.

أجل، يبقى أنّ لكلّ قاعدة تكوينية استثناءات معيّنة، تجري على خلاف القاعدة، لأسباب خاصة تنشأ عن خلل معيّن. وهذه الاستثناءات قد لا يجد المشرِّع أنّ من المصلحة أن يسمح لها بالتمادي حتى لا تنتهك القاعدة، ويتحوّل الاستثناء إلى مبدأ، وإنّما يدعوها إلى أن تكيّف نفسها مع القانون العام وتتماشى مع الظاهرة العامة، وهذا أمر ـ رغم صعوبته في بعض الحالات ـ ميسور، ومفاسد هذا التكيّف وضحاياه هي أقلّ بكثير من مفاسد تشريع الشذوذ.

٦ ـ هل ظلم الله الشاذين؟

وربّما يقال: أليس من الظلم دعوةُ الشاذّين إلى التكيّف مع الوضعيّة الطبيعيّة والقاعدة العامة، وهي التزوّج من الجنس الآخر، مع أنّهم لا يجدون ميولًا أو رغبة في ذلك؟ ثم أليس من الظلم معاقبة إنسان على أمر ليس في اختياره، لأنّ ميل هؤلاء هو إلى جنسهم ـ أعني ميل الذكر إلى الذكر والأنثى إلى الأنثى ـ وهذا أمر لا إرادي، وُلِدَ معهم، فكيف يُعَاقَبون على تجاوبهم وتماهيهم مع أمر غرسه الله فيهم؟

وإن شئت فقل: إنّ المثليّين قد ظُلموا مرّتَين، مرّة عندما خُلقوا وهم يحملون ميولًا شاذّة على خلاف سائر الناس، ومرّة أخرى عندما طَلَبَ منهم

خالقُهم أنّ يَكْبِتوا ميولهم، محرِّمًا عليهم الانسياق معها، فثمّة ظلم تكوينيّ لحق به وآخرُ تشريعيّ.

والجواب على ذلك:

أولًا: إنّنا لا نوافق على أنّ ثمة ظلمًا تكوينيًا (من قبل الخالق تعالى) لهؤلاء، والوجه في ذلك:

١ ـ إنّ الميول المثليّة ليس ثمّة ما يثبت بشكل حاسم وكليّ أنّها ناشئة عن خلل جيني تكويني، كما أسلفنا، بل إنّ الكثير منها ينطلق من حالة انحراف وقع فيه الشاذ باختياره أو أُوقع فيه من خلال اعتداء جنسيّ عليه. إنّ كثيرًا من الأشخاص قد ساروا إلى هذا العمل بأرجلهم وكامل إرادتهم، وربّما انجرّ البعض إليه نتيجة هوس جنسيّ دفعه إلى تجربة كلّ أشكال العلاقات الجنسية! وهنا تقع المسؤولية دون شكّ على عاتق الإنسان نفسه، لأنّه اختار الانحراف عن خطّ الفطرة وخطّ التشريع، كما أنّ البعض الآخر من ذوي الميول المثليّة، قد ابتلوا بذلك نتيجة عارض معيّن، كما لو حصل اعتداء جنسيّ عليهم وهم في سنّ الطفولة، فأصبحوا يميلون إلى هذا النوع من العلاقات المنحرفة، نتيجة الاعتياد على ذلك. وفي هذه الحالة، فإنّ هذا الانحراف إنّما يتحمّل مسؤوليّتَه الإنسانُ نفسُه بتجاوزه حدود الله واعتدائه على هذا الطفل بما أدخله في بوتقة الانحراف، وليس صحيحًا أن يُنسب الأمر إلى الله تعالى، ولا سيّما أنّ مشيئة الله تعالى جرت على أن يكون هذا العالم محكومًا لمبدأ السنن والقوانين، فمن وضع إصبعه في النار فلا بدّ أن تحترق، ومن سقى غيره السمّ فلا بدّ أن يتسبّب ذلك في قتله.. وإذا حصل شيء من ذلك، فالمعتدي هو من يتحمّل المسؤولية وليس خالق القوانين.

٢ ـ إنّ الميول المثليّة لو سلّمنا أنّها أو بعضها على الأقلّ ناتجة عن خلل جينيّ، ولكن على أيّ حال لا يتسنّى لنا القول: إنّها تُمثّل ظلمًا للشخص من قبل الخالق باعتباره القادر على منع ذلك، والوجه في ذلك: أنّ الله تعالى قد أجرى هذا الكون على أساس القوانين الحاكمة، ولا

يتدخّل سبحانه بشكل مباشر في تعديل بعض المسارات التكوينيّة الطارئة حتى لو علم بذلك. والقوانين وإن كان من ميزتها عدم التخلّف، لكن هذا إذا لم يحصل تخلّف في الأسباب والمقدّمات والموانع، والتخلّف المذكور قد يحصل نتيجة خطأ ما يؤدّي إلى الانحراف في مسار القانون الذي يحكم الظاهرة. وهذا الخطأ قد يتسنى لنا اكتشافه في مرحلة مبكرة، وفي هذه الحال ربّما يستطيع الإنسان نتيجة تقدّم العلم أن يتلافاه كما تلافى الكثير من الأمراض الوراثية، وقد لا يتسنّى لنا اكتشافه. وعلى التقديرَين، فالله تعالى ليس هو علّته المباشرة، وإن كان ينسب إليه باعتباره خالق هذا النظام الكونيّ بقوانينه وظواهره.

ثانيًا: إنّ منع ذوي الميول المثليّة من الانسياق مع ميولهم ليس فيه ظلمٌ تشريعيّ (من قبل المشرّع) لهم، وذلك:

١ ـ إنّ هذا الميل لا يبلغ حدّ الإلجاء والقسر، وانتفاء قدرة هؤلاء على السيطرة على إرادتهم. فرغم وجود هذا الميل لدى الإنسان، فإنّه يظلّ قادرًا على ضبط نفسه وعدم الانجراف مع هواه، تمامًا كما يقدر الإنسان ذو الميل الطبيعيّ على عدم السّقوط تحت ضغط الغريزة والارتباط الجنسيّ المحرّم بالجنس الآخر، وذلك فيما لو لم يتسنَ له إقامة علاقة شرعيّة معه لسبب أو لآخر، وكما لا نبرّر لهذا الشخص (صاحب الميل الطبيعيّ) إقدامه على الزّنا، فإنّنا لا نبرّر لذاك إقدامه على ممارسة الشذوذ، ولا سيّما أنّ الميول الشاذة قد يمكننا التغلّب عليها ولو بمشقّة ومعاناة من خلال العلاجات النفسية أو الروحية أو غيرها.

٢ ـ إنّ المشرّع الحكيم ـ كما قلنا ـ يراعي في تشريعاته المصلحة النوعية للإنسان، وقد قدّر أنّ المصلحة النوعيّة هي في إقرار مبدأ التزاوج بين الجنسين، وأمّا العلاقات المثليّة فبما أنّه يترتّب عليها الكثير من المضار النفسيّة والصحيّة والاجتماعيّة ـ كما قلنا ـ لذا فقد أصدر حُكمًا عامًّا بمنعها وحظرها، حرصًا منه على مصلحة النوع حتى لو ذهب ضحية ذلك بعضُ الأشخاص ممّن سيضطرهم الحظر المذكور إلى التكيّف مع الوضع الطبيعيّ.

٣ ـ وهذا الأمر لا يختصّ به المشرّع الإسلامي دون سواه، بل إنّنا نلاحظ في هذا المجال أنّ كافة المشرّعين حتّى الوضعيّين منهم، لا يسمحون للرغبات الشاذة أن تعبّر عن نفسها في مختلف الأحوال والظروف، ألا ترى أنّ بعض الناس قد يكون لديه ميل إلى الممارسة الجنسية مع القاصرين من الذكور أو الإناث، والبعض أيضًا لديه ميل لإقامة علاقة مع البهائم، أو مع الأرحام، ولا تسمح كافّة القوانين لهؤلاء أن يُظهروا رغباتهم ويمارسوا مشتهياتهم، ولا يُصغى إلى مزاعمهم وادعاءاتهم بأنّ تلك الميول هي ميول لا إرادية بالنسبة إليهم.

٧ ـ سُبل العلاج.. واجبنا وواجبهم

وفي بيان سُبل العلاج والمواجهة، فإنّ هناك مستويين من المسؤوليات: مسؤوليات تقع على عاتق الفرد المبتلى بهذا العمل، ومسؤوليات تقع على عاتق المجتمع والجهات المختصّة والمسؤولة، وسوف أبيّن هذه المسؤوليات ضمن النقاط التالية:

أولًا: الخطاب الجاذب

علينا أن ندرس جيدًا الأسلوب الأجدى في خطاب المثليّين، لأنّ غايتنا ليست هي رجمهم ولا قتلهم، لا قتلًا ماديًّا ولا معنويًّا، وإنّما غايتنا هي إحياؤهم روحيًا ومعنويًا، وإنقاذهم من براثن الشذوذ وما يخلقه لهم من متاعب نفسية. والأسلوب الجاذب والمحبّب هو الذي يمكن أن يفتح قلوب هؤلاء على الاستماع إلينا، ويجعلهم على استعداد لتقبّل كلامنا وأدلّتنا؛ لأنّ المشكلة أنّ من كان مُبتلى بهذا الأمر فهو لا يُصغي لمنطق الأدلة بقدر ما يصغي إلى أحاسيسه الخاصة ورغباته الملحّة، ويحاول أن يفتّش عن مبرّر أو غطاء شرعيّ لعمله. ولهذا لا أعتقد أنّنا نخطئ إذا ما قلنا: إنّ المطلوب أن نتفهّم وضع هؤلاء ونقدّر معاناتِهم، والتفهّم لا يعني أن نبرّر لهم ذلك أو نعطيهم شرعية لعملهم.

ثانيًا: تضافر الجهود

ومن الضروريّ أن تتسارع البحوث التخصّصيّة المتّصلة بمسألة الشذوذ الجنسي، سواء ما يتّصل منها بالعلاج النفسي أو العلاج العضوي، ليتمّ بذلك إيجاد حلول علميّة وعمليّة لمعاناة هذه الفئة من الناس، الذين يشعرون لسبب أو لآخر بميول غريزية إلى جنسهم لا إلى الجنس الآخر. وإنّ المساعدة في إيجاد حلول لهؤلاء، هي من أفضل الأعمال التي ينبغي العناية بها والتشجيع عليها؛ لأنّه لا يكفي أن نُدِين الشذوذ الجنسي ونجرّم الشاذّين جنسيًا دون أن نسعى لإيجاد حلول لمشاكلهم، وأن نعينهم على التخلّص من معاناتهم وأن ننفتح عليهم، لنُقدّم لهم النصائح التربوية والأخلاقية التي تشدّ من أزرهم وتمنحهم الثبات أمام إغراءات النفس الأمّارة بالسّوء، ونبيّن لهم أنّ مجاهدتهم لهذه النفس وعدم الانسياق مع الغريزة في شذوذها وانحرافها، هو عمل فيه ثواب كثير وأجر جزيل عند الله تعالى، بل إنّ هذا في حقيقة الأمر هو أحد ميادين مجاهدة النفس، والتي هي الجهاد الأكبر كما عبّر الحديث النبويّ الشريف.

ثالثًا: العمل المؤسّسي المتخصّص

وإنّي أعتقد أنّ عدم توجّه المؤسّسات الإسلامية التربوية والاجتماعية، وعدم عنايتها بهذه الفئة القليلة من الناس، وترك الأمر لغير الملتزمين دينيًا ليتابعوا مشكلة هؤلاء، سوف يزيد من تفاقم المشكلة في مجتمعاتنا؛ ولهذا ندعو إلى إنشاء مؤسّسات تُعنى بأمثال هؤلاء، وتعمل على تحصينهم روحيًّا وتربويًّا، ودعمهم نفسيًا واجتماعيًا وتدرس أوضاعهم بشكل علميّ في سبيل الأخذ بأيديهم إلى برّ الأمان، كما أنّ علينا العمل أيضًا على إنشاء مؤسّسات تُعنى بمعالجة مشاكل الإدمان على المخدرات أو غيرها من المشاكل.

في ضوء هذه النظرة، فإنّ معالجة المشاكل الاجتماعية والعادات الشاذّة والمنحرفة، تعني أنّ من الضروري أن تتضافر الجهود، ويُستعان بشتّى

الخُبرات الدينيّة والنفسيّة والاجتماعيّة والتربويّة والإعلاميّة في سبيل محاصرة هذه العادات الشاذّة، والحدّ من تأثيرها، وذلك بمواجهتها على مستوى المقدّمات والأجواء التي تهيّئ الأرضية الخصبة للانحراف وتساعد عليه..

رابعًا: النظر إلى القضيّة باعتبارها ابتلاءً

ويجدر بنا في أسلوب الخطاب الديني، أن نُدرج هذا العمل في نطاق ما يُعرف بالابتلاء، والابتلاء يعني الامتحان والاختبار، وعندما يُبتلى العبد بشيء مَرَضيّ أو نحوه، فإنّ ذلك لا يبرر له الاستسلام للأمر الواقع، بل يجدر به وبمن حوله السعي للتغلّب على المشكلة بشتى الوسائل، ومن ذلك اللّجوء إلى أهل الخبرة والاختصاص. كما أنّ تصنيفه في عداد الابتلاء لا يعني الاعتراف بأنّ الله تعالى هو الفاعل المباشر لذلك، أو أنه نوع عقوبة، كما قد يتخيّل البعض. أجل، إن ذلك لا يُلغي ولا ينفي حقيقة أنّ المسألة تقع في دائرة القضاء والتقدير الإلهيَّين، فكلّ الحوادث داخلة في القضاء والقدر، والله تعالى كما يبتلي العبد بما يفعله به بشكل مباشر أو بواسطة الأسباب، فإنّه قد يبتليه بما يجنيه العبد على نفسه. وإنّ تفسير هذه الظاهرة باعتبارها ابتلاءً إلهيًّا يعني:

١ ـ أنّ على العبد أن لا يتعامل مع الموضوع بنوعٍ من الإحباط واليأس، أو ينظرَ إلى ذلك باعتباره «انتقامًا إلهيًّا» منه، وإنّماً هو اختبار له يُراد من خلاله صقل شخصيّته واختبار صبره وإيمانه. وعليه أن يلتفت إلى حقيقة واقعيّة، وهي أنّه إذا كان قد ابتُلي بمثل هذا الابتلاء (الميل إلى العلاقة مع أبناء جنسه)، فإنّ هناك من يُبتلون بأشكال وأنواع أخرى من الابتلاء، وقد يكون بعضها أشدّ ممّا ابتُلي به، فمن الناس من يُبتلى في صحّته، ومنهم من يُبتلى في ماله، ومنهم من يُبتلى في ولده، وما إلى ذلك من أشكال الابتلاء، وإذا تعاملنا مع هذه المشكلة بعنوان أنّها ابتلاءٌ فهذا سيخفّف من وطأتها على أنفسنا، ويدفعنا للتوجّه إلى الله تعالى ليساعدنا على التخلّص منها.

٢ ـ كما أنّ درج المسألة في نطاق الابتلاء، سيدفع نحو القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى للإنسان، وهذه فضيلة مطلوبة، وأهميّتها أنّها ستحُول دون أن يقع الشخص المبتلى بفخّ الاحتجاج أو الاعتراض على إرادة الله، أو التحرّك في أسلوب معالجة المشكلة إلى الطُّرق الخاطئة. وإنّي على يقين بأنّ صبر المبتلى بهذا البلاء، وعدم انسياقه مع هوى النفس الأمّارة بالسوء، وعدم خضوعه لشتّى الإغراءات المحيطة به، هو نوعُ جهادٍ في سبيل الله تعالى، وأنّه إذا توكّل على الله وانفتح عليه بكلّ مشاعره وكيانه معتمِدًا أسلوبًا خاصًّا في المجاهدة الروحيّة، مع الابتعاد عن رفقاء السُّوء الذين يزيّنون له الأمور أو يهوّنون له الخطب، فإنّه سيصل بعون الله تعالى إلى خاتمة سعيدة لمشكلته. ولا ريب أنّ الله تعالى لن يتخلّى عمّن توجّه إليه، وأخلص له طالبًا منه التسديد، بل سيمدّه بالمساعدة والعون، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا . سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

خامسًا: تهيئة الأجواء

ومن الضروريّ أن يهتم الشخص المبتلى بهذا الابتلاء ـ بالإضافة إلى ما تقدّم من الاستعانة بالله تعالى والتوكّل عليه ـ باختيار أصدقائه وانتقائهم، فإنّه لن يتسنّى له الخروج من هذا المأزق إذا كان أصدقاؤه من الشاذّين جنسيًا أو المنحطّين أخلاقيًا وروحيًا. وإذا كانت رفقة السُّوء تُعدي، وهي إحدى مداخل الانحراف والفساد الأخلاقيّ، فإنّ التخلّي عن هذه الرفقة هي الشرط الأساس لنجاح الإنسان في الخروج من بوتقة الانحراف. ومن هنا يجدر به أن يبادر وبكلّ جرأة إلى مقاطعة هذه البيئة السيّئة، واستبدالها ببيئة صالحة ورفقة خيّرين، ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**صحبة الأخيار تُكسب الخير كالريح إذا مرّت بالطيب حملت طيبًا، وصحبة الأشرار تُكسب الشرّ كالريح إذا مرّت بالنتن حملت نتنًا**»(١).

(١) عيون الحكم والمواعظ، ص٣٠٤.

وهكذا، فإنّ من المفترض بالشخص المُبتلى أن يعمل على سدّ كافّة المنافذ المؤدّية إلى الانحراف والمساعدة على ارتكاب الفاحشة، من قبيل النظر إلى الأفلام التي تروّج للانحراف، أو تشتمل على مشاهد ممارسة الشذوذ، ويشتغل بدلًا عن ذلك بما ينمّي مناعته الروحية، أو يُثري عقله وفكره ويُشغل أوقات فراغه بالعمل النافع.

ومن المهمّ والمفيد أيضًا أن يعمل الأشخاص المعالجون والتربويّون ـ بالإضافة إلى تنمية القيم الأخلاقية لدى المبتلى، ولا سيّما قيمتَي الحياء والعفّة، بما يدفع تلقائيًا إلى اجتناب العلاقة الجنسية الشاذة ـ على تطوير إحساس تنفيريّ من هذا العمل القبيح لدى الشخص المبتلى بذلك، بحيث يستحضر عندما تضغط عليه الميول المثليّة بعض الصور والمشاهد المنفرة من هذا السلوك أو الزاجرة عنه كاستحضار أنه بعين الله تعالى، وهو يخلع لباس الحياء أمام ربّه أو استحضار مشاهد القيامة والحساب أو ما إلى ذلك.

ملحق

أسئلة وأجوبة
حول الشرّ والموت واليُتم
وتشوّه الأطفال

ملحق
أسئلة وأجوبة
حول الشرّ والموت واليُتم وتشوّه الأطفال

وردني في مناسبات شتى جملة من الأسئلة المتصلة بعدل الله تعالى، وفيما يلي ندرج هذه الأسئلة مع أجوبتنا عليها:

السؤال الأول: لماذا خلقنا ثم يميتنا؟

لماذا خلقنا الله تعالى ثم يميتنا؟ وما الغرض من الخلق لو كان بعده سينسف الارض بمن فيها وعليها ويطويها؟

والجواب على ذلك:

أولًا: إنّ الله تعالى خلقنا لأجل الحياة لا لأجل الموت، إلّا أنّ الحياة في منطق القرآن لا تنحصر بالحياة الدنيا، فهذه هي مجرد جسر عبور نحو حياة الأبد، وهي دار امتحان يُختبر فيها الإنسان تمهيدًا لتحديد موقعه في الحياة الأخرى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وعليه، فكل ما نتعرض له في الحياة الدنيا من آلام وأوجاع ومصائب وصولًا إلى الموت، هو من طبيعة هذه الحياة ومقتضياتها ولوازمها، وهو في الوقت عينه يُمثّل اختبارًا لإيماننا واستقامتنا ويُساهم في صقل شخصيّاتنا وإعدادها وتطوّرها نحو الأفضل، وصولًا إلى مرحلة اللقاء بالله في عالم الحياة الأبديّة.

ثانيًا: إنّ حديث القرآن عن موت الأرض أو نسفها وتدميرها أو عن تناثر بعض الكواكب يأتي في السياق المشار إليه آنفًا، وربما يكون إشارة إلى نفوذ طاقة الحياة في هذه الأرض، هذه الطاقة التي تمد الأرض بالحيوية وتمنحها تماسكها واستقرارها واستمرار الحياة فيها، ومن المعلوم أن العلماء من أهل الاختصاص يتحدثون عن إمكانية وصول هذه الكواكب التي نعيش في فلكها ـ ومنها كوكب الشمس ـ إلى مرحلة النهاية، فيكون حال هذه الكواكب كحال الإنسان، أي أنّ لها مرحلة طفولة ثم شباب ثم هَرَم ثم موت حيث ينطفئ نورها وتنفذ طاقتها بشكلٍ كاملٍ.

ثالثًا: تجدر الإشارة هنا إلى أنّ موت الإنسان أو موت الكواكب لا يعني بالضرورة انتهاء التجربة الإنسانيّة أو ما هو نظيرٌ لها، فلربما يخلق الله جيلًا آخر من الإنسان أو ما يقرب منه في كواكب أخرى في حال فناء هذا الكوكب الذي نعيش عليه، بل ربما كان هناك وجود لكائنات عاقلة أخرى في يومنا هذا في كواكب أخرى وإن كُنّا لا نعرف عنهم شيئًا، والله العالم.

السؤال الثاني: الموت والمجهول

ماذا بعد الموت أي بعد مغادرة الحياة الدنيا؟ إنه المجهول الذي لا نعلم عنه شيئًا!! كل ما نعرفه أنّ من لم ينجح في اختبار الحياة الدنيا له جهنم وبئس المصير، ومن عمل صالحًا فله طعام وشراب وأشجار وأنهار! إنّ بضع سنوات من العمل السيء في هذه الدنيا كفيلة بأن تخلد الإنسان في جهنم، فتكون مدة العذاب أكبر بكثير من مدة العمل السيء! ثم لماذا تكون المكافأة على كل الآلام التي يمر فيها الانسان بالطعام والشراب وما شابه ذلك؟!

والجواب على ذلك:

أولًا: إنّ ما بعد الموت هو عالم آخر، وقد لا نعلم الكثير عن تفاصيله، إلّا من خلال ما أوضحه الله لنا، وهو قد أوضح الكثير من ملامح هذا العالم، ومن أهمّها أنه عالم الخلود وذلك بعد انتهاء الحساب، وفيه يقطف

الإنسان نتائج عمله في هذه الدنيا، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًا فشرًا، فالدنيا هي دار العمل والآخرة دار الحصاد.

ثانيًا: الذي يُحاسب الناس يوم القيامة هو الله تعالى، وهو العدل الذي لا يجور، ولا يُمكن أن يظلم عباده، وهو غنيّ عنهم وعن أعمالهم، فلا يؤاخذ سبحانه وتعالى الإنسانَ إلّا بما يستحق، ولا يُعقل في منطق العدل الإلهي أن يكون العقابُ أشدّ من الذنب وأعظم، هذا لو عاملنا بعدله، فما بالكم لو عاملنا بلطفه ورحمته؟! وهو الرحيم الذي سبقت رحمتُه غضبَه، ووسعت رحمته كلّ شيء، ومن مؤشرات هذه الرحمة يوم القيامة أن إبليس وهو رمز الانحراف والسعي في إبعاد الناس عن الله، يتطلّع إلى رحمة الله.

ثالثًا: إنّ الجنّة عند أهل البصيرة ليست مجرّد مطعم تُعرض فيه فنون الأكلات، وإنما هي دار الرحمة والرضوان، ودار لقاء الحبيب، ولهذا عندما يذكر القرآن لذّات الجنة فإنّه يُردِف ذلك قائلًا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وبطبيعة الحال أنّ الناس في هذا المجال على مستويات، فهناك من همّه المتع الحسية من الأكل والشرب وغيرها من الملذات، وشخص كهذا يعده الله بأن يوفّر له كل ذلك في الجنة، ولكن هناك صنف آخر من الناس يُفكّر باللذة الروحيّة السامية وهذا يعده الله أيضًا بأن يُوفر له ذلك، قال الشاعر:

رضاك رضاك لا جنات عدنٍ وهل عدنٌ تطيب بغير رضاكا

السؤال الثالث: موت الأطفال وتشوههم

أثار بعض الملحدين إشكالًا مفاده: أن الله كلي القدرة والرحمة، كيف يجعل أطفالًا يموتون بمرض السرطان، فما ذنب الطفل؟ ولماذا يقبض الله روحه ولا يعطيه فرصة ليعيش حياته؟! وسأل آخر: أليس حرمان الطفل من الحياة وإلباس ذويه ثوب السواد وإذكاء جذوة الألم الابدي في قلوبهم ظلمًا لهم؟

ونحن نضيف إلى هذا السؤال أسئلة أخرى: ولماذا خلق الله أناسًا مشوهين ومعوقين؟ ولماذا جعل أناسًا أغنى أو أقوى من آخرين؟ ولماذا كان فلان أذكى من فلان؟ ولماذا أعان تعالى فلانًا على الزواج وهيّأ له فرصه دون الآخر؟ ولماذا خلقني أسود، وخلق فلانًا أبيض؟ ولماذا جعلني قبيحًا وجعل فلانًا جميلًا؟ ولماذا أنزل المطر الغزير فتلفت مزرعتي وماتت ماشيتي؟ لماذا ولماذا؟ ولماذا؟ في سيل من الأسئلة التي لا تنقطع.

وتعليقًا على هذه الأسئلة فإننا نذكر صنفين من الأجوبة، وهما: الأجوبة العامة التي تتصل بعموم الابتلاءات والآلام، والأجوبة الخاصة التي تتصل بتشوهات أو نوقص معينة.

أما الأجوبة العامة: فنذكر اثنين منها:

أولًا: هذه الأسئلة تنطلق من افتراض أنّ اللازم على الله أن يتدخل في الصغيرة والكبيرة في هذا الكون لرفع الضيم عن الناس وتحقيق أحلامهم وآمالهم وإلا فلن يعترفوا به كإله عادل! والحال أنّ الله تعالى قد أوضح لهم من خلال حركة هذا الكون ومن خلال ما نصّ عليه في كتابه الكريم أنّه ـ ومع قدرته على التدخل ـ أجرى هذا الكون وفق مبدأ السنن والقوانين، ولم يجره على أساس التدخل المباشر الذي يجعله تعالى يخرق القوانين في الصغيرة والكبيرة، فيمنع وقوع التعدي على فلان وفلان ويرفع المرض عن هذا الطفل الذي يتألم أو ذاك العجوز المقهور وما إلى ذلك.. إنّ علينا أن نلتفت إلى هذا المبدأ وأن نسير في حياتنا على ضوئه، فنعمل على اكتشاف القوانين والتعرف على أسرارها فيما ينفعنا ولا يضرنا، فنتحرّى ونبحث عن عوارض هذا المرض وأسبابه وكيفيّة معالجته، كما نتعرف على سائر الأزمات والابتلاءات والمصائب التي تواجهنا، وبسيرنا على هدي هذه السنن نسمو ونبدع ونتطور، وهذه في الواقع هي ميزتنا التي جعلتنا أشرف من الملائكة. لو أراد الله تعالى أن يعتمد التدخل المباشر في كل ما يواجهه الإنسان، لم يكن هناك من داعٍ لتكريمنا بهذه العقول التي مُنحناها فجعلتنا نتميّز عن سائر الخلق، وقد أمرنا الله أن نحرّك هذه العقول ولا نجمدها،

وهي قادرة على الاكتشاف والتطوير. إنّ أنين هذا الطفل المريض والذي يشفق عليه الله أكثر من شفقتنا، له حِكَم كثيرة، ومن أبرزها أنه سيشكل حافزًا قويًا للأطباء ليعملوا على اكتشاف دواء يعالج مرضه.

ثانيًا: إنّ هذه الإشكالات تنبع من ذهنيّة لا تؤمن بالآخرة، بل ترى الدنيا نهاية المطاف، وهنا مكمن الخطأ، وحيث إنّ الملحد يريد أن يُشكل علينا وفقًا لمعتقداتنا حول الله وحكمته وعدالته، فإنّ جوابنا له: أن الله الذي نؤمن به لم ولن يظلم أحدًا، فهو قد أوعد بالثواب الجزيل لأصحاب المعاناة في تلك الجنة العظيمة وتلك الحياة الأبديّة، حيث رحمة الله الواسعة ورضوانه وعطاياه التي لا تنقطع وحيث لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إنك أيها الإنسان، عندما تنظر بحجم اللحظة فسوف تنفعل عاطفيًا مع هذا الطفل وذاك المشوه وتلك المرأة المغتصبة، ونحن نقدر هذا الانفعال. ولكنك بدل أن ترمي المسؤولية على الجناة الحقيقيين الذين اضطهدوه وآذوه فإنك تلقيها على الله تعالى الذي أراد لك ولنا جميعًا أن نعمل على رفع الظلم والحرمان. ولو أنك نظرت إلى الأمور كما ننظر، بطريقة منطقية ومنفتحة على عالم الآخرة فسوف تعلم أنّ ألم هذا المعذّب في الدنيا هو بمثابة صراخ الطفل عند الولادة؛ صراخٌ يعقبه الفرح الأكبر حيث ينتقل من عالم الأجنة إلى عالم الدنيا الفسيح.

وأما الأجوبة الخاصة، فنذكر اثنين منها أيضًا:

أولًا: إنّ إيماننا بالمعاد وأن الموت مجرد جسر نعبره إلى عالم الخلود والنعيم الأبدي يحتم علينا القول بأن موت الإنسان في سن الطفولة (رغم صعوبته علينا بحكم تعلقنا بعالم الدنيا وأنسنا به) هو خير محض ورحمة بالنسبة للطفل، وربما يأتي علينا نحن البالغين زمن (وهو يوم الحساب) نتمنى فيه لو أننا متنا صغارًا، لأن ذلك أقرب طريق للوصول إلى رحمة الله بعيدًا عن عناء الحساب وصعوباته وتحمل مشقته. إنّ العاقل لو خير بين الموت صغيرًا والانتقال إلى حضنٍ هو أكثر دفئًا من حضن أمه، (وهذا الحضن هو رحمة الله الواسعة)، وبين أن يعمر في هذه الدنيا طويلًا لينتقل

بعدها إلى ذلّ الأبد وشقاء الآخرة سوف يختار الأول بكل تأكيد، هذا لو كان لنا ثقة بلقاء الله تعالى. لا أريد بذلك تشجيع أحد على تمني الموت لأبنائه الصغار، فهذا مرفوض شرعًا، ولا تتقبله جبلتنا البشرية، لكن ثمة طريق ثالث، ألا وهو أن يعيشوا الحياتين معًا (حياة الدنيا وحياة الآخرة) فيما يرضي الله تعالى، ولهذا فالأدب الإسلامي يشجعنا على أن ندعو الله تعالى أن يمن على صغارنا بالصحة والعافية والعمر المديد في طاعة الله وخدمة الإنسان، وهذا أكثر ثوابا وأعظم أجرًا عند الله، إنّ ما أريد قوله هو: إنّ موت الإنسان طفلا ليس فيه ظلم له، ولا ينافي عدل الله وسعة رحمته، بل قد يكون ذلك هو عين الرحمة والمحبة الإلهيتين في قبض روح هذا الإنسان طفلًا قبل أن ينشأ كافرًا أو متمردًا أو يكون وبالا على ذويه، وإننا على ثقة بأن ما يفعله الله تعالى بنا هو عين الرحمة والحكمة.

ثانيًا: وتعليقًا على الحديث عن معاناة والديه وألمهما وحسرتهما على فقد ابنهما نقول: إن ما يتحمله والده من الألم والحسرة سوف يتم تعويضهما عليه (إذا صبرا على هذا البلاء) بأضعاف مضاعفة من المسرة والفرح يوم لا ينفع مال ولا بنون هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ طبيعة هذه الحياة الدنيا أنّها محفوفة بالبلاء والألم، ونحن عندما نريدها خالية من الآلام والأوجاع والابتلاءات فهذا من تمني المستحيل وهو لن يكون ولن يحصل، لأن الحياة الخالية من كل كدر وألم إنما هي الحياة الآخرة لمن آمن وعمل صالحًا، إن عالم الدنيا هو عالم التكليف والاختبار ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

السؤال الرابع: حول اليُتم ومرارته؟

وربما يتساءل البعض: لماذا قد يأذن الله تعالى بفقد الأب مع حاجة أبنائه الماسة إلى رعايته وكفالته؟ وقد يتساءل بعض الأيتام ببراءة الأطفال: لماذا يا رب أيتمتنا وأفقدتنا الأب والراعي والمعيل وجعلتنا نعيش الغم

والألم ومصاعب الحياة؟! لماذا أفقدتنا نعمة العيش في كنف الأم الرؤوم وحضنها الدافئ؟!

وفي الإجابة على هذه التساؤلات نقول:

أولًا: إنّ الحديث عن مرارات اليتم وآلامه لا يجوز أن يدفعنا إلى التشكيك بحكمة الله وعدالته، وذلك لأنّ إرادة الله تعالى قضت أن يسير هذا الكون ويتحرك وفق منطق السنن وعلى أساس القوانين، دون التدخل الإلهي المباشر في كل ما يجري في هذا العالم، إلّا في حالات نادرة واستثنائية جدًا ولمصالح نوعية كما في حالات الإعجاز، وعليه، فمن يطلب من الله تعالى أن يتدخل هنا أو هناك إنما يطلب تغييرًا في القوانين، والحال أنها قوانين ثابتة، ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣]. إن القوانين التي تحكم هذا العالم قضت بأن من يعتدي على غيره فيطلق النار عليه فيصيبه في مقتل، فلا مفر من موته ولو كان معيلًا وحيدًا لعدة أبناء صغار ولا معيل لهم سواه، وإذا كان بعضنا يرغب في تدخله تعالى في هذه الحالة، فإن البعض الآخر يرغب في تدخله عزّ وجل في نظائر ذلك من الحالات كما لو تسبب ظالم بإحراق مزرعته التي هي مصدر رزقه الوحيد، والبعض الثالث سيطلب من الله تعالى أن يتدخل لإنقاذ طفله الصغير من الموت المحدق به، ورابع سوف يطلب منه تعالى أن لا يقبض روحه لأنه يكره الموت، وهكذا لا تنتهي الرغبات والطلبات والاستجابة لها تعني شيئًا واحدًا وهو تغيير القوانين الحاكمة لهذا العالم.

ثانيًا: إنّ تغيير القوانين الحاكمة لهذا العالم ليس مستحيلًا على الله تعالى، ولكنّ حكمته قضت بأن تكون هذه الحياة محكومة لهذه القوانين، ومحفوفة بالآلام، لأنّها دار اختبار وبلاء وهي مقدمة للحياة الحقيقية الخالية من الأكدار، قال تعالى وهو يشير إلى معاناة الإنسان في هذه الحياة: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال الشاعر أبو الحسن التهامي:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفوا من الأقذاء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار[١]

ثالثًا: إنّ الأنفع والأجدى لنا وبدل أن نشغل أنفسنا في طلب المستحيل وهو تغيير القوانين، وبدل أن نلقي باللائمة على الله تعالى أو نعترض على حكمته، الأجدى أن نتأقلم مع هذا الواقع ونتقبله على ما هو عليه، ونسعى لتطوير حياتنا نحو الأفضل، وننشغل في ما هو من مسؤولياتنا. إنّ مشكلة الإنسان أنه يبرع في إلقاء اللائمة على غيره، حتى لو كان هو الله الخالق والحكيم، ويتناسى مسؤوليته في هذه الحياة بحكم أنه خليفة الله على الأرض وقد طلب إليه في ضمن عهد الخلافة أن يسعى للإصلاح في الأرض وأن يبني مجتمع العدل ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، ويمنع التعديات والظلم، ويحول دون وقوع القتل الذي يؤدي إلى اليتم، وإذا حصل اليتم لسبب أو لآخر فعليه أن يتحمل مسؤوليته في رعاية الأيتام وتعويضهم ـ قدر المستطاع ـ ما فقدوه بموت الأب.

رابعًا: إنّ آلام اليتم لا يجوز أن تنسينا ما يمكن اعتباره جانبًا إيجابيًا في المسألة، باعتبار أنّ معاناة اليتيم قد تفجر طاقاته وتصقل شخصيته، لأنّ الإبداع كثيرًا ما يخرج من رحم المعاناة.

خامسًا: إنّ قيام المجتمع بمسؤولياته تجاه اليتيم، سوف يخفف عنه الكثير من أعباء اليتم، ويعوضه كثيرًا مما فقده بفقد الأب، وإذا توفرت مؤسسات رعائية تربوية متخصصة فإنها ستعين اليتيم ليس على تخطي مشكلة اليتم والحد من آثارها السلبية فحسب، بل إنها قد تساعده وتهيؤه ليكون إنسانًا مبدعًا وخلاقًا، وهذا ما نراه رأي عين في الحالات التي توفرت فيها لليتيم يدٌ حانية وقلب رؤوف وعقل يخطط ويدبر. ولا نبالغ بالقول: إننا قد لاحظنا أنّ بعض الأيتام الذين توفرت لهم الرعاية المناسبة كانوا أفضل حالًا

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان (ت٦٨١هـ).

من بعض الأطفال الذين لديهم آباء وأمهات ولكنهم يعيشون حالة من التفكك الأسري، بحيث يعيش الأطفال في هذه الأسرة يتمًا عاطفيًا واجتماعيًا.

السؤال الخامس: هل الشرّ فطرة فطرنا الله عليها؟

إنّ الجميع يعلم حقيقة العدائية الانسانية منذ أن وجد هابيل وقابيل حتى وقتنا الحاضر.. وإنّ الشر المكنون في أعماقنا النفسيّة والتاريخيّة ليس نتاج إنساني أو صناعة بشرية بل هي ميول فطرنا عليها منذ آدم وحواء إلى وقتنا الراهن وستبقى كذلك إلى نهاية العالم!

الجواب: لا يمكنني أن أفهم هذه الميول الفطرية الشريرة أو النزعات العدوانية التي تعتمل بداخلنا على أنها قدر لا مفر لنا منه أو أننا عاجزون أمامها أو منقادون لها بشكل يسلبنا إرادتنا وحرية الاختيار التام، والدليل على ذلك أن كثيرين قد استطاعوا أن ينتصروا على نزعة الشر لديهم ويقهروا شيطان النفس والهوى ويَسْمُوا في أفق التسامح ويحلقوا في عالم الروح والمعنى والحب والرحمة. وإن ما ذكرتموه في السؤال من قصة «قابيل وهابيل» هي شاهد على صوابية ما قلناه، لأنه إذا انتصرت لدى قابيل نزعته العدائية، فسولّت له نفسه قتل أخيه فقتله وكان من الآثمين، فقد سبقتها في الانتصار نزعة الخير وفطرة التسامح لدى هابيل الذي رفض قتل أخيه، وقال له كلمته الخالدة: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، فلماذا لا نتخذ هابيل مثلنا الأعلى؟! وهو مثل يدل على أنّ الخير قديم قدم الإنسان ومغروس فيه.

وأقولها بكل تأكيد وثقة: إنّ علينا أن لا نعيش الإحباط ولا نسمح لليأس أن يقتلنا أو يمنعنا من أن نبدأ رحلة التغيير سواءً على مستوى الواقع الاجتماعي العام أو على مستوى أنفسنا، فاليأس دليل العجز وشعار الكسالى وسمة الفاشلين، وفي أضعف الإيمان فإنّ بإمكاننا أن نخفف من

نزعة الشر الكامنة فينا إن لم نستطع التغلب عليها بشكل كامل، ولذا لا تراني منسجمًا مع أبي الطيب المتنبي في قوله:

والظلم من شيم النفوس فإنْ تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

السؤال السادس: الزلازل وغضب الله تعالى

هل صحيح ما يقال إن ما يحدث من ظواهر كونية كالزلازل وقلة الأمطار هو غضب من الله سبحانه وتعالى بسبب ذنوب العباد أو الفساد في الأرض؟ وكيف يتم ربطها بهذه الآية ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: **١٣٣**] والتي دلّت على أنّ القوم عصوا وأنزل الله عليهم العذاب؟

الجواب: لقد جرت مشيئة الله سبحانه وتعالى على أن يسير هذا الكون وفق منطق السنن والأسباب والمسببات، في الحديث: «**أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها**». لذا، فإننا معنيون بدراسة كل الظواهر الكونية، وأن نتعرف على أسبابها في سبيل تلافي ما قد ينتج عنها من أضرار تصيب الإنسان.

وعليه، فلا صحة لتفسير هذه الظواهر على أنّها تعبير عن غضب الله على عباده، أجل، قد يكون من أسباب بعض هذه الظواهر ما يمارسه الإنسان من أعمال عدوانية بحق الطبيعة بما يتسبب بكوارث بيئية أو طبيعية، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في سورة الروم ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الرّوم: ٤١].

أما قول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: **١٣٣**]، فهذا يمثل حالة خاصة وليس قانونًا عامًا، وقد حصل ذلك مع بني إسرائيل، وربما حصل مع قوم آخرين، ويسمى هذا النوع من العقاب أو العذاب بعذاب الاستئصال وله فلسفته وحكمته. ولقد رفع الله سبحانه وتعالى هذا

النوع من العقاب على الأقل بعد بعثة النبي محمد ﷺ، كما يوحي بذلك قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

السؤال السابع: لماذا زوائد الجسد؟

مولانا، إذا كان المشرع الإسلامي قد أمرنا بإزالة بعض الشعر من جسدنا فلماذا خلقه على أجسادنا؟

الجواب: إنّ طبيعة تكوين الإنسان ونحوه تفرض أن تخرج من جسده بعض الزوائد كالأظفار أو الشعر في بعض المواضع من جسده، ووجود هذه الامور ليس عيبًا فيه، فلقد خلق الله الانسان في أحسن تقويم، وإنّ للشعر أو للظفر أو نحوها وظائف تكوينية وجمالية، بل إنّ عدم وجودها هو الذي يشكل عيباً في الإنسان، لكن هذه الأشياء إذا طالت وزادت عن حدها بحكم النمو الذي تفرضه حياة الجسد، فإنها قد تغدو منفرة، كأظافر الانسان التي قد تطول كثيرًا، أو كشعر شاربيه الذي قد يغطي فمه اذا تركه وهكذا، ولهذا دعانا الإسلام إلى تخفيفها وتهذيبها حفاظًا على جمالنا ونظافتنا وأناقتنا.

السؤال الثامن: أيختبرنا وهو يعلم مصيرنا؟

يقول المنطق الديني: لقد خلقنا الله تعالى لكي يختبرنا ويكشف من كان منا أحسن عملًا، مع أنه جل وعلا يعلم مصيرنا من المهد إلى اللحد، فلماذا الاختبار؟

الجواب(١): اختبار الله لعباده لا يهدف إلى تعرف الله تعالى على مدى التزام عباده بأوامره ونواهيه، فهو عز وجل علام الغيوب ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة. وإنما يرمي من وراء الاختبار، إظهار الأمر للعبد نفسه

(١) في ثنايا الباب الأول من الكتاب تمّت الإجابة التفصيلية على هذا السؤال، فراجع.

وإبراز طاقاته ومكنوناته، فابتلاؤه للعبد يرمي إلى تمحيصه وصقل شخصيته وتهذيبه، لأن العبد إنما تُصقل شخصيته من خلال الاختبارات والابتلاءات.

السؤال التاسع: الاعتراض على آية

مولانا، كيف نوفق بين قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] وبين علم المنتحر بمكان وزمان موته؟

الجواب:

أولًا: إنّ الحالات التي يصمم فيها الإنسان على الانتحار ثم لا يقع الموت عقيب فعل الانتحار مباشرة وإن كانت نسبتها المئوية ضئيلة ولكنها كافية لنفي دراية الإنسان بمكان موته، ألا ترى أنّ الذي يضع «المسدس» في رأسه ويطلق النار على نفسه قد ينجو بأعجوبة أو ربما تكون الإصابة بليغة ثم ينقل إلى المستشفى فيموت هناك وليس في المكان الذي صمم على الموت فيه، وربما لا ينطلق الطلق الناري أصلًا. وهكذا ألا ترى أنّ بعض الانتحاريين الذين لفوا أجسادهم بأحزمة ناسفة وقصدوا إلى تفجير أنفسهم في مكان ما قد تم اكتشافهم قبل الوصول إلى المكان المقصود فقتلوا أو قتلوا أنفسهم وكان موتهم في غير المكان الذي صمموا على الموت فيه!؟

ثانيًا: وقد يقال إنّ الآية أساسًا ناظرة إلى حالات الموت الطبيعي التي يواجه فيها الإنسان الموت وفق الأسباب المألوفة والتي يأتي فيها الموت إليه، لا الحالات الشاذة والنادرة التي يندفع فيها المرء باختياره إلى الموت، تماما كما أنّها لا تشمل الحالات النادرة التي يعلم فيها الإنسان بإيحاء من الله بزمان موته ومكانه كما قد يحصل ذلك مع بعض أنبياء الله عليهم السلام، فهذه الحالات لا نظر للآية إليها أساسًا، وفي ضوء ما ذكرنا فلا وجه للتحدي مع الله جلّ وعلا.

السؤال العاشر: لماذا خلق الكواكب؟

نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق شيئًا عبثًا، بل لكل شيء عنده غاية وهدف من خلقه.. ولكنّ عقلي القاصر لم يستطع التوصل إلى سبب خلق الكوكب مثل عطارد والزهرة وغيرها من الكوكب التي لا يستطيع الإنسان العيش عليها، فما هو الهدف والغاية وراء خلقها؟

في الإجابة على هذا السؤال لا بد لي أن أسجل ما يلي:

أولًا: إنّه يكفي فائدة لخلق الكواكب أو غيرها أنها تمثل مظهرًا من مظاهر قدرة الله وعظيم سلطانه، وبعبارة أخرى: هي دليل على عظمة الخالق وسعة قدرته، لأننا إذا كنا لا نراه بأعيننا بشكل مباشر فإننا نراه في آثار ملكه وأسرار خلقه، وهذا سوف يشكل دافعًا قويًّا لخضوع الإنسان له تعالى ومدعاة لتسبيحه وتحميده وشكره.

ثانيًا: إنّ الإنسان وإن استطاع أن يكتشف ببركة التطور العلمي هذه الكواكب أو يتعرف عليها إلّا أنّ ما يجهله عن هذا العالم هو أكثر بكثير مما يعلمه، وإذا لم يستطع اليوم اكتشاف فوائد بعض المخلوقات، فلربما يكتشف ذلك في المستقبل، فلا يجوز لنا التعجل في الحكم بنفي الفائدة عن أي مخلوق أو كائن، ولا سيما أننا نؤمن بأن الله تعالى حكيم ولا يفعل العبث ولم يخلق شيئا إلّا لغاية وحكمة وإن لم نفقهها.

ثالثًا: إنّ علينا ونحن نتأمل في مخلوقات الله تعالى أنْ لا نجعل من أنفسنا نحن بني الإنسان المقياس في الحكم على الأشياء بالضرر والنفع، فما يكون فيه نفع لنا فهو خير وما ليس فيه نفع لنا فهو شر! إنّ هذه الرؤية في الحكم على الأشياء قاصرة وغير صحيحة، فهذه المخلوقات هي كائنات موجودة ويعتبر وجودها خيرًا لها وقد يكون فيه نفع لمخلوقات أخرى لا نعلم عنها شيئًا، وربما كان له دور في انتظام حركة الكون، وهذا يكفي مبررا لخلقها، لأننا لسنا الكائن الوحيد الذي خلقه الله تعالى، وإن كان الإنسان هو أشرف الكائنات على الأرض، باعتباره خليفة الله على الأرض.

السؤال الحادي عشر: دور الشيطان في زمن الإمام المهدي عليه السلام؟

مولانا، ما هو دور الشيطان في زمن المهدي (عج)؟

الجواب: إنّ للشيطان وظيفة واحدة وأساسية جند نفسه لها منذ أن طلب من الله تعالى إمهاله إلى يوم القيامة، ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] واستجاب له الله تعالى طلبه، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧ ـ ٣٨]، والوظيفة هي إغواء الناس ومحاولة إضلالهم، ولذا قال الشيطان: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]، وعليه، فما يمتلكه الشيطان هو التزيين فقط من خلال وساوسه، ولكنه لا يمتلك سلطة على الإنسان تفقده اختياره وإرادته، قال تعالى حكاية عن لسان الشيطان يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وهذه المهمة التزيينية كانت مهمة الشيطان سواء في زمن الحضور أو في زمن الغيبة، أجل، في زمن الغيبة قد تزداد المنافذ التي يدخل منها الشيطان محاولًا إغواء الإنسان، وذلك لأنّ التحديات في هذا الزمن كثيرة، والشبهات أكثر وأعقد، الأمر الذي يفرض استنفارًا على المستوى الفكري في سبيل تفنيد الشبهات المختلفة، واستنفارًا على المستوى الروحي في سبيل مجاهدة النفس الأمارة بالسوء، ومجاهدة الوساوس الشيطانية.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

٣. ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة.

٤. ابن شهر آشوب، محمد بن علي المازندراني (ت:٥٨٨هـ)، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، انتشارات علامة، قم ـ إيران.

٥. ابن طاووس، علي بن موسى بن جعفر (ت: ٦٦٤هـ)، الملهوف على قتلى الطفوف، تحقيق: الشيخ فارس تبريزيان، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ. ق.

٦. ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله النمري (ت:٤٦٣هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٧. ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت: ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر ـ بيروت، ١٩٩٥م.

٨. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد المقدسي (ت: ٦٢٠هـ)، المغني، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان.

٩. ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

١٠. ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت: ٧١١هـ)، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم ـ إيران، ١٤٠٥هـ.

١١. أبو داوود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داوود، تحقيق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٢. الأحسائي، أحمد، شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، (مدرجة في تراث الشيخ الأوحد)، ط٢، الأميرة للطباعة، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٧م.

١٣. الأربلي، علي بن أبي الفتح (ت: ٦٩٣هـ)، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان.

١٤. الأصفهاني، أبي الفرج، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، لا ط، لا ت.

١٥. الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥هـ)، مفردات ألفاظ القرآن الكريم، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ، طليعة النور.

١٦. الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٧. البحراني، ابن ميثم، شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، تحقيق وتعليق: مير جلال الدين الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، لا ط، لا ت.

١٨. البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر ـ بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.

١٩. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد (ت: ٢٧٤هـ)، المحاسن، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية ـ إيران.

٢٠. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت: ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، دار الفكر ـ بيروت.

٢١. البيهقي، علي بن زيد، معارج نهج البلاغة، تحقيق محمد تقي دانش،

إشراف: السيد محمود المرعشي، ط١، بهمن ـ قم، الناشر: مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ـ قم، ١٤٠٩هـ.

٢٢. التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد في علم الكلام، ط١، دار المعارف النعمانية ـ باكستان، ١٤٠١هـ.

٢٣. الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة (القرن الرابع)، تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، تحقيق، علي أكبرالغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٤. الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (١١٠٤هـ)، خلق الكافر.

٢٥. الحر العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (١١٠٤هـ)، تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة المعروف اختصاراً بـ «وسائل الشيعة»، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث ـ قم، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٢٦. الحلبي، علي بن إبراهيم (ت: ١٠٤٤هـ)، إنسان العيون في سيرة النبي المأمون المعروف بـ السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت ـ لبان، ١٤٠٠هـ.

٢٧. الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر الأسدي المعروف بالعلّامة الحلي، (٦٤٨ ـ ٧٢٦)، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن زادة الآملي، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة السابعة، ١٤١٧هـ.

٢٨. الحلي، محمد بن جعفر بن أبي البقاء بن نما (ت: ٦٤٥هـ)، مثير الأحزان، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف.

٢٩. الخزازي، محسن، بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، ط٥، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم، ١٤١٨هـ.

٣٠. الخشن، حسين، مع الشباب في همومهم وتطلعاتهم، المركز الإسلامي الثقافي، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٦م.

٣١. الخشن، حسين، المرأة في النص الديني، الانتشار العربي، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٧م.

٣٢. الخشن، حسين، حقوق الإنسان في الإسلام، منارات، ط٣، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٨م.

٣٣. الخشن، حسين، حاكمية القرآن، دار روافد، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠٢٠م.

٣٤. الخشن، حسين، فقه العلاقة مع الآخر المذهبي، الانتشار العربي، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٨م.

٣٥. الخشن، حسين، أبعاد الشخصية النبوية، الانتشار العربي، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠٢٠م.

٣٦. الخشن، حسين، أصول الاجتهاد الكلامي، المركز الإسلامي الثقافي، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٥م.

٣٧. الخشن، حسين، عالم دون أنبياء، منارات، ط١، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٧م.

٣٨. الخشن، حسين، حقوق الطفل في الإسلام، المركز الإسلامي الثقافي، ط٢، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٦م.

٣٩. الخوئي، السيد أبو القاسم الموسوي، والتبريزي الشيخ جواد (ت: ١٤١٣هـ)، صراط النجاة (استفتاءات)، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٠. الدينوري، ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ)، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، انتشارات الشريف الرضي، قم إيران، ط١، ١٤١٣هـ.

٤١. الرازي، محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط٣، لا.ت.

٤٢. الزيات، عبد الله وحسين بن سابور (ابني بسطام النيسابور عدي) (ت: ٤٠١)، طب الأئمة عليهم السلام، انتشارات الشريف الرضي ـ قم، الطبعة الثانية، قم، ١٤١١هـ/١٣٧٠ش.

٤٣. السبزواري، حاج ملا هادي، شرح الأسماء الحسنى، ط. حجرية، منشورات مكتبة بصيرتي ـ قم، ١٢٨٩هـ.

٤٤. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: ٩١١هـ)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

٤٥. الشريف الرضي، محمد بن الحسين (ت: ٤٠٦هـ)، نهج البلاغة، تعليق وشرح: الشيخ محمد عبده، دار الذخائر، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٤٦. الشريف الرضي، محمد بن الحسين (ت: ٤٠٦هـ)، المجازات النبوية، تحقيق: طه محمد الزيني، بصيرتي، قم ـ إيران، لا. ط، لا. ت.

٤٧. الشهيد الثاني، زين الدين الجبعي (ت: ٩٦٥هـ)، كشف الريبة عن أحكام الغيبة، انتشارات مرتضوي، طهران ـ إيران، الطبعة الرابعة، ١٣٧٦هـ ش.

٤٨. الصدر، السيد موسى، مسيرة الإمام موسى الصدر، إعداد يعقوب ضاهر، دار بلال للنشر، الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان، ٢٠١٤م.

٤٩. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي، (ت: ٣٨١هـ)، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، العراق ـ النجف الأشرف، ١٩٦٦م.

٥٠. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي، (ت: ٣٨١هـ)، عيون أخبار الرضا عليه السلام، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت لبنان، ١٤٠٤هـ.

٥١. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي، (ت: ٣٨١هـ)، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

٥٢. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي، (ت: ٣٨١هـ)،

الخصال، تحقيق: علي أكبر الغفاري، جماعة المدرسين ـ قم، ١٤٠٣هـ.

٥٣. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه (ت: ٣٨١هـ)، ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، تقديم: السيد محمد مهدي الخرسان، الطبعة الثانية، منشورات الشريف الرضي، قم، ١٣٦٨هـ. ش.

٥٤. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي، (ت: ٣٨١هـ)، التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٣٨٧هـ.ش.

٥٥. الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي، (ت: ٣٨١هـ)، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٩١٧هـ.

٥٦. الصنعاني، عبد الرزاق، تفسير القرآن، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، ط١، مكتبة الرشد والتوزيع، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ١٤١٠هـ.

٥٧. الطباطبائي، محمد حسين، أصول فلسفه و روش رئاليسم، تحقيق: الشهيد مطهري، انتشارات صدرا، ط٢، طهران، ١٣٦٨هـ.ش.

٥٨. الطباطبائي، محمد حسين (ت١٤١٢هـ)، تفسير الميزان، منشورات جامعة المدرسين.

٥٩. الطبرسي، أحمد بن علي (ت: ٥٦٠هـ)، الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان ـ النجف، ١٩٦٦م.

٦٠. الطبرسي، الفضل بن الحسن (القرن السادس الهجري)، جوامع الجامع، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ١٤١٨هـ.

٦١. الطبرسي، أحمد بن علي (ت: ٥٦٠هـ)، الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخرسان، دار النعمان ـ النجف، ١٩٦٦م.

٦٢. الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل

العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٦٣. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠)، مصباح المتهجد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٦٤. الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠)، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية ـ إيران، ١٣٦٥هـ.

٦٥. الطوسي، محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠)، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٦٦. الطوسي، محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠)، الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، منشورات مكتبة جامع تشهل ستون، طهران، ١٤٠٠هـ.

٦٧. العسكري، أبو هلال (ت: ٣٩٥هـ)، والسيد نور الدين الجزائري (ت: ١١٥٨هـ) معجم الفروق اللغوية (الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري وجزء من كتاب السيد نور الدين الجزائري)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ قم المشرفة، ط١، قم ـ إيران، ١٤١٢هـ.

٦٨. العياشي، محمد بن مسعود السمرقندي (ت: ٣٢٠هـ)، تفسير العياشي، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.

٦٩. الفتني، محمد طاهر بن علي الهندي، تذكرة الموضوعات، لا ت، لا ط.

٧٠. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت: ١٧٥هـ)، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، قم ـ إيران، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

٧١. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري (ت: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام

القرآن، مؤسسة التاريخ العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٧٢. القضاعي، القاضي محمد بن سلامة (ت: ٤٠٤هـ)، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.

٧٣. القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، لا ط، لا ت، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٧٤. الكاشاني، محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني (ت: ١٠٩١هـ)، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة: الثانية، قم إيران، الناشر، دفتر النشر الإسلامي التابع لجماعة المدرسين.

٧٥. الكراكجي، أبو الفتح، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، ط. حجرية ٢، قم، ١٣٦٩هـ.ش.

٧٦. الكليني، محمد بن يعقوب (ت: ٣٢٩هـ)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران، ١٣٨٨هـ.

٧٧. الكوفي، أحمد بن أعثم (ت: ٣١٤هـ)، كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت ـ لبنان، ١٤١١هـ.

٧٨. المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، (٨٨٨ ـ ٩٧٥هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حيّاني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٥م/ ١٤٠٥هـ.

٧٩. المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١١هـ)، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م.

٨٠. المرتضى، علي بن حسين بن موسى، الأمالي، تحقيق وتعليق: الشيخ أحمد بن أمين الشنقيطي، ط١، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، ١٣٢٥هـ.

٨١. المشهدي محمد بن جعفر، (الوفاة: ق ٦) المزار، تحقيق: جواد القيومي الأصفهاني الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ قم إيران، مؤسسة النشر الإسلامي.

٨٢. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٢٦ ـ ٤١٣هـ)، أجوبة المسائل الحاجبية أو المسائل العكبرية، تحقيق: علي أكبر الإلهي الخراساني، مجمع البحوث الإسلامية، الطبعة الثانية، بيروت ـ لبنان، ١٤٣٥ق/ ١٣٩٢ش.

٨٣. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي (٣٢٦ ـ ٤١٣هـ)، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، قم ـ إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٨٤. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، سنن النسائي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٣٠م، بيروت ـ لبنان.

٨٥. النيسابوري، مسلم بن الحجاج، (ت: ٢٦١هـ)، صحيح مسلم، دار الفكر ـ بيروت.

٨٦. مغنية، الشيخ محمد جواد (ت: ١٤٠٠هـ)، التفسير الكاشف، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

٨٧. سابق، سيد، العقائد الإسلامية.

٨٨. فلو، أنتوني، ليس هناك إله، كيف غيّر أشهر ملحد رأيه؟، ترجمة: د.صلاح الفضلي، ط١، الكويت، ٢٠١٥م.

٨٩. ول ديورانت، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: الدكتور فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت ـ لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

الفهرس

في المقدّمة لماذا يا ربّاه؟! ٥

سأحدّث ربّي جلّ جلاله ٥

وسوف أسأله أيضًا ٦

السؤال ليس تشكيكًا ٦

حدثوا الله واسألوه! ٨

هذا الكتاب ٨

طريقة المقاربة ٩

الباب الأوّل: معرفة الإشكالية والقواعد المنهجية في التعامل معها ١٣

المحور الأول: إشكالية الشرور: تاريخها، أبعادها، آثارها، معايير تقييمها ١٥

١ ـ أسئلة وإشكالات ١٥

٢ ـ تاريخ الإشكال ١٦

٣ ـ أبعاد الإشكالية ١٧

أولًا: تعدد زوايا الإشكال بتعدد وجوه النقص ١٨

ثانيًا: الإشكال من زاوية انعكاسه على الفكر الديني ١٨

٤ ـ إشكاليّة الشرور وآثارها على العقيدة والسلوك ٢٠

٥ ـ موازين التقييم ومعاييره ٢٢

المحور الثاني: أصول وقواعد ومبادئ عامة ٢٥

أولًا: العدل الإلهي مفهومه ودلالاته وأبعاده ٢٦

١ ـ مفهوم العدل الإلهي ٢٦

٢ ـ العدل أصل ٢٨

٣ ـ هل هناك من ينكر عدل الله؟ ٣٠

٤ ـ دلائل عدل الله ٣٢

٥ ـ القرآن الكريم وبداهة عدل الله ٣٣
ثانيًا: العدل وحريّة الإرادة ٣٥
١ ـ نظرية الجبر: دراسة ونقد ٣٥
أ ـ تاريخ المسألة ٣٦
ب ـ القائلون بالجبر من المسلمين ٣٧
ت ـ تفنيد عقيدة الجبر ٣٨
ث ـ دوافع القول بالجبر ٤١
ج ـ الجبر ومساهمته في تخلف الأمة ٤٣
ح ـ الوعد والوعيد لا ينافي الاختيار ٤٥
٢ ـ نظرية التفويض/ الاختيار المطلق ٤٦
أ ـ معنى التفويض ٤٦
ب ـ سلبيات هذه العقيدة ٤٧
٣ ـ نظرية الأمر بين أمرين ٤٨
أ ـ عقيدة أهل البيت عليهم السلام ٤٨
ب ـ ميزة هذه العقيدة ٤٩
ت ـ مثال لتقريب نظرية الأمر بين الأمرين ٥١
ثالثًا: الحسن والقبح عقليان أم شرعيان؟ ٥٣
أ ـ اختلاف الرأي في الحسن والقبح ٥٣
ب ـ أدلة العدلية في كون الحسن والقبح عقليين ٥٤
ث ـ العقل كاشف لا حاكم ٥٧
ج ـ ثمرات قاعدة الحُسن والقُبح العقليَّين ٥٨
الثمرة الأولى: أثرها على العقيدة والشريعة ٥٨
الثمرة الثانية: قبح التكليف بغير المقدور ٥٨
الثمرة الثالثة: قبح العقاب بلا بيان ٥٩
الثمرة الرابعة: تبعية الأحكام للمصالح والمفاسد ٥٩
الثمرة الخامسة: قاعدة الأصلح ٥٩
المحور الثالث: الابتلاء في القرآن الكريم ٦١
١ ـ مفهوم الابتلاء ٦٢
تصحيح خطأ ٦٣

٢ ـ من خصائص البلاء في الرؤية القرآنية ٦٤
٣ ـ ما علاقة الابتلاء بالإيمان؟ ٦٥
الغربيون أقل ابتلاءً! ٦٨
٤ ـ الابتلاء بالخير والشر ٦٩
يوسف وفتنة الجمال ٧٠
٥ ـ شكر الله على الابتلاءات ٧٢
هل نطلب من الله إنزال البلاء بنا؟ ٧٣
المحور الرابع: الشرّ والشيطان في القرآن ٧٥
أولًا: الشرّ في القرآن: حقيقته وأصنافه ٧٥
١ ـ الشرّ العرفي ٧٦
أ ـ الإنسان والفرار من الشرّ ٧٧
ب ـ استعجال الشرّ ٧٩
ت ـ الشرّ اختبار وامتحان ٧٩
٢ ـ الشرّ الحقيقي ٨٠
أ ـ الشرّ في بُعدَيه العقدي والسلوكي ٨٠
ب ـ الشرّ الحقيقي هو ما كانت نتيجته النار ٨١
ت ـ الوقاية من شرّ يوم القيامة ٨٢
ثانيًا: ما هو مصدر الشرّ في العالم؟ ٨٢
١ ـ علاقة الشر بالله تعالى ٨٣
٢ ـ الإنسان والشر ٨٤
أ ـ الشر صفة عارضة في الإنسان ٨٥
ب ـ لماذا خلق الله الإنسان الذي يصدر منه الشر؟ ٨٧
ت ـ قصة الشر / الجريمة الأولى ٨٨
٣ ـ الشيطان ودوره في الشرّ ٩٠
أ ـ من هو الشيطان؟ ٩٠
ب ـ خلق الشيطان كان خيرًا ٩١
ت ـ دور الشيطان في الشرّ ٩٢
الأولى: عداوة الشيطان للإنسان ٩٢
الثانية: نستطيع الانتصار على الشيطان ٩٣

الثالثة: الوسوسة للذكر والأنثى ٩٤
ث ـ رسول الداخل والخارج ٩٥
ج ـ التحذير الإلهي من الشيطان ٩٦
د ـ الحكمة من تمكين الشيطان من الوسوسة ٩٧
هـ ـ هل ظلم الله الشيطان؟ ٩٧
٤ ـ ما هي وظائف الملائكة؟ ٩٨
أ ـ من هم الملائكة؟ ٩٨
ب ـ وظائفهم وأدوارهم ٩٩
ت ـ كيف نفهم هذا الوظائف؟ ١٠٣
المحور الخامس: فلسفة خلق الإنسان في الرؤية القرآنية ١٠٥
١ ـ خلق الإنسان في رؤية العرفاء والفلاسفة ١٠٦
٢ ـ القرآن وفلسفة خلق الإنسان ١٠٨
أ ـ هدفية الخلق ١٠٩
ب ـ لم يخلقنا من موقع الحاجة إلينا ١١١
ت ـ ماذا يعني خلقنا للعبادة؟ ١١١
ث ـ العبادة لا تكون بدون معرفة ١١٣
ج ـ لقاء الله غاية الغايات ١١٥
٣ ـ لماذا خلق الله الكافر والعاصي؟ ١١٦
٤ ـ هل يناسب ذلك رحمته؟ ١١٨
٥ ـ ماذا لو لم يقتنع الإنسان بالجواب؟ ١١٩
الباب الثاني: المقاربة القرآنية لإشكالية الشرور ١٢٣
المحور الأول: معالجات غير موفقة لدفع إشكالية الشرور ١٢٥
١ ـ الثنوية ودفع الإشكالية ١٢٥
٢ ـ التناسخية ودفع الإشكالية ١٢٦
٣ ـ الأشاعرة ودفع الإشكالية ١٢٨
٤ ـ الشيخية ودفع الإشكاليّة ١٣٠
المحور الثاني: القرآن والمقاربة البرهانية لمشكلة الشرور ١٣٣
١ ـ الشر أمر نسبي وعارض ١٣٣
التقريب الأول: الشّر أمرٌ نسبيٌ وليس مطلقًا ١٣٣

التقريب الثاني: الخير متأصل والشر عرضي ١٣٥
الفلاسفة وعدمية الشر ١٣٧
٢ ـ كيف نبرهن على ذلك؟ ١٣٧
أولًا: التفاوت هو جزء من نظام عالم التكوين ١٣٩
ثانيًا: التنوع سرّ جمال الكون ١٤١
ثالثًا: النقص والألم وطبيعة الحياة ١٤٣
٣ ـ ما منشأ خطأ الإنسان في أحكامه؟ ١٤٥
أولًا: النظرة الضيقة ١٤٥
أ ـ قصة الرجل القروي مع ابنتيه ١٤٥
ب ـ وسعْ أفقك ١٤٩
ت ـ لا تتسرع في إصدار الأحكام ١٥٠
ثانيًا: كن جميلًا ترى الوجود جميلًا ١٥١
٤ ـ استحكام الإشكالية في الذهن ١٥٢
المحور الثالث: القرآن الكريم والمقاربة الإيمانية لإشكالية الشرور ١٥٥
١ ـ هل لنا من حق على الله؟ ١٥٧
ما لكم لا ترجون لله وقارا؟! ١٥٩
٢ ـ الركون إلى حكمة الله تعالى ١٥٩
٣ ـ النقص وقانون التعويض الإلهي ١٦٢
أ ـ التعويض الدنيوي ١٦٣
ب ـ التعويض الأخروي ١٦٥
هل نحن مؤمنون بالآخرة؟ ١٦٨
ت ـ التعويض التشريعي/ تناسب التكليف مع الطاقات ١٧٠
٤ ـ قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ودلالاتها ١٧١
أ ـ بداية القصة ١٧١
ب ـ محطات الرحلة ١٧٢
الموقف الأول: خرق السفينة ١٧٢
الموقف الثاني: قتل الغلام ١٧٣
الموقف الثالث: **إصلاح الجدار مجانًا** ١٧٤
ت ـ شرح أسرار المواقف الثلاثة ١٧٥

ث ـ وقفات من وحي القصة ١٧٧
الوقفة الأولى: **هل أخطأ موسى عليه السلام بالاعتراض؟** ١٧٧
الوقفة الثانية: مدى انسجام أفعال العبد الصالح مع ظواهر الشريعة .. ١٧٨
الوقفة الثالثة: كيف نفهم قتل الغلام؟ ١٨١
ج ـ الهدف من القصة ١٨٣
خ ـ مواقف مشابهة في حياة موسى عليه السلام ١٨٤
المحور الرابع: القرآنُ والمقاربة التربويّة لإشكاليّة الشرور ١٨٧
١ ـ المصائب وامتحان الإرادة ١٨٧
أ ـ دروس الأنبياء عليهم السلام ١٨٨
ب ـ حقيقة نبّه عليها الأئمة عليهم السلام وألفت إليها الشعراء ١٩٠
٢ ـ المصائب وإيقاظ الضمير ١٩٢
المحور الخامس: القرآن والمقاربة الاجتماعية لإشكالية الشرور ١٩٧
أولًا: الحلول الاجتماعية لمشكلة الشرور ١٩٨
١ ـ العدالة الاجتماعية والعدالة الإلهية ١٩٩
أ ـ فشل الخليفة وليس المستخلف ١٩٩
ب ـ مسؤولية الإنسان ٢٠١
لماذا تنتصر إرادة الشر لدى الإنسان؟ ٢٠٤
٢ ـ الرعاية العاطفية كواجب أخلاقي ٢٠٥
ثانيًا: الآثار الإيجابية للمصائب على الصعيد الاجتماعي ٢٠٧
١ ـ قانون التدافع ٢٠٧
٢ ـ المصائب والتكاتف الاجتماعي ٢٠٧
٣ ـ المصائب والإبداع ٢٠٨
الباب الثالث: الموت والمرض والشذوذ الجنسي ٢١١
المحور الأول: كيف نفهم الموت ونتعامل معه؟ ٢١٣
١ ـ الموت الحقيقة التي لا مفر منها ٢١٤
أ ـ الموت سنة ماضية ٢١٤
ب ـ الموت ليس عدمًا ولا شرًا ٢١٥
٢ ـ الموت والولادة الثانية ٢١٦
أ ـ الموت بداية حياة ٢١٦

ب ـ عندما يغدو الموت نعمة! ٢١٧
ت ـ كفى بالموت واعظًا ٢١٨
٣ ـ لماذا نكره الموت؟ ٢١٩
أ ـ هل لنا بصداقة الموت؟ ٢٢٠
ب ـ الموت يعلمنا كيف نعيش الحياة ٢٢١
٤ ـ أثقافة حياة هذه أم ثقافة موت؟ ٢٢٢
أ ـ عبثية الحياة المنتهية بالموت ٢٢٢
ب ـ الإيمان بالحياة بعد الموت وتهذيب الإنسان ٢٢٣
ت ـ هل صحيح أن ذكر الموت يفسد حياتنا؟ ٢٢٣
ث ـ القناعة واليقين ٢٢٤
ج ـ احترز من دعوتين على إطلاقهما ٢٢٥
المحور الثاني: كيف نفهم المرض ونتعامل معه؟ ٢٢٧
١ ـ التفسير العلمي للمرض ٢٢٧
٢ ـ المرض عقوبة أم ابتلاء؟ ٢٢٩
٣ ـ المرض كفّارة للذنوب ٢٣٤
٤ ـ هل يُثاب المريض على مرضه؟ ٢٣٥
٥ ـ الشريعة والتخفيف عن المريض ٢٣٧
المحور الثالث: المثليّة أو الشّذوذ الجنسي: الإشكاليّة والمعالجة ٢٣٩
١ ـ تفاقم المشكلة ٢٣٩
٢ ـ وقفة مع التسمية ٢٤١
٣ ـ في الأسباب ٢٤٢
٤ ـ في الدليل على الحرمة ٢٤٣
أ ـ دليل حرمة اللّواط ٢٤٣
ب ـ دليل حرمة المساحقة ٢٤٤
٥ ـ فلسفة تحريم الشّذوذ ٢٤٦
٦ ـ هل ظلم الله الشاذين؟ ٢٤٧
٧ ـ سُبل العلاج.. واجبنا وواجبهم ٢٥٠
أولًا: الخطاب الجاذب ٢٥٠
ثانيًا: تضافر الجهود ٢٥١

ثالثًا: العمل المؤسّسي المتخصّص ٢٥١
رابعًا: النظر إلى القضيّة باعتبارها ابتلاءً ٢٥٢
خامسًا: تهيئة الأجواء ٢٥٣
ملحق: أسئلة وأجوبة حول الشرّ والموت واليُتم وتشوّه الأطفال ٢٥٥
السؤال الأول: لماذا خلقنا ثم يميتنا؟ ٢٥٧
السؤال الثاني: الموت والمجهول ٢٥٨
السؤال الثالث: موت الأطفال وتشوههم ٢٥٩
السؤال الرابع: حول اليُتم ومرارته؟ ٢٦٢
السؤال الخامس: هل الشرّ فطرة فطرنا الله عليها؟ ٢٦٥
السؤال السادس: **الزلازل وغضب الله تعالى** ٢٦٦
السؤال السابع: لماذا زوائد الجسد؟ ٢٦٧
السؤال الثامن: أيختبرنا وهو يعلم مصيرنا؟ ٢٦٧
السؤال التاسع: الاعتراض على آية ٢٦٨
السؤال العاشر: **لماذا خلق الكواكب؟** ٢٦٩
السؤال الحادي عشر: دور الشيطان في زمن الإمام المهدي عليه السلام؟ ٢٧٠
المصادر والمراجع ٢٧١